مبارك ربيع

الريح الشتوية

رواية

مبارك ربيع

الريح الشتوية

رواية

الطبعة الثالثة 1996
© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
لوحة الغلاف : للفنان فؤاد بلامين
الايداع القانوني رقم : 1996/960

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يسعدني غاية السعادة، وأنا أقدم هذه الرواية، إلى أبنائنا الأعزاء أن أعبِّر عما كنتُ أشعر به دائماً من أن «الريح الشتوية» من أهم ما يجب أن يوضع بين أيدي الطلبة والتلاميذ، للدراسة والتحليل.

فهذه الرواية في تقديري، تعْرِضُ الكثير مما يجْمُل تمَلّيه : صوراً من شخصياتٍ ومواقفَ تسِمها القوة والشدَّة حيناً، ويطبعها الضّعف واللين حيناً آخر ؛ ولكنها جميعاً، تؤشّر على ما يتَّجه إليه بكل حميةٍ وحماسة، مجتمع جادٌ في تحوُّله وتجديد آلياته، ليواجه قضايا العصر ومشاكله...

شخصياتٌ ومواقفُ خِلتُها كانت تتحرك فألاحظ، وتتحدث فأنصِت... هي على طريقتها، وأنا على طريقتي حتى التقينا وتآلفنا. وكانت «الريح الشتوية» نتيجة ذلك... هذه الرواية التي وإن لم تكن أولَ ما نُشر لي، إلا أنها مع ذلك، كانت أول ما بدأتُ كتابته، أو كتبتُه فعْلاً.

ولا يسعني في ختام هذه الكلمات، إلا أن أعرب عن تقديري، للأجِلّاء الأساتذة والمرشدين التربويين في حرصهم الشديد الدقيق، على ما يربي العقول والأذواق، لصالح ناشئتنا الغالية ؛ رجالِ الغد، وصانعي المستقبل لهذا البلد العزيز الأمين.

والله الموفق.

المؤلف

القسم الأول

1

ما الذي يقع فتتحول الخواطر إلى إبر تخز الجنب ؟ ويجفو الكرى فراش الشوك ؟ لِمَ ينتفض القلب فجأة حتى تملأ نبضاته السمع ثم تهن فلا يتصيدها المتلمس ؟.. والجراح الخفية من أين مأتاها ومذهبها ؟... وتطلع العربي الحمدوني إلى الشمس الهاربة نحو المغيب دون أن يجد جواباً، ألف خاطر سيء ينتابه، ولابد من الانتظار، ولابد للانتظار من نهاية. وكأنما عزم على أن يقطع حبل انتظاره حين ترك صخرة ناتئة كان مرتاحاً عليها، واتجه مقترباً من تجمع الناس والأشياء والدواب في فسحة محطة (كراج علال).

كان جل المنتظرين من البدو، يترقبون سيارات النقل الكبيرة تعود بهم إلى قراهم، بعد أن قضوا ما هم في حاجة إليه من المدينة أو من زيارات ذويهم، وقد تجمدت حركة الخليط في هذا الوقت : البائعون بصناديقهم المربوطة إلى صدورهم أو عرباتهم، والسقاءون بقِرَب الماعز، وأزرارهم وأوانيهم النحاسية المدلاة بهت بريقها تحت أشعة شمس متعبة منحدرة. نهاية النهار تنبىء بحلول التعب، وحتى رائحة الفول والحمص المسلوق قد خفت بعد أن نضب بخارها منذ منتصف النهار، وبين الحين والآخر يقطع هذا الركود نهيق أو صهيل من خليط العربات والخلائق الواقفة... ويُسوِّط ذيل ما لطرد ذباب لجوج...

لمْ يحفل العربي الحمدوني في هذا الخليط بموقع أقدامه على روث أثمرته حركة الدواب ووقوفها المستمر طول النهار. في سره، كان يتأمل هذا الجمع من القرويين المنتظرين لحظة العودة إلى قراهم ليعيش مشاعرهم الخفية... فبمجرد ما يظفر أحدهم بتذكرة الركوب الصغيرة، يملؤه شعور بالبهجة والظفر، فيتملى الورقة بإعجاب كأنه يحاول أن يكشف سر الكيمياء التي حولت نقوده ورغبته إلى ورقة صغيرة زرقاء، قبل أن يطويها ويغلق عليها شْكارته الضخمة في حرص شديد... الورقة الصغيرة العجيبة ! وبعد ذلك انتظار طويل. وفرحة أخرى عندما يحين موعد

الزحام عند قدوم حافلة السفر، ومعركة الركوب شيء عجيب. دافِعْ بمنكبيك حتى تظفر بموقع لقدمك على درجة الباب وتمسّكْ جيداً بالمصراع لترتفع بجسمك عن الأرض، وحذارِ أن تترك شْكارتك مدلاةً إلى جانبك، بل عضّ عليها بالأسنان، فهذه المعركة مرتع خصب للصوص والنشالين.

منتظرون للعودة، والحمدوني وحده يمتلىء ضيماً أو هكذا يحس... ينتظرون... وعندما يعود أُحدهم إلى القرية يتطاول في طرقات الدوار منتشياً سعيداً مبكراً إلى مجالس الرجال، منتظراً أوبة الجميع ليحدثهم عن مغامراته وغرائب ما رأى في المدينة :

ـ على سلامتك يا قدّور.

ـ الله يسلمكم.

ـ ... فرحتك يا قدور. شفت المدينة !

وينتشي مجيباً.

ـ شفت العجب.

وتنساب صور الأزقة الضيقة في المدينة والعيش المقتر...

ـ عْجاب..

والعُجاب حقا في إضاءة الأنوار الكهربائية، والتفكُّهُ حقاً في انزعاج هذا القروي أو ذاك لدى سماع نفير سيارة كادت تدهمه، والحيرة حقاً في مبدإ السير إلى اليمين أو إلى اليسار، لا في وسط الطريق كما تقضي بذلك سُنّة الطبيعة... وكلّ طريف في حكايات شطّار المدينة ولصوصها وتربّصهم بالقروي لاستغفاله وسلْب متاعه.. حكايات يتعانق فيها الواقع والخيال، ليتولد من ذلك سحر عجيبِ مُلوّن.

ـ غْميرات عملوها به...

ويتضاحك القوم بينما يدافع عميرات عن نفسه مستنكراً.

ـ عملوها بيا ؟... عملتها بهم أنا...

وترتفع الضحكات كأنها غير مصدقة هذا الدفاع، أو هي تتعمد ذلك لتغري عْميرات أو قدّور أو غيرهما، ممن عاد لتوه من المدينة ليقص ويعيد عليهم ما قد سمعوه مراراً... ويتداخل الواقع والخيال من جديد.. فقد ضاقت نفْس القروي ببيت مضيفه أو قريبه في المدينة، فتصيَّدَ فرصة يخرج بها للتفسح في الخلاء بعيداً عن هذه البنايق الضيقة التي يسمونها المراحيض في دُور المدينة... خرج يتلفّت حواليْه ثم سار نحو ظاهر الحي حيث يمتد الفضاء والخلاء، وانتحى له مكاناً قصياً في ظلام ليل لا يغشاه ضياء، وعندما انتبه إلى نفسه وإلى ما حوله، تبين أن الصمت حوله ليس مطلقاً، وتبيّن أشباحاً تحوم حوله في الظلام فتوجَّس الشر، وأسعفه حدْس حاذق ليقوم مستعجلاً صائحاً نادباً ضَياع شْكارته وماله.. وسُرعان ما تنضمّ إليه الأشباح في عطف وإشفاق كما قدَّر.. عطْف وإشفاق كان يدرك معناهما جيّداً، فبالغ في إظهار لوعته ويداه تبحثان بحركة عشوائية مفتعَلة في كل مكان علّها تصادف الشّكارة الضائعة، وازدادت لذلك لوعة الأشباح وحسرتها بلوعته.. ودلَّهُ ذلك على عظيم خسارة الأشباح بضياع الشْكارة، وضياع كل ما خططتْ لسلبها منه.

ـ فين كنت قاعد ؟ فين طاحت منك ؟

ـ هنا، ثَمّ... شوفو معايا، ما عرفت. قلّبوا يرحم والديكم... شْكارتي وفلوسي ضاعوا مرة واحدة... ويبالغ في البحث والتنقيب، وتتحرك حوله الأشباح باحثة بجد وعزيمة، تمسح بأيديها الأرض في الظلام.. يحدوها أمل عظيم في أن تجد الشكارة بما فيها، وتسجل بذلك أسهل مهمة في تاريخها.. ولعل الأشباح كانت في حاجة إلى فترة كافية للتفتيش قبل أن يدِبّ اليأس أو الشك في نفوسها، لتفحص موقف صاحبها الْمُلْتاع وتتأكد من صدقه. وقبل أن تحين هذه اللحظة الحاسمة، كان الْمُلْتاع يفتش وينتحب على مَبْعدة أمتار قدَّر أنها تتيح له سبقاً، بعد أن وازَن جيداً بين موقعه في الظلام وبين أقرب مصباح يلوح في الحي، ورمى بنفسه يركض في خفة الغزال ووراءه أصوات اللصوص وأقدامهم.

ـ اجْرِ. شدّ.. شدّ الكلب.. ولد الحرام...

ولكنه ما كان ليضيع فرصتَه الوحيدة في النجاة، فلم يتوقف حتى...

- حتى دخل عْميرات قاع البيت.

ويتضاحك رجال الدوار ويضيف آخر :

- لا.. حتى وصل للدوار.

- تحيا الرجولة.

وشارك عميرات في الضحكات دون حرج، رغم ما سببته له من وخز خفيف، ويعلق :

- على كل حال عملتها بهم ونجّيت راسي.

- ويديك ؟

- يديا ؟

- معلوم يا أخي يديك في الظلمة و...

وفهم ما يرمي إليه صاحبه بين الضحكات. متأففاً :

- خلاص أنت.

- والبلغة يا بطل ؟

- آه حقا هذي ضاعت بالجدّ.

حكايات وأحداث تكرر وتعاد كل موسم من مواسم الصيف، عندما يشتد تردد القرويين على المدينة لبيع حبوبهم، أو جلب حاجياتهم وزيارة ذويهم. ومثلهم كان العربي الحمدوني يجد لذة ومتعة، ويعيش هذه الحكايات التي تدور عليه حيناً، وعلى غيره حينا آخر...

وكان على يقين من أن هؤلاء القرويين، رغم اعتزازهم بنمط حياتهم الخاصة، ينطوون على إعجاب خفي بحياة المدينة... وسرح الحمدوني ببصره فيما حوله متجاوزاً الكُتل الهامدة المنتظرة في فُسحة العَراء، التي تكوّن المحطة، رامياً بنظرته إلى مدى أبعد : دروب المدينة الأهلية الحديثة نسبياً، ترتفع مبانيها المتلاحمة عن الأرض طابقاً أو طابقين،

تفصل بين أجزائها بين الحين والحين مساحات فضاء تكوّن مزابل ومراتع للأطفال والمشردين، وجامعي النفايات...

* * *

عالم غريب وخواطر أشد غرابة، تحرك قدمي الرجل في أناة أشبه ما تكون بالغيبوبة، فسار يتجول بين ركام الأكياس وأكوام البشر النائم المتعب في طول انتظار. وآونة بعد أخرى، يرتفع بكاء طفل فيُخرسه ثدي مدْرار.

كان يتفحص الوجوه في ذهول، كأنه يبحث عن شخص معيّن، لتتجمدَ نظرته أخيراً عند طفل يمتص ثدي أمه بهمة ؛ وابنُه الصغير كيف حاله ؟ كيف أصبحت أسرته بعد الفراق الطويل. والبنت خدوج كيف هي ؟ ما أغرب الذكريات. صورة ابنه وابنته تملأ خاطره، وعبثاً يحاول إبعادها لتحل محلها صورة زوجه ؛ وكم يوَدّ أن يتلهّى بها في أناة وتدقيق فلا يستطيع ولا تحضره إلا إجمالا في قِوامها القوي المتين، في طاعتها وصبرها على نزواته. هل تعتصي صورته عليها أيضاً ؟ أهُو الجفاء ما يجعل حضور الذكرى يستعصي أم هي شدة اللهفة ؟... رأسها المنحني في خجل بالغ وتوجس، وتقوُّس حاجبيْها على الجبين العريض يزينه شريط حريري أخضر، تدلَّتْ في منتصفه على ملتقى الحاجبين قطعة فضية.. ذاك كل ما يحضره منها معطراً بعبير الحناء في ليلته الأولى معها، وقد انضافت حمرة الخجل إلى حمرة الورد في الخدين، وضاعف بياض الإزار الملفوف حولها من إضفاء طابع البراءة والصفاء على عروسه، فتقدم مبتسماً ليجلس بجانبها بتُؤدة، وقد خيِّل إليه أنه يسمع دقات قلبها الواجف فاجتاحه حب وإشفاق.. لا تَرْتعبي يامُهْجتي... لكنه لم يفعل شيئاً، واستمر في حيرة يبحث عن كلماته ويداها تشدّان على طرَف الإزار تفتلانه بقوة حائرة ولا وعي.

- تَفَتْلي وحدك ؟

وتجمدت حركة يدها، ويده تمسُّها في رفق.

- نفْتل مْعاك ؟

لم تحُر جواباً، فزاد في ضغط إحدى يديه على يديها، بينما يحاول بيده الأخرى أن يرفع وجهها إليه، فأحس ببعض مقاومة منها، لتنصاع لحركته مُغمضة العينين، حتى إذا واجهه مُحيّاها المشرق لم يملك إلا أن يتركها تُشيح عنه.. قمر.. فوق الوصف والتعبير، أضاء في لحظة لقاء أولى وأبدية. كريمة الكرام، لن يخيب طالعك...

وبُعَيد الفجر، وقبل أن يأذن العربي لحركة تنتظر خارج الباب، رنا إلى وجهها وهي مستلقية إلى جانبه مغمضة العينين في رضى كامل، وطبع على جبهتها قبلة حارة، فرفعت عينيها وأغمضتهما من جديد وأشاحت عنه.. إذن فلقد طاوعته الذكرى أخيراً وبتفصيل، ولكنه يستعيد ذلك بحُرقة وألم. أين هي الآن وماذا كابدت بعده منذ شهور ؟ واهتزت أطرافه اهتزازاً خفيفاً كالمرتعد وخاطر خبيث يعْبُر ذهنه.. ولكن هل يجرؤ أن يساومَها في عرضها خسيس في غيبته ؟ وتلفَّت حوله كأنما يخاف أن يسمع أحد تساؤله الخفي.. وخطا بقوة كأنما يطرد عنه خاطر السوء، وعجب لنفسه كيف تحمل شهور الفراق ولم يُطع نزوة فيه بأن يغامر في ليلة ما، ويعود إلى القرية متسللا متستراً بالظلام، ليحتضن أسرته كلها، ويطمئن ويهيء لها أسباب اللحاق به. وعلا صوت المقدم إبراهيم قريب زوجته يذكره بما يجب، بأن يظل مختفياً في المدينة، ولا يزور أسرته طيلة الموسم، حتى لا يتعرض محصوله لمكروه.. وأثناء ذلك يكون العربي قد هيأ لأسرته المسكن ووجد له طريقاً.. هو إذن هارب.. هارب. وخطا دائراً بين العربات والكتل والأقدام كأنه يختفي عن خواطره أو عما يلاحقه من أصوات.

لِمَ لَمْ يكن رجلا كما يعهد في نفسه فيعودَ إلى القرية متسللا وينتقمَ من أعدائه : الشيخ والحاكم النصراني والقائد والأعوان أو يستشهد كالأبطال ؟ ويعلو صوت إبراهيم مرة أخرى مشيراً عليه بألا يطيع نزواته، وأن يغادر القرية مختفياً في الظلام ليدبّر أمره في المدينة، بعد أن لم يعدْ أمل في أن تبقى أهمّ أرضه تحت يده، أو أن يستمر على الأقل خارج جدران السجن أو ظلمة القبر... كذلك أطاع العربي الحمدوني الرأي الناصح ليغادر

قريته تحت جنح الظلام، ليحاول أن يكسب عيشه في المدينة مجهولا مُؤمِّلا أن يدافع عن قضيته أمام العدالة.

واجتاحه كرْب عظيم... سليلُ عزّ يعيش منفياً مجهولا بعيداً عن أرض أجداده... ولعل العدالة مجرد تعِلّة كاذبة، ولعل أمره لن يختلف عن أمر ابن عمه الذي ترك القرية منذ قرابة العشر سنوات، فماذا أفاد سوى أن ضاع بين العديد ممن يُغلّفهم دخان معامل السكر والإسمنت وتعليب السمك... ضاع ابن العم، وإن كان ما يزال يتردد على المحاكم حيناً بعد حين، ويتحدث عن الأرض بحماسة يجد فيها العربي الحمدوني برودة الصقيع.. كلام صادر عن الحلق لا يشعُ من الأعماق... وطالما عاب العربي ذلك على ابن عمه مؤكداً أن الأرض لمن يسير عليها، والحقُّ لمن يموت من أجله، لا لمن يرْكَن إلى الهجرةِ والفرار... والآن جاء دوره، ولعل الغيْرَ يقف منه اليوم موقفه ذاك من ابن العم... هلْ ينصفك النصراني من أخيه المُعمِّر والقاضي ؟ جنس واحد... !

وتمرّ في خياله قضايا كقضيته كانت فيها المحاكم إلى جانب أصحابها الفلاحين، وحكم قضاء النصارى على إخوانهم المعمِّرين أن يتخلّوا عما سلبوا، وبأن تعود الأرض إلى أصحابها الحقيقيين.. ذلك نادر ولكنه سمع به وكذبه، وعليه أن يصدقه الآن وإلا فعلى أي أمل يعيش ؟ حَمولة أجيال من الظلم تجمّعت لتتركّز في لحظة واحدة وتقع عليه، ولا بارقة أمل في الأفق القريب المُدلهمّ. وخُيل إليه أنه المظلوم الوحيد، أو أنه على الأقل أحس بأن نصيبه من الظلم أكبر مما يحتمل.

وتوقف من جديد يتأمل الكُتل والأكوام وخليط الدواب وبكاء الأطفال... صناديق وأكياس تنتظر أن يرفعها أو يجرها على عربته عامل كسول. ومن يدري، فقد يكون الحمّال بدوره سليل عز سُلبت أرضه، وهو هنا بين خليط متنافر من روائح الرّوث وطنين الذباب والنهيق والصهيل والنوم والصياح... الكلّ يجري وراء العدالة، أحقاً يجوز هذا ؟ ولمَ لا ؟ وآخرون من طراز ابن العم، عَريت أجسامهم إلا من قطع خيْش يحزمون بها أوْساطهم، وطاقاتُهم تتبدّد عرقاً أمام الأفران الهادرة ؛ أليسوا من طلاب

العدالة أيضاً ؟ مرة أخرى يعود إلى مكانه الأول، إلى جوار صخرته الناتئة على مبعدة من ساحة الكتل والأكوام، ليعتمد عليها في كسل وعياء ويخرج رسالة المقدم إبراهيم إليه، متأملاً غِلافها، وما رُسم عليه من حروف عجيبة ! وتبيّن الكلمات : (وتصل براحة صهرنا وأخينا العربي بن محمد الحمدوني).

وفضّ الغلاف كأنه يجد متعة في أن يتأمل من جديد رسالة حفظها عن ظهْر قلب، أو يكاد :

«الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله.

مُحبّنا في الله ورسوله وصهرنا العزيز السيد العربي، نسلم عليكم غاية السلام والإكرام وعلى ولد عمك كبور وداره، ونقول لكم احْنا بخير وعلى خير لا يخصنا سوى النظر في وجهكم العزيز وساعة الفرح معكم. أما من جهة الأولاد فهم قادمون في الكار نهار الجمعة 7 من شهر صفر الخير والسلام، والجواب في الحين.

كاتب هذه الرسالة العاطرة الفقيه سيدي إبراهيم بن الحاج سعيد الردادي إلى صهره العربي.

والسلام».

ها هو ذا أصبح ممن يتلقى رِسالة. كأي غريب بعيد، وذكَّرَه ذلك بالمُجنَّدين... هو الذي كان يستخفّ بكلمة رسالة والمُرسل إليه. الحر يعيش فوق أرْضه. ورفع رأسه كأنه يتأكد من غربته عن هذا العالم، مبانيه وأحداثه. وسرّح بصره نحو أقصى الغرب ليتابع بعين الخيال ما يرتمي خلف هضبة القصر السلطاني من مساحات شاسعة يغطيها الدّوم والصخور والأشواك البرية، تجري بينها عيون ماء هنا وهناك وبنايات حديثة تبدو من بعيد كطيور مُحنَّطة بيضاء، أو كقطع شطرنج على رقعة بغير انتظام... أسباب الحياة الحديثة تدبّ شيئاً فشيئاً على رقعة لم تكتمل. هكذا تبدو معالم المدينة الأوروبية الحديثة موزعة في نشاز : قصر العدالة... طاحونة المغرب... مبنى البلدية... تصل بينها... طرق شبه

معبّدة تتجه إلى المركز حيث تتجمع متاجر أنيقة. ووراء صومعة (المكانة) خلفَ سور المدينة القديمة تقوم أبنية رطبة تكتظّ بسكانها.. ويمكن لمن يبقَى قرب (المكانة) خارج السور، أن يرمي ببصره نحو الميناء. حيث تتطاول روافع الميناء في الفضاء ويعلو نفير البواخر.. أيصبح أن يصبح حمالا يدب مع نمْل الصباح، ليقضي يومه في الشحْن والتفريغ تحت سوْط وفظاظة وبذاءة ورطانة.. هو سليل العز وصاحب الأرض ؟ وتفْغَم أنفه طول اليوم روائح الزيت المحروق والمازوت والدخان، ويفتقد إلي الأبد عبير الأرض الطاهر. انه لَيغبط كل هؤلاء الذين ولدوا في المدينة أو أقربِ ضواحيها، أولئك الذين لم يفدوا بهجرة، ولم يبتعدوا عن أرض، ولم يُنفوا في غربة تبعد بهم عن أهلهم وذويهم... أما أهاليه...

وأحاط بصره بالمدينة من جديد، ما يرى منها في موقفه ذاك وما يمتد إليه خياله وراء الهضبة... أهاليه أين هم ؟ واستدار شمالا ونحو الشرق ؛ بعضهم هناك في كاريان سنطرال أنشط بقعة في الحي الصناعي، أو في بن مسيك، مشردون مثله... أما ذوو العز الأحرار، فما يزالون هناك يسعون فوق تربة أراضيهم، رغم كل شيء... أما هنا فشمْلُ المهاجرين موزع في براريك لا يحد مساحتها البصر، تتساوى فيها أقدار الناس ومصائرهم، كل منهم ينصهر طول يومه في الأفران أو صهاريج الأسماك المملَّحة، وكل منهم ضاعت أرضه.

خفق قلب العربي، ونهض عن صخرته عندما أحس بدبيب الحياة يسري في جمع الكتل والأكوام... الكار يقترب. وخطا ليختلط بالجمع وهو يرنو إلى أقصى الشرق، حيث ترتفع سحابة دخان وغبار خلف كتلة متحركة حمراء، تتقدم مرسلة حولها خرخرة وأزيزاً مرتفعاً. أتحتضن أولاده داخلها حقاً ؟ قَرُبت إذن ساعة اللقاء. وتدافع الحمالون، والمسافرون المنتظرون يستعدون لمعركة الركوب، وأفاقت الدواب وارتفعت سياط وأصوات، وتضخَّم شخير الكار يقترب مصعّداً آخر أكَمة نحو الجمع المنتظر، ثم دار دوره على المحطة، وقد وقف العامل على عتَبة الباب فاتحاً

مصراعه نصف فتحة وهو يصيح بالقوم أن يبتعدوا في لهجة خشِنة فجّة وسِباب. ثم توقفت الحافلة أخيراً، وازداد انفعال الحمدوني وهو يتفحص بعينيه الركاب من خلال الزحام، غير عابيء بتيار الدفع الذي يتجاذبه.. لا، لم تجيء زوجه... لم يأت أحد... كيف ؟ إذن فلابد أن يبعثوا له بخبر مع العامل أو السائق... ولكن كيف ؟ وحاول أن يفلت من قبضة الزحام ليتوجه نحو العامل، حين توقفت نظرته على وجه ملثَّم وراء الزجاج، لامرأة توجه نظر طفلها الرضيع إلى شخص في الخارج تشير نحو العربي... هي زوجته صفية بنت المرحوم سويعد (أم الأولاد) كيف لم يعرفها ؟ بل كيف يعرفها ولم يسبق له أن رآها ملثمة ؟ والصغير كيف يخفى عليه ؟. ولدي الصغير.. وطيْش البنت خدوج تقفز إلى جانب والدتها وأخيها الصغير، ولكن الولد لم يكن على هذا الضعف والهزال عندما تركهم منذ شهور طويلة قليلة... خدوج تحاول أن تثير انتباهه بحركاتها.. الآن تخمد نار الشوق والحيرة.. وتهلَّل وجه العربي الحمدوني وهو يستقبل أسرته عند باب النزول، وكانت خدوج أول من ارتمى من نافذة قرب الباب، فعانقها غير عابيء بسباب العامل :

ـ هُهو يا بقر..

كانت في حوالي السادسة مكتنزة الجسم، قوية البنية، وضعها العربي على كتفه وهو يعترض زوجه بنت سويعد عند الباب... لم ترفع إليه بصرها ولم يكلمها، وإنما كان يبتسم لها في رضى، وهو يتناول الطفل المحمَّل إلى ظهرها ويشمه وفي خاطره ألف سؤال. أي شيطان ألمَّ بهذا الصبي فلم يعد سوى هيكل عظمي صغير، جاحظ العينين في بياض ضارب إلى الصفرة... وانتحَوْا عن الزحام خطوات، فتساءل العربي وهو يرنو إلى ابنه الصغير كأنه ينتظر منه الجواب.

ـ ولدي... مالك ؟

أجابت بنتِ سويعد بإبهام :

ـ ماله ؟ آه... عليه...

والتقى وجهها لأول مرة بنظر زوجها منذ اللقاء. فقرأ في عينيها الحزن والأسى، فعاد يسأل طفله منتظراً جوابها. مريض ؟ آه لولا بركة سيدي الزموري حلّت بها لمات الطفل. وضم العربي ابنه إليه كأنه في خطر داهم، ومدت بنت سويعد يدها لتأخذه منه وهي تستمر في هذا الحوار غير المباشر.

ـ تعال، خلِّ بوك يخدم.

وفهم الحمدوني أن عليه أن ينصرف إلى أمر المتاع يدبره، فاتجه نحو الزحام، ونداءات المسافرين للعامل تتداخل وتتشابك وهو فوق سطح الحافلة يناولهم متاعهم.

ـ الخنشة.. الخنشة...

ـ هذي ؟

ـ لا، الاخرى.

ـ شف الحصيرة.

ويتعالى في الزحام أيضا نداء أصحاب العربات على من يريد الركوب أو نقل متاعه إلى أقصى أطراف المدينة.

ـ كريان سنطرال... الكريان ياللي زربان.

ـ درب غلف، يا الله.

ـ أصحاب بن مسيك، يا الله.

وتعرف العربي على متاعه بسهولة. كان يبدو له متميزاً فوق سطح الكار. الصندوقان الخشبيان أحدهما أخضر تخالط لونه تشققات حمراء والآخر غير مطلي وهما معاً مما جلبته بنت سويعد لبيت الزوجية. ثم السلة القصبية الكبيرة، وقد ربط على حافتها المقراج النحاسي، ورُزم من قطع نسيج صوفي تِضم ولاشك ألبسة وعباءات، ثم أكياس الحبوب ودجاجات وديَكة... ودافَعَ العربي بمنكبيه العريضين ليصل أسفل السلم، وينبه العامل إلى متاعه. ولم تمض برهة حتى كانت الأثقال كلها مركومة فوق

عربة يدوية، انتصب صاحبها بين ذراعيها الخشبيتين، يشده إلى العربة حبل غليظ يمر فوق أحد كتفيه وأسفل إبطه الآخر، وقد نزع نعليه فبدت قدماه مشقّقتين حافيتين تلتصقان بالأرض ككتلة مطاطية مصّاصة. وبدأت المسيرة : الرجل في المقدمة يجر العربة، تتبعه خدوج قافزة ذات اليمين وذات الشمال، متعلقة بين الحين والحين بجوانب العربة في حركات طائشة تثير بها صياح الدجاج ؛ ثم العربي، وإلى جانبه وخلفه قليلا إلى الوراء، سارت زوجته والطفل مشدود إلى ظهرها. ومن الأكيد أنها المرة الأولى التي تطأ فيها قدماها أرضاً خارج القرية، وكانت في سيرها تلتفت يميناً وشمالا مستطلعة ما حولها، وخاطرها يضج بألف سؤال، لكنها كانت لائذة بالصمت، وحين صدرت عن طفلها صيحة قالت بصوت مسموع.

- بركتَك ياسيدي بليوط، يا مول الأرض والبلاد.

وأدرك الحمدوني أنها تود أن تعرف مقر هذا الولي الصالحِ الذي سمعت به كثيراً. ويتحدث عنه كل وارد إلى الدار البيضاء فخفف من خطوه، حتى إذا حاذته أشار صوب البحر بعيداً حيث يرقد جثمان الولي في ضريحه، وقال ماسحاً وجهه بيده : نفعنا الله ببركته.

وتعهدت بنت سويعد، بأن تحمل إليه الشمع والحلاوة، وتطلب عونه وتأخذ، من ترابه فأكد العربي :

- إن شاء الله، لابد.

كان الوالد يضطر مراراً أن ينهر ابنته عن عبثها نهْراً خفيفاً يحد به من غلوائها، حتى إذا لم يثمر ذلك، أمسك بها من ساعدها يسألها عن ابن خالتها، وهو يقصد في الواقع ابن خالة زوجه. فأجابت بنت سويعد : إبراهيم ما عنده باس. خيره كثير علينا.

وترك ابنته تفلت منه ليتحول الحوار مباشراً بينه وبين زوجته لأول مرة منذ اللقاء، كأن شيئاً كان يحجز بينهما بفعل الفراق، أو كأن مسيرتهما على هذا النحو في حياتهما لأول مرة تستدعي أيضاً غرابة في إدارة الحديث، أو أن فيْض ما لديهما من استفسارات وأخبار لا يتسع له الظرف، فهما يدخرانه لفرصة مواتية، ولا يملكان إلا أن يناورا حوله

بنبش أطرافه... مهما يكن فقد كان الشعور بالتفاهم يملؤهما حول غموض المصير... والقلق والترقب.

ابتعد الركب عن محطة الانتظار، وتهافتت خلفهم أصوات الناس... بين الحين والآخر كانت تجتازهم عربة من عربات الخيل محملة بالناس والأمتعة، يُلهَب ظهر جواديْها بالسوْط، تتمايل مثيرة حولها الغبار في طريق مسلوك غير معبد ؛ وتسود فترة صمت بين الزوجين يتوقف فيها نشاط الطفلة، حتى إذا ابتعدت عنهم سحابة الغبار عاد الحديث والنشاط الطائش من جديد. وتصبّب صاحب العربة عرقاً دون أن يفتر عن الجر... وتكونت للحمدوني فكرة إجمالية عن محصول السنة، وعما باعت زوجه وأتت به معها، وما تركته مدخراً عند ابن خالتها. وتميز الحمدوني غيظاً وهي تصف له كيد الشيخ بها، وتعسُّف العساكر والمخازنية في بحثهم المُضني عنه في كل ركن.

* * *

قطع الركب فضاء عريضاً تملؤه الأشواك والحفر وأكوام التربة. منذ ترك المحطة وبدت على مقربة منه ثكنة عسكرية شاسعة، محاطة بسياج تمتد داخله غابة من أشجار التوت، والكالبتوس تنتشر بينها أكواخ الجنود بنيت أسافلها بالطوب وأعاليها بالقش وسعف النخيل، على أشكال شبه هرمية. كانت رطانة الجنود الإفريقيين السود تتجاوب كطنين النحل لدى خليته في يوم قائظ... وأحس الحمدوني بتقلص يعم سائر بدنه وهم يحاذون الثكنة، ولعل خدوج شعرت بمثل ذلك عندما تجمد نشاطها فجأة، وسارت بهدوء بجانب العربة، وبدا أن صاحب العربة أيضاً قد غير من رتابة سيره عندما بدأ يبذل جهداً أكبر ليسرع بأكثر ما يمكن. كانت جماعات الجنود السود في سراويلهم القصيرة منهمكين في نشاط متعدد، بعضهم يلعب الكرة الحديدية، وآخرون يمارسون التصبين، وكثير منهم مسمرون على السياج يدخنون ويضحكون عن أسنان ناصعة البياض، وبدا من إشاراتهم أن أحاديثهم تمس المارة من قريب أو بعيد، فهم يشيرون ويغمزون ويضحكون، وأحياناً يأتون بإشارات فاضحة.. لم ينبس أحد من الركب

بلفظ، واتكأ الحمدوني بكلتا يديه على مؤخرة العربة ضاغطاً عليها بكل ثقله، يساعد في الإسراع بحركتها، وفعلت الطفلة مثله في تقليد ظاهر... وأسرعت بنت سويعد في خطوها وقد أحست بأنظار الجنود تعيق خطواتها وتكاد تعثر بها، فعمها عرق بارد كأن الإزار قد تساقط عنها فبقيت عارية. وحينما تجاوزوا الثكنة أخيراً، أجاب الرجل عن سؤال ضمني يتردد في صدر زوجته.

ـ أخ... عساكرية سليكان...[1]

لم تجب بنت سويعد، وإن لم تفهم كثيراً سوى أنهم مخلوقات غريبة مرعبة، وحين نبهته خدوج إلى خدود بعضهم المفلوحة، أجاب بشيء من الاحترام.

ـ مسلمين... ! فيهم النصارى وفيهم الإسلام...

كانوا قد أشرفوا على الحي الصناعي، وَبدأت مداخن المعامل تحف بهم على اليسار من بعيد، وبدت أمامهم مساحات من كتل متراصة سوداء، تحيط بها زوابع الأتربة والغبار، فأشار إليها الحمدوني قائلا.

ـ الكريان.

وحين عبروا قضبان سكة حديدية، أشار الحمدوني على الرجل أن ينحرف منحدراً إلى اليسار، صوب قرية السكر. وأدركت زوجته أنها ستنزل ضيفة عند كبور ابن عم زوجها، أو عند زوجته الغالية على الأصح وهذا ما حز في نفسها بعض الشيء.

* * *

تشكل قرية السكر قطعة متراصة كبيرة من أبنية متشابهة يحيط بها سور مربع ينفتح في جانبيه المتقابلين بابان رئيسيان بمصاريع خشبية ضخمة مسلحة بالمسامير.

كانت القرية غاصة ببعض عمال السكر. وبمحاذاة السور غرباً مباشرة

---

(1) سينغال.

تنتظم فيلات أنيقة بحدائقها الغناء يسكنها الأوربيون من مهندسين ورؤساء الأوراش وإداريين بالمعمل، وإلى جانب هذه المساكن مباشرة أيضاً يقوم المعمل ذاته. وقرية السكر أشهر بقعة في الحي الصناعي لشهرة المعمل ذاته، ووفرة ما يسع من العمال ؛ ولكون ساكنيها وهم قسم جد يسير من مجموع العمال، يعتبرون طبقة محظوظة بالنسبة إلى غيرهم ممن يصعدون إلى الكريان.

ويقوم على بعد أمتار قليلة من القرية مقابل بابها الجنوبي، معمل الإسمنت والجير، لا يقل عن معمل السكر شهرة. تمتد منه مدخنتان ضاربتان في الفضاء ترسلان غباراً ودخاناً لا ينقطع. ينشر على الدوام، فوق ما يمتد شرقه من مبان متفرقة وفضاء خال إلى هضبة البراريك، طبقة دائمة من سحيق الإسمنت وفضلاته.

ويمتد أمام معمل السكر غرباً، حفير صخري كبير كان بلاشك مقلعاً للأحجار، عند بناء المعمل، يحاذيه من جهة المعمل أنبوب ضخم من الإسمنت المسلح ينساب فيه المازوت سائلا نحو الميناء، أما من جهة البحر فتحاذيه معامل تعليب السمك متفرقة ومتلاصقة حيث يفنى آلاف الرجال والنساء حياتهم في العمل ليلا ونهاراً حسب مواسم الصيد.

ولج الركب باب القرية من بابها الجنوبي، فتعثرت العجلات الحديدية للعربة على الأرض المرصوفة بحجارة نهرية ملساء، وارتفعت طقطقتها واهتزازها فاتكأ الحمدوني على مؤخرتها يساعد في الدفع. وما كادوا يتجاوزون ساحة الباب، حيث تنفتح عدة حوانيت يتجمع حولها العمال لقضاء أوقات فراغهم في الأحاديث ولعبة الورق أو الضاما، حتى هرع الأطفال من كل جانب، وأحاطوا بالعربة يقفزون ويعبثون فتعذر على الركب أن يشق طريقه، وبدأ الحمدوني ينهرهم، بينما ثارت طبيعة العدوان في ابنته خدوج، فانحنت تبحث في الأرض عن حجر تستعمله، حتى إذا لم تسعفها صلابة الأرض المرصوفة بشيء، شهرت أصبعها الوسطى وأطلقت لساناً سليطاً زاد من حملة الأطفال وصياحهم قائلين :

- يالعروبية... الخماكية... يا...

لم يجد الحمدوني إلا أن يحمل ابنته قسراً على كتفه، وينهر الأطفال وهو يتكىء بثقله على العربة عاملا على سرعة حركتها، وهكذا سار بين الضجة التي طلعت لها رؤوس نساء من أبواب نصف مفتوحة في الدروب الضيقة. ولم يفك الحصار وعبث الأطفال، إلا انتصاب كهل مهيب تتدلى على جانبه شكارة ضخمة ؛ فزع الأطفال لظهوره وتقافزوا مبتعدين، أما الحمدوني فقد عرف فيه مقدم القرية، فتابع طريقه نحو بيت ابن عمه كبور، حيث قرر أن ينزل مؤقتا ريثما يهيء أمر عياله.

2

فجأة، توقف أطفال الزقاق عما هم فيه كجِراء التقطت ريحاً معيناً في وقت واحد، والتفتوا في حركة واحدة نحو رأس الزقاق، ثم هللوا جميعاً دفعة واحدة.

- أمنا عيشة... أمنا...

وتراكضوا حول شبح يظلع في رأس الزقاق، والتفوا حول شبح عجوز يلتحم جلدها الشديد السمرة، بعظام هيكلها الناتئة، وقد سطّرت تجاعيد الوجه وضُمور الشفتين المندفعتين داخل الفكين الفارغين، أثرَ الكد والسنين الطوال على سحنتها. كانت طويلة القامة، ينحني ظهرها تحت كيس ثقيل تخرج به فارغاً كل صباح لِتنوء بثقله في عودتها، وبينما كانت إحدى يديها تمسك على صدرها حبلا يربط فوهة الكيس الممتلىء على ظهرها، كانت تمسك بالاخرى قفة لا تقل عنه امتلاء ؛ ورغم الهزال العام الذي كانت عليه العجوز، فقد كان من اليسير أن يلاحظ المرء أن إحدى ساقيها أدق من الأخرى بشكل ظاهر، ولعلها لذلك كانت ترتمي أثناء المشي خارج خط سير مستقيم، كأن إحدى ساقيها ستنفصل عن الركبة انفصالاً تاماً قبل أن تستقر على الأرض، لتتلوها الخطوة التالية في نفس الاتجاه، مما يجعل صاحبتها تسير وكأنها تنطّ أو تحاول القفز بشكل مضحك، وكانت بين الحين والحين مضطرة إلى التوقف، لتدعم بيديها الساق المنحرفة، لتأخذ من جديد خط السير الذي انحرفت عنه.

أحاط بها أطفال الزقاق ككل مساء مهلّلين لقدومها، وأيديهم تبحث عن ثقوب في الكيس تنفذ منه إلى مكنونه، دون أن تبالي بردعهم بل إن مظهر القسوة الصارم الذي يطبع سحنتها في الغالب، كان يغيب هذه الأثناء ليولد مكانه مشروع ابتسامة، وكلما توقفت حيناً بعد آخر لتعدل مشيتها ووضعت قفتها على الأرض، دفعت إليهم بجُمع يديها شيئاً من محتوى القفة، يضم أصنافاً من طري الخبز ويابسه، وقشور الخضر وقطع اللحم والبسكويت، وما لا يحصى مما تقضي يومها في جمعه عن طريق التسول

وتنقيب القمامات. وكلما تزود الأطفال منها بشيء أذكى ذلك من حماستهم، فيعلو تهليلهم ؛ ويدرك كل من في الزقاق أن عيشة عادت من جولتها اليومية الطويلة عبر أحياء ومناطق في المدينة لا يعرفها سواها : ومن المعتاد أن عيشة أو العرجاء، كما يطلق عليها أحياناً في غيبتها، لا تفرغ كيسها للأطفال ولا تناولهم منه إلا عندما تدخل ويدخلون معها برّاكتها، فتستريح على الحصير مباشرة، ويناولها أحدهم من الخابية ماء في علبة صفيح، تروي به عروقها النافرة ؛ بيد أنها اليوم قبل أن تصل براكتها توقفت على بعد أمتار، وبدت كالمشغولة بشيء هام يتراءى أما عينيها الحادتين ؛ فوضعت الكيس، وفتحت رباط فوهته وبدأت توزع محتواه على أطفالها وسرعان ما تغلبوا عليها، وتدافعوا فتركت لهم كل شيء يفرغونه في جيوبهم وأطراف ملابسهم الوسخة لينصرفوا متصايحين في نغم لا يعترف بالجميل :

ـ العرجاء الحرامية... العرجاء...

وفي مألوف العادة أن ترميهم بالحجارة، وبما تصادفه يداها في الأرض أو في الكيس، وأن تتبعهم بالشتم. لكنها الآن بدت مشغولة لم تهتم بندائهم، وأخذت تتحرك بعد أن طوت الكيس على نفسه، وجعلته في القفة الفارغة.

* * *

عائشة، أو أمي عيشة كما يسمونها في حالة رضاهم عنها، والعرجاء كما يسمونها في غيبتها وفي حالة نقمتهم عليها... والحرامية كما يضيف الأطفال عندما يشبعون شرههم بمتاعها... وأشياء أخرى حولها وعنها... هذه المرأة نقطة لامعة في الزقاق، بل في الحي كله : متسولة ومحسنة وخياطة متزوجة وأرملة في الوقت نفسه، وخير وسيط في كل أمر، وخير مطلع على كل خافية وظاهرة. وقد بدت هذا المساء منشغلة بحركة لاحظتها غير عادية في الزقاق : في البراكة المقابلة لبراكتها تقريباً، حيث كان يسكن الرحماني العجوز منذ أن توفيت عنه زوجته، وتركته وحيداً لا معين له إلا إحسان (أمه عائشة) رغم أنه كان أكبر منها سناً وأوهن عظماً... حركة غير عادية في هذه البراكة التي لم يتردد فيها نفس بشري

منذ شهرين أو أكثر، منذ وجدت عائشة عجوزها ذات مساء جثة هامدة ربما منذ المساء السابق... جيران جدد إذن في مسكن الرحماني، وهي أول مرة تفاجأ فيها عائشة بشيء يحدث دون علم سابق منها... ولاشك أن مقدم الحومة هو الذي عالج هذه القضية سراً ليبيع براكة الرحماني الذي لا وريث له، دون إثارة ضجة... وأحست لذلك بما يشبه الطعنة كأنها مسؤولة عن كل ما يجري حولها، وما كان لها أن ترتاح على الحصير قبل أن تستطلع الأمر... فأسرعت تروي ريقها من الخابية، وتوقفت أثناء ذلك مرتين أو ثلاثاً، مادة عنقها إلى أعلى كأنها توسع للماء طريقه في حلقومها، ثم أفرغت ما تبقى في الخابية من ماء في سطل معدني، وسارت تنط به وتتوقف نحو المسكن المقابل، حيث طرقته وما كادت صفية بنت سويعد زوجة العربي الحمدوني، تفتح لها الباب حتى قبلتها عائشة وعانقتها مرحبة، كأنها من أقدم معارفها وأقربهم صلة، وقدمت لها سطل الماء مرحبة.

- أقدامكم مبروكة إن شاء الله... الماء نعمة... خذي بَرُوك أمك عيشة...

ودلفت إلى الداخل خطوة، دون أن تنتظر استئذاناً كما لو كانت تتجول في ملكيتها الخاصة. وبينما بنت سويعد شاكرة تفرغ السطل في خابيتها الموضوعة في ركن بالصحن بين البراكتين اللتين تكونان المسكن، كانت أمها عيشة تجول بعينيها متفحصة كل شيء، لا يتوقف لسانها عن الترحيب كأنها تقرأ عباراته مُلْصقةً على الجدران القصدرية حولها... ولم تنس أن تقبِّل البنت خدوج، التي ظلت تحملق في المرأة الغريبة بعجب وهي تدعو لها :

- يبيّض سعْدك يابنيتي.

ثم أخذت الصغير من ظهر أخته : وحملته في يدها مقبِّلة متمتمة باسم الله وبركاته، وبشتى التعاويذ، ثم نصحت جارتها :

- بخِّريه يا اختي بخريه... يا رب، تنجّيه من رجال البقعة... الملائكة معه، باسم الله عليه... بخّريه... بخّريه...

وردّت الطفل لأخته، وتناولت السطل فارغاً، وحين دعتها صفية للشاي أو العشاء اعتذرت بالتعب، ونطّت نحو الخارج وهي تردد :

ـ الأيام طويلة... والخير أيامه كثيرة يابنيتي... حتى إذا عادت، رمت السطل دون أن تحفل بتدحرجه في صحن براكتها، وتمددت على الحصير متنهدة من أعماقها، كما لو أزيح عنها عبء كبير، وغابت في الحين في سبات هاديء عميق.

* * *

ـ مرحبا مرحبا... زارتنا البركة.

ـ مبروك عليك ياسي العربي... السكنى والأولاد... مبروك.

ـ نهار كبير هذا.

ـ ... من الأيام الأولى.

وهز العربي الحمدوني كتفيه في حركة من لا يريد أن يتذكر، في حركة تقول :

(هذا حال الدنيا). كان يرحب بهم : ثُلَّة من رفاقه في القرية، منهم من سبقه إلى المدينة ومنهم من لحق ؛ وبعض أصحاب ابن عمه كبور من قرى وبوادي أخرى، هاجروا إلى المدينة وتوزعوا بين معاملها... كان سعيد أخو زوجته صفية، أقرب المدعوين إلى العربي باعتبار المصاهرة، ومن أقدم المهاجرين إلى المدينة بعد كبور ابن العم... والباقي ممن يعرف العربي من أبناء قريته، لم يكونوا من كبار الملاكين... أغناهم كان مستور الحال.

وفكر العربي في نزاعات وصراعات مما ينشب عادة بين أسر الفلاحين في القرى، قد قامت بينهم في الماضي، ولم يبق لها بينهم اليوم من أثر. وحدّث نفسه معلّلا ذلك بأنْ لم يبق لهم ما يمكن أن تقوم حوله نزاعات أو خصام... وعليه أن يعتبر نفسه واحداً منهم وأن يكف عن خواطر عميقة في ذاته كانت تنظر إليهم نظرة تشوبها سخرية واستخفاف، لا لأنهم كانوا دونه ملكية، ولكن لأنهم في رأيه مشردون. أنت أيضاً

مشرد، وإذا لم تكن مقتنعاً، لم تصبح كذلك بعد، فلن تؤكد شيئاً مما يخفي لك المستقبل القريب... واقتلع نفسه عن خواطره، مرحِّباً من جديد بمن حضر من ضيوفه.

- أهلا... أهلا...

- تعال اقعد معنا.

كانت سكنى العربي تقع في الطرف الشمالي من حي الكريان سنطرال، تتكون من براكتين خشبيتين مستطيلتين سُقِّفتا بقطع قصديرية مائلة، وبينهما صحن صغير يؤدي إلى الباب الخارجي وعند نقطة التماس بين البراكتين ركن صغير، توضع فيه خابية الماء وبضعة أشياء أخرى، اتخذته صفية بنت سويعد هذا المساء مطبخاً لتتسع البراكة الثانية لصديقاتها من زوجات الضيوف من قريتها. وكان يجول بذهن صفية مثل ما بذهن زوجها من مقارنة حالها بحالهن : أيهن أحسن وضعاً وحالاً ؟ لو كانت ما تزال في قريتها لما ترددت في أن تؤكد أنها أحسنهن حالا. ولو كانت مطمئنة إلى مستقبلها لأكدت مثل ذلك... ولكن الغالية زوجة كبور ابن عم زوجها، بدت لها أحسن حالا، فاعترفت لها بذلك بينها وبين نفسها، أليست مستقرة راضية ؟ ألا تسكن داراً مبنية من حجارة، بالماء والضوء، وجدران مطلية ملونة ؟ ثم إنها قد استأنست بحياة المدينة منذ سنوات، بينما صفية وافدة ليومها ضائعة. وتنهدت من أعماقها متحسرة قبل أن تعود لنفسها، مستغفرة الله على خواطر لو اطلع عليها زوجها لوبّخها أشد التوبيخ : كيف تحسد غيرها على حياة هجرة وغربة أو تعدّ ذلك نعمة ؟ يا لها من سانجة. وكانت جل النساء المدعوات عدا الغالية، ممن يقضين أيامهن موزعات في معامل السردين. وهناك واحدة أو اثنتان ممن تعتبران محظوظتين لاشتغالهن في معمل الصوف، بالإضافة إلى كلثوم زوجة سعيد شقيق صفية، التي تشتغل في بيوت الأوربيين، وهذا ما جعلها تعرف بعض الفرنسية، وتظهر بسلوك أكثر تمرساً بالحياة الأوروبية. كانت كل برّاكة تضيق بمن فيها، بيد أن ذلك لم يكن السبب في انفصال الرجال عن النساء، وإنما مردُّه إلى عادة تقضي بأن يكون لكل من الرجال والنساء همومه الخاصة وأسراره.

لم يكن جميع الرجال من المدعوين قد حضروا بعد. وقد بدأت الأصوات ترتفع من البراريك مع حلول المغرب، فالفواصل الخشبية بين السكان بما فيها من شقوق، لم تكن حاجزاً يمنع تسرب الأحاديث في مثل هذه الساعات عندما تمتلىء المساكن بأصحابها العائدين من أشغال يومهم. وأقبل كبور ومعه اثنان، ودلفوا إلى البراكة في هرْج ومرْج... كانت العباءات تمتد في البراكة، فوق الحصير الموالي لأرض متربة غير مبلطة، وكانوا يتكوُون على الجدران الخشبية وبعضهم يحاول أن يمد رجليه.

ـ اجمع رجليك علينا.

قالها أحمد المزابي بعنف ودعابة لصديقه على الجليد، وهو يكاد يرفعه عن الأرض من رجليه. ورد الجليد في غضب مازح :

ـ مسّينا على الله... مالك ؟

كانا قد دخلا لتوهما مع كبور. وكانا على النقيض في بنيتهما الجسمانية : المزابي بطول قامته وعرضه، وشاربه الكث المقصوص، بينما كان صاحبه الجليد كما يطلقون عليه، قصيراً يلتصق جلده بعظمه... وعاد المزابي يرفع ساقي صاحبه متظاهراً بأنهما في وضع يضايقه...

كانا معاً من عمال قرية السكر، أحضرهما كبور ليُحييا معه هذه الليلة في براكة ابن عمه، وعاد أحمد المزابي يعلن تضايقه من رِجْلَي صاحبه الممدودتين ؟

ـ اجمع رجليك يا ولد الخلا.

وكأنما ثار صاحبه لهذا الشتم، فرفع رجليه، ولكنه بدلا من أن يطويهما، مدهما بأناة ليضعهما على وجه وأنف أحمد المزابي الذي بدأ يدفعهما عنه في تأفف :

ـ أخ... اخخخخ.

ـ شم... شم... ريحة الزهر.

كان العربي الحمدوني يبتسم لهذا المزاح، بينما كبور يحدثه عنهما وكأنه يقدمهما إليه.

ـ هما دائما هكذا... في الزنقة وفي الخدمة.

أطلت خدوج بالصينية، فقام والدها يتسلمها ويضعها وسط الجماعة، وأمام سعيد شقيق زوجته بالخصوص، كأنه يعينه ليصنع الشاي، فحاول هذا أن يتخلص قائلا :

ـ شف غيري.

وأصر العربي :

ـ لا... أنت مولاها.

وأيده المزابي بشدة :

ـ والله ما يعمله غيرك.

وينحني على الجليد، علي كنْبري صغير لم يلحظ أحد أنه يخفيه من قبل، ويدندن معدِّلا أوتاره وكأنه يستثير قابلية القوم للسماع، ثم بدأ صوته يعلو ويتميز على إيقاع الكنبري شيئا فشيئا، كالمتردد، وحركات رأسه المنحنية على الأوتار تتجاوب مع النغمات...، ووشمة زهرة... كوردة في الجبين، تحتضنها مياه النهر، لاوية ثوبها حول رأسها خشية أن يبتلّ، وهي تعبر سابحة نحو مخبإ الحبيب... ومزقت الخادم نياط القلوب بنداء أليم ويدُ المكتوب تمتد لتفرق بينها وبين ميْمونها، عند قسمة تركة السيد المرحوم. وردَّدت الجبال صدى الصيحات ولا مجيب، فقد غاب ميمون مع مالكه الجديد. بعثت الأوتار كل شيء حياً : حقيقة وأسطورة، ماضياً وحاضراً، ويُضْحي الألم مطرباً في وجود لا يسجله تاريخ...

ومضى هزيع من الليل، وقد نشفوا أيديهم من غسلها بعد العشاء.

تناول كبور الكنْبري وداعب أوتاره بغير انتظام، كأنه يقارن بين عجزه وبين مهارة علي الجليد، فتناول منه سعيد الكنْبري مستنكراً :

ـ اعط الشي لمولاه...

وعاد علي الجليد يضم الكنبري إلى صدره كما تحتضن الأم رضيعها، وبدأ يعدل الأوتار، ثم أطال في تقطيع ممهِّد ليتميز صوته مدندناً، بما لا يفصح عن معنى. وحينئذ يعلو صوت كبور طالباً أغنية معينة وكأنه يستثيرْ الآخرين :

ـ قل. قل على البلاد... قوول.

وتوقف الجليد كأنه فوجيء بالطلب. ثم أحنى رأسه يبحث عن مواقع النغمات بأصابعه، ليرفع رأسه كاليائس الحزين :

ـ خلينا من البلاد.

ولكن كبور يلح. ويجيل علي الجليد بصره فيهم جميعاً، فيتبين فيهم الرغبة والإجماع.

ـ يالله ياسي علي... اعطنا ريح البلاد.

كانوا صموتاً في انتظار أن تتصيَّد أنامله النغمة الجديدة المطلوبة، وهي تتحسس الأوتار تائهة أو كالتائهة أول الأمر، وتنتقل بين المواقع تردّد تكرِّر وتعيد، ورأس سي علي منحنية تتحرك مع الدندنة تبحث عن قرار... عليها أن تغوص في الماضي لتعيده حيّاً متحركاً نابضاً بالنغم والكلام، وبما هجرْته منذ سنين من ذكريات... وتميّزَ صوت الجليد هذه المرة فوق الإيقاع هادئاً رزيناً حزيناً.. تُرى كيف يطرب الحزن ؟

أمي أنا على بلادي.
أنا، وبلادي مول الحصايد
أنا، النخل والجريد والحجل نايض
وأمي أنا على بلادي.

* * *

أنا، وسولوا الدرية على مواليه
أنا، سولوا مول القبة فين سارو
أنا، سولوا على جناناته ودواليه

قولوا ليا خيل الحركه فين غاروا
أمي أنا على بلادي.

... وعجَّت القرية بمئات العمال من مختلف الآفاق والبقاع، وظهرت خيامهم كمعسكرات في غير انتظام. طوائف منهم تعمل في شق الطرق، وأخرى في بناء السد والمعمل ومساكن الأوروبيين. وافتُتحت حانات في براريك مؤقتة، وانتظمت مجالس القمار في الأغوار والسهوب حيث تنساب الأجور اليومية والأسبوعية متنقلة بين الأيدي والجيوب والشكاير... وبدأت مساحات الأراضي تنسحب من تحت أقدام أصحابها شيئاً فشيئاً ورطانة الحاكم الفرنسي، ولعثمة الترجمان، وبلاغة القايد والشيخ والأعوان تعلن أن الأشغال تقتصر على الهضاب الصخرية، والجبال والنهر، ولن يؤخذ شبر واحد من الأراضي الفلاحية... ليظهر في كل حين، أن العملية تحتاج إلى مزيد من الأرض لمساكن الأوربيين، ولحدائق خاصة بالمعمل، ولمساحات سهلية للأوراش، واللوازم، وصيانة المعدات بسياج من الأسلاك يحيط بالقرية حماية لمتاع وأجهزة العمل... وأخيراً يجب إخلاء القرية، بل مجرد تزحزح مؤقت كي لا تؤدي الأحجار المتفجرة بالديناميت إلى تدميرها... وتعِب الطريقُ برجال القرية. وسلكوا كل سبيل، إلا أنهم استماتوا هذه المرة أمام التزحزح المطلوب للقرية، فقد كان يعني بالنسبة إليهم أنهم فقدوا أخيراً كل شيء أو يجب أن يفقدوه... ولزموا مساكنهم، فلم يخرجوا لسماع رطانة أو بلاغة، ولم يلح الحاكم في إخراجهم ليستمعوا له أو لأعوانه، وكان يكفي أن يشير بذلك إشارة بسيطة، وهذا ما توقعه رجال القرية واستعدوا له. إلا أنه كان دائماً متعقلا رزيناً، فاكتفى بأن ينصرف هادئاً كما جاء، ولاشك أن رجال القرية استبشروا بحظهم وإن ظلوا متوجسين منتظرين... إلى أن خرجوا على صوت مذعور بعد ساعات.

- الحجر.. الحجر.. اخرجوا.. اهربوا.. الحجر.

وارتفعت أبصارهم صوب القمة الصخرية فوق الدوار، حيث ترددَ صوت انفجار أول، فثان، وثالث، لتتناثر الصخور متدحرجة تجرف كل شيء... وتزحزحت القرية مرغمة تاركة مكانها للأسلاك الشائكة...

ويبتسم الحاكم هذه المرة، وقد التف الرجال حوله بمجرد إعلان مجيئه : يستمعون إلى بلاغته وهو يلومهم على أنهم لم يخرجوا لمحادثته في المرة السابقة، ولو فعلوا ما وقع لهم شيء مما وقع، إذ أنَّى له أن يعلم بمطالبهم إذا لم يخرجوا ليكلموه فيها ؟ وبما أن كل شيء قد حصل الآن، فهو لا يملك لهم إلا وعداً أكيداً بأن يعودوا لأماكنهم بمجرد انتهاء الأشغال.

- وا... امْتَى يا سّي الحاكم ؟

يا له من سؤال ساذَج ؟ وهل يعرف الحاكم متى تنتهي الأشغال ؟ إن ذلك ليس من اختصاصه، بل من اختصاص المهندسين والخبراء... حقاً إن الحاكم يملك السلطة، ويعطي الأوامر، ولكن نظام الجمهورية الفرنسية وتقاليدها الديموقراطية لا تجمع الاختصاصات... يا له من سؤال ساذج لا يفهم، كأنه يتحدث عن نظام في عهد السّيْبة. على أن الحاكم مع ذلك أشار إلى القائد ليجيب ببرود، وهو يرمي جناح برنوسه :

- قريب... إن شاء الله.

وفي انتظار سنوات التقريب، ينخرط بعض رجال القرية في الأشغال درءاً لجوع العطالة، ويهاجر آخرون إلى المدينة بعد يأس أو ملل، ويحصل فريق على ريالات معدودات في الحال كجزء من ثمن ممتلكاتهم، في انتظار باقي الثمن الذي يبدو أنه يتطلب إجراءات إدارية طويلة (بعض الشيء) بالنسبة لمن ألفوا حياة السّيْبة، ولم يستأنسوا بعد بفضائل نظام فرنسا فيضيق صبرهم به :

- يا سيدي صبرنا وصبرنا... هذي سنين... وما بقي عندنا صبر... قولوا لنا كلمة واحدة : اليوم أو غدا... ؟ ايه أو لا... ؟

ويرمي القايد جناح برنوسه من جديد ويجيب.

- قريب إن شاء الله... قريب.

وينفلت وراء الحاكم الذي يدخل مكتبه كالمتضايق، بينما يبقى الجمع في الساحة بين المكاتب يحملقون في بعضهم كغرباء أُسقطوا في جزيرة الواقواق... وتتجوَّل أبصارهم في أبواب المكاتب الموصدة، والمخازنية المسلحين بالبنادق، والسماء الصافية المشرقة نكاية بهم...

سرجوا لِي عودي : آرَوْ لي لْجامه
جيبوا التّماك والحمالة
مكحلتي والبارود وحزامه
ملقانا اليوم في النزالة
أنا وأنا، وأمي على بلادي

* * *

سوّلوا عويشة على دويدو
سوّلوها على اللي وحدو
قتل ميات عدو
أنا، وأنا
أنا كيتي أنا
وأمي أنا على وليدي...

طال انتظار العمال هذا اليوم على غير عادتهم، فقد كان المكلّف بهم وهو رجل شديد السمرة، فارع الطول، ضخم البنيان، ممن طوّحت بهم الآفاق إلى القرية. كان يسبقهم في الحضور مقدِّماً سوْطه ولسانه في العمل، لكنه تأخر اليوم كأنه متغيب أو مريض... وهكذا تشتت العمال ممدَّدين على الأرض متلذذين بمطلع شمس ربيعية دافئة، ثم فرقع السوط وأطل اللسان :

- الكلاب ناعسين.

لم يكن غاضباً أو مرحاً، وإنما تحية الصباح متأخرة بعض الشيء، تصدر عن تضخم السلطة والأجور في شخص المكلف. وانتظموا أمامه صفاً، وبدأ يوزع عليهم أوراق الشغل لهذا اليوم... ورقة لكل واحد، عليه أن يردها إليه في المساء ليتقدم هو بها إلى الكاتب (النصراني)، الذي يسجل بها أيام الشغل التي أنجزها كل واحد. وفي نهاية الأسبوع، يفارق المكلف سوطه ليقف على كتف النصراني القاعد خلف كوة الأداء، يعلو صوته منها بين الحين والحين باسم معين، يظهر إثره الوجه المقصود، فيوافق المكلف برأسه، ليدفع النصراني له أجر الأيام المسجلة، وفي كل

عملية من هذا النوع، كان أشخاص معروفون، لم يظهروا على مسرح الشغل قط، يتقدمون ويأخذون تبعاً لإشارة الملكف وتفهم النصراني، ثم يختفون ليظهروا بعد ذلك في فرصة مماثلة لفائدة حساب مشترك بينهم.

كانت عملية توزيع الأوراق هذا اليوم سهلة يسيرة وسريعة إذ لم يتوقف المكلف على وجه من الوجوه متردداً في أن يشغله اليوم، أو يؤجله إلى أن يفهم ويخضع للمساومة الضمنية ؛ كلا، ولم يُشْف غليله في أحد... وهكذا انتهت هذه العملية دون أن يتبعه شخص أو ثلاثة، يستعطفونه ويقدمون خضوعهم له. لم يقع شيء من ذلك خلافاً للعادة، وهذه مدعاة غرابة ثانية تضاف إلى تأخر المكلف وهو غير معهود ولا مألوف... احتفظ المكلف بفائض الأوراق في جيبه بعد أن وزع الشغل على الجميع، وسار بحزم نحو مخزن الأدوات يوزع عليهم الفؤوس، ليتبعوه حيث توقف أمام جذع شجرة ضخمة، كانت بداية لبساتين التين والرمان والعنب التي ترتمي في مساحات شاسعة على النهر، وقد توسطها نصْبُ المعمل الذي بدأت معالمه ترتفع... انتصب المكلف كالعملاق، أما كرمة التين العجوز المعطاء، وأشار إليها بأصبعه يُريهم كيفية العمل في قطع الأشجار، ولكي يقرن النظر بالعمل، عضّ على سوطه بأسنانه، وتناول الفأس بخشونة من أحدهم، ورفعه في حركة مدروسه أراد بها أن تكون نموذجية في غاية الإتقان، حين وقف أمامه سعيد مكتنزاً قصيراً مهدِّداً.

- خلِّ الكرمة عليك.

ودهش المكلف، وأظهر الدهشة وقد نزل مستوى الفأس في يده عما كان عليه :

- وما لها ؟

- هذا ملكنا !

- ملكك ؟

- ملكنا وبلادنا... سر لبلادك واقطع.

وحدق كثيراً في سعيد وهو يصر بأسنانه :

ـ تمنعني.

ـ نمنع كل واحد... أنت وغيرك... الكرم يبقى والسلام.

كان الاتفاق الشفوي قد تم بين رجال القرية من جهة وبين الحاكم... والشبح الذي لا يُرى أبداً، والذي يطلق عليه ضمير الغائب ممثلاً للشركة والغموض والسلب بدون رحمة من جهة ثانية، على أن تحترم البساتين ويتمتع أصحابها بغلاتها، على أن يكفوا فقط عن حرثها ريثما تتم الأشغال، وتزول الأوراش والمعدات. وتعهد الحاكم بتعويض الناس عن خسارة الحرث، وضمن لهم موافقة الآخر الغائب... ولكن اتفاقات كثيرة خُرقت. فلمَ لا يُخرق هذا الاتفاق أيضاً ؟ لكن خرقَه المتمثل في قطع البساتين إذا ما تحقق، فمعناه ضياع كل شيء، وانقطاع آخر أمل في جدية الاتفاقات... ولعل سعيداً لم يكن يملك شجرة واحدة في مساحات البساتين، فلقد باع في إحدى نزواته لجيرانه ما كان يملك قبل مجيء الشركة... لكن وقفته هذا الصباح، تعني أنه كان يعاني شعوراً بأن قطع الشجر هو تقطيع لذاته هو واجتثاث له.كل شجرة ذكرى وتاريخ، وغلاتها للجميع... واتضح أن مشهد عراك سينشب بين الرجلين، فابتعد العمال تاركين فسحة معقولة لذلك، ولعل رغبة الآفاقيين منهم في مشاهدة العراك غلبت رغبتهم في الشغل، أما فريق الأهالي فقد كانوا من دون شك نهْباً لمشاعرَ شتى.

ـ تقدر تمنعني.

ـ جرّبْ ؟

ورفع المكلف فأسه متحدياً ليجرب، ولكن حركة من خلفه أطارته من يده فالتفت ليجد اثنين متأهّبين : علي الجليد بهيكله الضعيف يعلو وينخفض انفعالا وعباس... بقامته الفارعة :

ـ حتى أنت يا بو جليد ؟

ـ اسكت والا...

ـ كلنا معه.

وأجال المكلف بصره في الجمع، وتبين لا مبالاة الآفاقيين في نصرة أي

فريق وتصميم أهل القرية. وبدا أنه يستخدم عقله لأول مرة موازناً بين المواقف والأفعال... فالنتائج البعيدة لفعلهم هذا، ولفعله معهم لا تهمه الآن، بقدر ما يهمه أن يثبت للتحدي بل أن يتحدى. ولولا هذا الشعور لأوقف الشغل واتجه إلى رئيسه مباشرة يخبره بالأمر. لكن عيوناً ترمقه، وخواطر وراء العيون تترجم كل حركة من حركاته : ولابد لهيبته أن تستمر... وانه لمِن طينة هؤلاء، ويعرف أية حماقة يمكن أن يرتكبوا، وهم في حال انفعال. ثلاثة منهم على الأقل في أتم عزم وتصميم، وقد ينضم إليهم غيرهم عند رد الفعل، وحينئذ لن ينفعه تفوقه الجسماني، ولا جرأته التي لم يكن يخامره فيها أدنى ريب... ما العمل إذن ؟ وخطا بعيداً عن الشجرة رامياً سوطه، ومطّ قامته في الفضاء متنصباً متحدياً :

- هانا... واحد منكم يخرج... أو كلكم...

وهز كتفيه مستخفاً بتكشيرة متعددة المعاني، وتقدّم نحوه سعيد ونشب عراك عنيف بين الاثنين، انطلقت فيه اللكمات إلى كل اتجاه، وتدحرجا على الأرض منقلبيْن لاهثيْن، حتى إذا مضت فترة تبيَّن أنها كانت كافية لشفاء غليل الغيظ والحقد، تطوعَ بعض الآفاقيين للإمساك بكل من الخصمين ودفعه بعيداً عن صاحبه، وقد سالت دماؤهما معاً. حينئذ توجه المكلف نحو سوطه فالتقطه، وسار متوعداً نحو مكتب رئيسه وراء الأكمة.

ولم تمضِ فترة، حتى عاد المكلف مع الرئيس، وجماعة من المخازنيين المسلحين والأوروبيين، بينما كان المتمردون الثلاثة قد اختفوا، وأغلب المعدات قد استقرت في قعر النهر.

كانت هذه الحادثة آخر عهد عباس وعلي بالقرية، غادروها في الحال، دون أن يهتموا بإلقاء نظرة أخيرة على الأهل والدوار ؟ أما سعيد فكان له شأن آخر، وإن التحق بالمدينة بعدهم بيومين أو ثلاثة...

أمي يامي على سَربة الأولاد
اللي مشاو وما رجعو
اخبارهم قطْعت الواد

عند الله تجمعوا
أمي أنا على أولادي
أمي يامي على قبايل القصبة
كلهم خرجوا في حركة
شي يزغرد، شي يتباكا
أمي أنا على بلادي

... علم رجال القرية بحادثة اليوم، فما كان منهم إلا أن كوّنوا وفداً من ثلاثة على رأسهم كبور، وتوجهوا إلى مقر الحاكم الفرنسي على مبعدة عشرين كيلو متراً من القرية. أما باقي الرجال، فقد توجهوا بقيادة العربي، نحو البساتين عازمين على الحيلولة دون قطع الأشجار ريثما يعود وفدهم.

واستقبل الحاكم وفد القرية استبشاراً، وأعلمهم أنه ما زال على الاتفاق الذي كان بينهم، ونظراً لانشغاله بقضية هامة مستعجلة تتطلب تنقله في الحال، فإنه سيأمر فوراً بواسطة التلفون، بتوقيف عملية قطع الأشجار وكل نشاط حول البساتين : وعليهم من جهتهم أن ينتظروه في المركز، حتى ينتهي من مهمته بعد ساعة أو ساعتين، ليصحبهم بنفسه إلى القرية، ويحقق في الموضوع، لينزل العقاب بأصحاب المبادرة التي من شأنها أن تسيء إلى علاقته بالقرية. ولعل رجال الوفد لم يكونوا ينتظرون هذه المعاملة، ولعلهم اقتنعوا أو كانوا على أتم استعداد ليقتنعوا بما ظلّ الحاكم يؤكده لهم، من أن عليهم أن يفهموا أنهم يعيشون في ظل النظام والقانون الفرنسي، المخالف لكل ما عرفوه وعرفه آباؤهم من قانون (السيْبة) أو سلطة (المخزن) المطلقة... وما قد يصيبهم الآن من ظلم في ظل الحكم الفرنسي، إنما يسببه عدم اتباعهم الطرق القانونية، واعتمادهم على العنف... ولقد فعلوا خيراً بالتوجه إلى الحاكم في الوقت المناسب. ولكن العقاب سينزل حتماً بالثلاثة المشاغبين. أفكار وخواطر غامضة يختلط فيها التفاؤل بالتشاؤم، تروج في أذهان رجال الوفد بين الحيرة والاندهاش ؛ أثناء غيبة الحاكم، وتذاكروا فيما سيلاقيه عباس وعلي وسعيد من عقاب،

وانبرى منهم من يقول بضرورة مفاتحة الحاكم في الموضوع ليعفو عنهم :

- يعفو عليهم.. ؟

- وما له... النصارى ما فيهم حقد !

صحيح أن معاملة الحاكم لهم شجعتهم كثيراً فلن يتأخروا في تقديم طلب العفو عن الثلاثة المشاغبين، وإن كانوا يؤمنون بأنهم كانوا على حق فيما فعلوا، وأن إنقاذ البساتين سيتحقق بمبادرتهم الأولى للعنف... وقال كبور لصاحبه :

- خلونا دابا في القضية الكبيرة.. حتى تفضّي واحدة بواحدة... وأمنوا على قوله، فما يجوز أن يفاتحوا الحاكم في قضية الثلاثة قبل إنهاء قضية البساتين... ولم يبق إلا أن يعود الحاكم ؛ ولكن غيبته طالت وتجاوزت الساعات، وسيطر الهدوء الغامض على رؤوس الوفد.. ولعلهم فكروا في العودة إلى القرية أو إرسال أحدهم على الأقل، ولعلهم تنازعوا في ذلك. وحين خرج القائد من مكتبه، وأخبرهم أنهم سجناء عنده حتى يعود الحاكم قالوا :

- تسجننا يا سي القايد والحاكم قال لنا...

وقاطعهم القايد، وهو يرمي جناح برنوسه إلى الوراء :

- حتّي يرجع الحاكم.. الإعلام جاء بأن الشركة وقعت فيها سرقة كبيرة. تعقدت الأمور أكثر. وتعلق أملهم أكثر بعودة الحاكم لجلاء هذا الموقف الجديد. وهكذا أغلق القايد وجماعة المخازنية المسلحين، باب سجن المركز على الوفد، في انتظار الحاكم بعد ساعة أخرى، بعد ساعات، بعد يوم وليلة، ليمثلوا أمامه بعد أيام ؛ ويجيب على تعجباتهم بأن المهمة التي انتقل لأدائها تعقدت، وتطلبت منه هذا الغياب، وأنه متأسف جداً لما لقَوا، وأنه لا يثق بما قد يُوَجَّهُ إليهم أو إلى القرية كلها من اتهام سخيف بالسرقة، وأن القايد لم يحسن التصرف في غيابه عندما حجزهم... وتابع حديثه في لهجة اعتذار. أو ليس هذا منتهى العدل ؟ لعلهم فكروا كذلك، وهم يغادرون المركز نحو القرية في انتظار لحاق الحاكم بهم.

وأنكر الوفد ألا يجتمع حوله رجال القرية عند عودته، ويلتفوا حوله، ولقد أنكر كبور قبل ذلك في سجن المركز، ألا يسعى أحد من رجال القرية ليستطلع أخبارهم. ألم يكونوا وفد القرية، تطوّعوا وضحوا في سبيلها ولاقوا السجن ؟ وكيف لا يسارع رجال القرية ليستطلعوا الوفد ويسمعوا الخبر السار الذي لعلهم لا يترقبونه ؟ التفسير الوحيد للأمر هو أن يكون التشاؤم قد عصف بآمال القرية بعد سجن الوفد، وأن يكون قد عصف في نفس الوقت بمروءتهم.

وتوقف كبور في ساحة القرية متلفتاً يميناً وشمالا، منادياً أقرب رجال القرية مسكناً منه، فأقبل بعضهم في تثاقل، فسارع كبور في حماسة يستنكر بُرودهم :

ـ تبارك الله على الرجال... ميّتين ولّا حيّين ؟ الناس في الحبْس ولّلا في العرس ؟ يالله جمعوا روسكم، الحاكم ها هو جاي ورانا، وحتى كرمة ما تتقطع... حتى شجرة...

بدا متحمساً، ولكن تياراً بارداً قاسياً سرى فيه فجأة، شعوراً غامضاً بأنه يصب حرارته على ثلج، ما لهذه الوجوه لا تستجيب ؟ ورنا إلى رفيقين من الوفد، فقرأ عليهما نفس الحيرة والضياع ؛ واستجمع حماسته ليتابع مؤكداً أن البساتين لن تقطع منها ورقة واحدة...

ـ يا سيدي قطعوها بجذورها.

بذلك قاطعه صوت حازم بارد.

وتجمد كبور غير مصدق ما سمع، ليؤكد له صوت متعب مجهد :

ـ قطعوها ونشفت عليها الأرض.

أحس كبور كأن الأرض تبتلعه، أو أن صاعقة أصمّته، فنظر لرفيقيه في الوفد باندهاش برهه، ثم ثار كأنه يعود إلى نفسه :

ـ أنا راجع عند الحاكم.. دابا.. قطعوها وهو غائب. ويرد عليه الصوت البارد المتخاذل. وقد بدأ الناس ينصرفون في تثاقل كما جاءوا.

ـ قطعوها يا سيدي قدامه ؛ وهو حاضر ناظر ؟

كان على الوفد أن يدرك أن القرية مثقلة بالعساكر المسلحة، وأن رجالها كانوا أثناء غيبة الوفد في هول فوق الوصف، وأن الأوامر صادرة باستمرار بإطلاق النار على كل من يشتبه في حركة من حركاته. وقد فتشت البيوت وضاع متاعها بحجة للبحث عن المشاغبين الثلاثة.

ـ ما بقى كلام.

كانت آخر جملة صدرت عن كبور، وهو يمضي مهموماً مثقلا نحو بيته.

قولي قولي، يا نجوم الليل
قولي يا البايتة سهرانة
مول البلاد رجع ذليل
وصبحت الدنيا فكعانة
أمي أنا،
كيتي أنا
أمي أنا على بلادي.

بدت سهرتهم عجيبة، ينبعث سحرها مرحاً في الذكريات الحزينة، واللحن الكئيب، والعبارة المفجعة... أهي خمر الماضي، أم شعلة الأمل تتقد فيهم من جديد ؟ لعلهم كانوا أقرب إلى اليأس منهم إلى كل دعوة تربطهم بالأرض. حتى العربي، وهو أقربهم عهداً بها، كان أبعدهم في هذه اللحظة عن ملكوت الأمل، فقد تداعت أمامه سلسلة طويلة محبوكة الوقائع لا مبدأ لها ولا انتهاء، طوّحت بالعديد إلى دار الغربة في السجن أو في المدينة... ومع ذلك، فمصدر هذا الطرب الجماعي عجيب لم يتوقف فيه الغناء لحظة، بل كان أرضية رتيبة تطفو فوقها الأحداث والذكريات والضحكات.

ـ قل لنا على الكلب آسعيد.

ـ آه.. الكلب.

ـ قل.. قل..

ويستجيب سعيد للطلب في حكايته مع الكلب... كان له يوم معركة

البساتين مع المكلف شأن آخر، غير علي وعباس. لذلك لم يغادر القرية مباشرة، بل كان عليه أن يختبيء في مكان ينتظر الليل ليتسلل إلى بيت كلثوم، يخبرها بعزمه على الرحيل، ويعقد معها موعد اللقاء لمرافقته. كانت زوجته بالعُرف، يعاشرُها في بيت أهلها بعد أن أدى به اندفاعه وراء نزواته، إلى أن يفقد كل ما يملك. وكانت كلثوم على بعض تشابُه مع سعيد. وبذلك فرضتْ على أهلها واقع عشرتها له. وعندما أحاطت الأسلاك والعساكر بالقرية في غياب الوفد، بدأ البحث الحثيث عن الثلاثة في كل مكان... ووجد سعيد مخبأه في نُقرة صخرية على حافة النهر، في منعرج يشتد عنده جريان تيار الماء. كان متأكداً من وعورة المسلك إلى مخبئه، مطمئناً إلى أن مطارديه لن يصلوا إليه.. ولكن خياله دون شك، لم يتصور وجود كلاب مسعورة تقتفي الأثر في جنون، لذلك ذُعِر وفوجيء عندما سمع نباحاً حاداً يقترب. وما كاد يطل من مخبئه، حتى تبيَّن كلباً بحجم كبش ضخم، يقفز نحوه في هياج، تتراءى وراءه على بُعد أشباح المطاردين. ولم يطل تردده فارتمى في تيار النهر، ليرتمي الكلب خلفه في الماء كأنما يربط بينهما ثأر عريق. ولم يكن لسعيد خيار أمام إصرار الكلب على ملاحقته في الماء، فغطس تحت الماء ليجذب الكلب من إحدى قوائمه إلى الأعماق ثم يطفو فوقه ويداه على عنقه تخنقانه تحت الماء، ليرمي بهما التيار إلى الجانب الآخر أحدهما جثة هامدة، والآخر يغيب عن القرية إلى غير رجعة.

قولو للغادية قولو للجايه
قولو لمولاة الحجاب
صبْري صبْري
اللي تقدر كتاب
أنا حالف ما ننسى جيراني
ما نضحك ما ندير صحاب
حتى يموت النصراني

ويدوروا بيا الاحباب
أنا وأنا
خلوني نبكي أنا
وأمي أنا على بلادي

* * *

3

ـ نعست ؟

ـ أنا ؟ لا...

كأنما أفزعها السؤال، كأنما يمكن أن يوجه لغيرها في هذا الظلام، كأنما يمكن لعين مكروبة غير عينها أن تعاني ما يعانيه زوجها من أرق...

وتحرك العربي تحت الغطاء، لعله يستلقي على ظهره أو على جنبه الأيسر، فهو لا يحتمل رقدة طويلة على الجنب الأيمن، منذ أن وخزه قرن الثور ذات سنة.

ـ والولد ناعس ؟

ـ ششت...

أولى به أن يسألها هل أفاق الصغير، بعد نوم ساعات متوالية منذ بداية سهرة الأهل : وأولى بها ألا تخاف أن يستيقظ الطفل. ولف الصمت خيوطه من جديد والظلام، كانا في ساعة جد متأخرة من أول ليلة يضمهما فيها دفء مكان واحد مع ولديهما، وقد خمدت نار الشوق بينهما مؤقتا بعد فوران، واستعادا في حديث مكرّر حوادث السهرة، ونكات الجمع الذي ضمته ليلتهما هذه. ولعلهما بالغا بعض الشيء في التلذذ بما حدث وفي تكراره. وعلق العربي.

ـ سعيد أخوك.. شيطان.

وردت كالمؤيدة :

ـ هو هكذا من صغره.

كان متأكداً من مكنون جوابها قبل أن تلفظه، وكانت تعلم أنه بحديثه عن أخيها على هذا النحو، لم يكن يقصد إيذاءها بقدر ما أراد أن يعبر عن إعجابه بمزاج أخيها ومغامراته.. لطالما تكرر ذلك بينهما حتى وهُما في القرية وسعيد عنهما بعيد. واستمر بينهما الحوار متقطعاً عن تناقض الطباع. وقال العربي :

ـ أنتِ أصغر منه وعاقلة.

ـ عطية الله...

وبعد فترة هدوء تساءل كأنما يبحث عن علة لتمديد الحوار،

ـ سمعت الكنبري... والغناء ؟

وردّت :

ـ سمعنا كل شيء...

أدرك مرماها بدون ريب، ولكنه في مزاج طيب يتقبل ذلك. وردّ في لهجة تودد.

ـ لازم للواحد يفرج على قلبه...

وعاد الصمت، وكل منهما يضج بالحديث بينه وبين نفسه، مستعرضاً الصور والمواقف، متأملاً حال هؤلاء المهاجرين من رجال قريته، ورفاق صباه، الذين خفوا للاحتفال بقدوم أسرة جديدة إليهم. لقد أحبهم العربي ليلته هذه كما لم يحبّهم من قبل. ومازال اعتزاز يخامره بأنه من أحسنهم وضعاً، وأنه لم ينتسب إليهم انتساباً نهائياً، كأنه مازال في شك من ضياعه وغربته أو لأنه لم يتقبل بعدُ هذا الوضع. وباستثناء ابن عمه كبور فالباقي أكثرُهم كانوا خماسين في أرضه لفترات طويلة أو قصيرة، أو عملوا فيها بالأجرة بما فيهم صهره سعيد. ولقد ثبتت بينه وبين البعض ضغائن معتادة في القرية لكنها غابت الآن، وعوّضها الحب والشعور بوحدة المُصاب، ليغطي على هذا الشعور العابر بالاعتزاز والتميز. وتمتم العربي متنهداً :

ـ أستغفر الله.

وتلتقي خواطر الصمت حول سؤال واحد : أي المهاجرين أحسن حالا ؟ وردّت صفية دون تفكير :

ـ كبور ولد عمك.

يعتبر كبور بطبيعة الحال، من الطبقة المحظوظة التي تنعم على الأقل بمسكن مبني نظيف في قرية السكر. وفصّلتْ صفية حديثها في مقدار ما ينعم به كبور مدفوعة بدافع خفي، كأنها تحتج على ظلم مسّها، وكان واضحاً أنها تعدد في الواقع مبلغ ما تنعم به الغالية، زوجة كبور، كأحسن زوجات المهاجرين حالا. ولعل مثل هذه الخواطر كانت تجوب ذهن الزوج. أحقاً يكون كبور أحسنهم حالا ؟ يقضي يومه ملفوفاً بالخيش في الأفران الملتهبة، وأصواتٌ تأمره وتنهاه، كما كان هو بالذات في الماضي يأمر ثوراً أو خماساً ؛ ثم يغادر المعمل ملفوفاً في سروال طويل أزرق، ليس أشد منه إذاية لبصر العربي، فتراه يتحاشى النظر إلى من يرتديه... كيف يكون إذن أحسن حالا ؟ وماذا يكون من أمر العربي، لو أصابه مصير كمصير ابن العم ؟

ـ وردد بحيث تسمعه زوجه جيداً :

ـ كبور لا. الله ينجينا من حالته. أخوك سعيد، يمكن يكون أحسن منهم كلهم.

كان ما يزال يتكلم بدون وعي منه تحت شعور بأنه يتميز عليهم، وأنه لم يعد منهم بعد. لذلك فكأن المقارنة لا تمسه في شيء.

وتساءلت :

ـ سعيد ؟ كيف ؟

ليس من العسير عليه أن يعطي جواباً. وجلجلت في سمعه ضحكة سعيد، وقد وضع عمامته إلى جانبه، فظهرت صلعته اللامعة وبقية رأسه الحليق وهو يجيب عن سؤال حول شغله :

ـ أنا خدمتي ؟... خدمتي... نغربل الماء ونخيط الدروب والزناقي ؟

ثم ينهي بضحكة من مثل ما بدأ به.

ويرد العربي عن سؤال زوجته :

ـ هو أحسن منهم والسلام. على كل حال، هو حر في خدمته، ما عليه أمر.

وتصمت لا عن اقتناع، فأمْر أخيها يحيّرها. فيمَ يشتغل هذا المارد أو الشيطان، كما يسميه زوجها تخفيفاً وتظريفاً ؟ وما دخله ؟ حقاً إنه نظيف، بل أنيق في لباسه لا يتردد من يراه لأول وهله، في أن يحكم بأنه القايد... ! وزوجته كلثوم رغم نحافتها وقِصرها، رائعة الملامح تتصف بالنعمة، وليس بعدها وبعد الغالية، من تُرشّح من زوجات المهاجرين، لتكون أحسنهن حالا ! وتتحرك تحت الفراش، كما لو وخزها شوك أو أحرقها جمر، ويتساءل :

ـ مالك ؟

ولا تجيب، وتحريكها للطفل الغارق في النوم مجرد هروب من إلحاح الصمت.

انتهت فترة الشوق. وأتمت صفية حديث القرية. سردت عليه كل صغيرة وكبيرة كما حدث في شهور غيبته قبل أن تلحق به. وعليه الآن أن يتحدث. عليه أن يشفي غليلها، ولا يَدَ لها لتجبره على ذلك، ولا قدرة لها لصياغة سؤالها المُلِح. وهو بدون شك يدرك ذلك ويعرفه : ماذا أعد لها ؟

ما مشاريع حياته في المدينة ؟ في القرية كان مثل هذا السؤال عبثاً، ولم يكن مما يخطر ببالها. دوْرُها هناك كان محفوظاً معروفاً. والدرب مسلوك، كم تخوفتْ طوال بُعده عنها أن تسكن يوماً ما براكة، وها هي ذي تسكنها دون أن يُجدي احتجاج مكبوت في داخلها واعتراض. وماذا بعد ؟ ألا يكون هذا مجرد بداية لسلسلة طويلة من المذلة والهوان لم تكن تخطر لها على بال ؟ وعليها منذ اليوم أن تتعرف جيداً على ذلك الجار اللعين المقيت المقيم الذي يسمونه البقّ، والذي كانت أخباره وحكاياته تتناهى إليها في

القرية وبالنوالة والخيمة... وكان بودها أن تسكن في المدينة داراً إن لم تكن كدار الغالية، ومادام زوجها يرفض حال كبور، فعلى الأقل كدار كلثوم، التي يستأجر فيها أخوها غرفة في درب السلطان. فكانت حرية لو سكنتْ مثل ذلك أن تشعر ببقية كرامة وبقية عزاء. وأن يستمر عليها حكم الزمان، بأن مَقْدَمها، كان مقدم خير وبركة على زوجها في القرية وفي المدينة. فقد جرى عُرْف الزمان أن يحكم سعْد الزوجة أو نحسها، بما يصيب بيت الزوجية بمقدمها من نعمة تُقْبل أو تُدبر. ولكمْ تابعتْ من قبْلُ تحت وطأة هذا العرف المتأصِّل فيها، سلسلة وقائع رافقت مقدم زوْجاتٍ إلى بيوتهن، وكانت الغالية من أمثلة النحس وسوء الطالع في حكم صفية، ألَمْ يبِعْ كبور أراضيه قطعةً قطعة منذ زواجه بها ؟ ولو لم تعاجِل الشركة في القرية بالاستيلاء على ما تبقّى من أرضه لبَاعه في نفس السنة. أوَ ليس البدء بما تبقّى من أرضه في عملية استيلاء الشركة على أراضي القرية دليلا على سوء طالع الزوجة ؟ أما كلثوم فهي من طينة أخرى : إحدى مُغامِرات القرية، والتقى شراعُها برياح أخيها سعيد، فسارا في اتجاه واحد... أما هي صفية بنت سويعد، فمن بيت الجاه والفضيلة رغم الفقر. وزوجُها العربي من أعظم دار في القرية. اشترى بمقدمها عديداً من القطع الأرضية، أضافها إلى ملكيته الواسعة، ولئن استولوا على جزء كبير منها في آخر ما استولوا عليه، فليس ذلك عن سوء طالع منها، ولا مِنه، ولكنه تدبير مقدّر. وما تزال لزوجها أملاك أخرى خالصة له في القرية، وكل الأمل في أن يعود إليه ما سلب منه... لكن دورها في الحياة الجديدة غامض، وعليها أن تصبر على مضَض.

* * *

أنفاس الصغير تتردد. وأخته خدوج متكورة بدون شك على مبْعدة منه تغط في نوم عميق. والشقوق العديدة عند ملتقى الألواح الخشبية، وقطَع الصفيح في البراكة لا تشي ببارق ضوء أو شعاع خارجَها. كل شيء في ظلام دامس ولكن العيون المحمْلِقة فيه، ترى دون شك كائناتٍ عديدة، غريبةً ومعهودة ؛ تتحدث وتتعارك وتتهامس في الظلام، تروي من

الماضي والمستقبل والحاضر ما يُرعب ويخيف حيناً، ويُشعر بهزَّة أمْن بسيطة واستئناس حيناً آخر. مهما يكن، فقد اجتمع بعض الشمْل، الشمْلِ الصغير. والعربي الحمدوني اليوم غيره بالأمس. فأسْرته بجانبه، والأملَ الكبير أن يجتمع الشمل الكبير يوماً ما بالعودة إلى تربة القرية. وتناهى صوت صفية تصطنع الصبر والتروّي، كأنها لا تتلهف على شيء.

- الله يلطف بنا.

وتمتمت في باطنها بحديث غير مسموع يخالطه التنهيد : وماذا بوُسْع الضعيف الغريب ؟ من يأخذ بيده في تلافيف الظلام ؟ كفيفٌ يتمسّك بكفيف. وسمِعَها تُكرِّر :

- الله يلطف.

غُنَّة انكسار وادع ينْبعث من الأعماق، تَوَدُّ لو يتكلم، ماذا أعَدّ ؟ فيمَ يفكر ؟ ماذا يُبصر في الظلام ؟ إنه يدرك كل شيء عن لهفتها. وكما يعْمد رفيق علة مُزْمِنة إلى قيام، فيقعده العجز مستسلماً، كذلك تهيأ العربي الحمدوني للحديث، فلم تصدر عنه إلا زفرة ثقيلة، وعاد يتابع خواطر زوجه الصامتة :

- كيفما كان... كبور نسَى وتهنّى.

ويرد العربي على خواطرها المُنْسابة عبْر خواطره :

- نسَى ؟ حتَّى واحد ما ينسَى بلاده وأرضه.

وهل يخفي عليها ذلك ؟ إنها تعرف كل عبارة في الموضوع. الأرض قطعة من كبِد المرء، فكيف يعيش ببقية كبد ؟ كيف يعيش من لا يحس موطيءَ كلّ قَدم بأرض الأجداد تتمسّك بقدميه ؟ كيف يعيش من لا يتردد في سمعه كل لحظة نداء الريح والجدول والطير، كيف ؟... من لا يشتم عبير التربة، وثقل الوحل الزكي، تغوص فيه القدمان إلى الركبتين... ؟ لشدّ ما تتمسك أرض الأجداد بمن يتمسّك بها... ويعلو حينئذ صوت

الحرّاث مُهيباً بالثور أن يضاعف الجهد... وقطرات المطر تتزايد، تنزل في لسَعات قوية قارسة على أصابع يد تتمسك بمقبض المحراث، واليد الأخرى تلوح في الفضاء بسوط يتلوى مع الريح، وتطلُّع للأفق الغائم الباسم، وحديثُ أمَل للنفس المُتعبَة أن تستريح، ستستريح بعد خط، بعد خطين...

ـ ينسى ؟ كيف ؟

ـ هه ؟

كان إذن يهْذي في اليقظة والصَّمت، وجهرتْ أخيراً بخواطرها خارجاً عن إرادتها. ولابد له أن يقول شيئاً. وصمتها يتسمَّع متسائلا :

ـ هه ؟

لابد له أن يُفْصح. ولهفتُها صورة من لهفته، ماذا ينْوي ؟ ماذا أعدَّ ؟ ماذا يقول ؟ أرض الغربة ترُد أقدامنا بعنف فتسمعُ لوقْعها صوْتاً، كما لو كانت تقع على حديد صلْد، إنها ترفضنا. أما أراضينا، فيغوص صوت وقْعنا فيها إلى أعمق الأعماق. إنها تمتصه ليُثمر بركة وخيراً، أرضُنا...

ـ تكلّمْت ؟

بل أعماقه تضجّ.

ـ ما سمعت من كلامك غير... أرضنا أرضنا...

ـ هذا ما هو كلامي أنا، هذا كلامه هو يا صفية...

ـ كلامه هو ؟

ـ ايه. المذكوري، هذا هو كلامه.

لو أضيء النور بغتة، لبدَتْ صورة صفية مقطّبة الجبين، وقد انفرجت شفتاها في ذهول، تاركة رأس طفلها ينحدر عن ذراعها، والثدي المدرار يفارق شفتيه. وتمتمتْ متسائلة :

- شواف، هذا المذكوري ؟

لعله كذلك، لعله فوق ذلك. شوّاف أو ولي أو أي شيء آخرَ غامضٍ ساحر. إنه كل ذلك ولكنه من أبناء الأرض، مهاجر ككل المهاجرين.

- واحد منا وبحالنا ؟

وتردد العربي الحمدوني في أن يؤكد لزوجته ذلك من جديد. وتضخم في أعماقه شبَح المذكوري يملؤه شيخ غضوب عليه هيبة الأسود. وكلماته القوية الجارحة، عبارات نارية يرميها في عنف، كأنه يتلقّاها من فوهة جحيم، لتستقرّ حامية في القلب تحرق الكيان كله... نارُ غضوب على نار غريب، تستحيل بلسماً يلُم الجِراح... يسبُّك يشْتُمك، فلا تزداد إلا انشراحاً له وإقبالا عليه.

- هذي علامة الأولياء.

لم يرُدّ العربي على تعليق زوجته المأخوذة بما يحكيه في الظلام، فخواطره تنْساب مع المذكوري : تلين أو تهتاج بما يعتري المذكوري من فورة أو هدوء...

ضاقت الحال بالعربي الحمدوني بعد شهور من فراق قريته وأهله، ونزوله غريباً عند ابن عمه كبور ؛ وتضاعفتْ حسرته، والسبلُ أمامه شتى مظلمة. كان قد ترك قرية السكر مغادراً بيت ابن عمه كالعادة كل صباح : يكتشف كل يوم جانباً من هذه الحياة المُتْعَبة الكليلةِ في الحي الصناعي، بعد أن تلْتهمَ المعامل روادها منذ الصباح الباكر، فلا يبقى خارجها إلا سأم يتمطّى. وملأتْ خياشيمه روائحُ السمك النفّاذة بنَتانتها المنبعثة من عشرات المعامل على شياطئ البحر القريب، كأن الكوْن كلّه أضْحى مغموراً في صهريج كبير من صهاريج السردين المُملَّح، كما تغوص فيه بالفعل أجساد العمال والعاملات كل يوم ليلا ونهاراً.

واجتاز العربي معمل السكر الملاصق لقرية العمال، وتوقف تحت الظل الطويل الذي ترسمه مدخنة المعمل الضاربة في الفضاء، وتطلّع إليها مغمضاً عينيه بعض إغماض تلافياً لأشعة شمس يُنذر صباحها بيوم

مُحْرِق. وأثار فيه الشعاع القوي وتوافُد الهواء الثقيل على خياشيمه عُطاساً متتاليا. وتخيلَ تحت المدخنة، في البناء الفسيح الرابض أشباحاً آدمية تنْدى أجسادها عرقاً، كخرفان مسلوخة لا تمييز بينها. لطالما حدّثه كبور عن ذلك. وأحس لُزُوجة العرق في شفتيه، فمرَّ بظهر كفه على فمه، مسحَ جبهته ولحيته الكثَّة القصيرة. صباح يُنذر بيوم شديد الحر. وأدار وجهه إلى كل جهة. لقد طوَّف كل أنحاء المدينة منذ وصوله. وأمامه الآن على مئات معدودة من الأمتار، خلف معامل السمك المتراصة، يقع البحر.

تجاوز الظل الطويل، وتوقَّف قليلا عند موضع مُهشَّم من قناة ضخمة بارزةٍ على الأرض، تمتد طولا إلى ما لا حد له على طرفي الرؤية. وحدَّق لحظةً في صورته الغائمة المرتسمة على السائل البترولي الدسم الداكن الذي يمر خلال القناة، في حركة أشبه بالركود. وانحنى يحرك أُصبعه في السائل، يشمه بفضول. رائحة كالقطران. ورنا إلى امتداد القناة في اتجاهها نحو الميناء البعيد. لم تكن له وجهة، فخطا فوق القناة وسار صوب البحر ليتوقف عند سهْب صخري عميق وعريض، كان دون شك مقلعاً رئيسياً للأحجار التي بنيت بها المعامل المجاورة، وقد أحدث السالكون في حافتيه الصخرتين، نتوءات متقاربة في غير انتظام للصعود والهبوط، انحدر العربي متشبثاً بها، ليقفز إلى قعر السهْب عند اقترابه منه، لينبسط حوله سطح فسيح من الصخر الصلد، يمر خلاله خط حديدي قصير صديء، كان في يوم ما يُستعمل في نقل الأحجار إلى مكانها المناسب خلال السهْب. تجاوز العربي منتصف السهب، وبدأ يتطلّع إلى الحافة الأخرى يتعرف على مكان مناسب للصعود، حين غشيته رائحة بحرية نفاذة، مخالفة لنتَن السردين الذي يعرفه جيداً. وتراءى له في أقصى السطح المنبسط دخان كثيف ثقيل، شديد السواد، حوله أشخاص، وما أسرع ما أثار المشهد فضوله، فعزف عن صعود الحافة، وسار بمحاذاتها في السهب نحو المشهد المُغري في اتجاه الدخان المتصاعد.

سار الهوْينَى حتَّى إذا اقترب من مجمع الأشخاص، تبيّن حول الدخان رجالا ونساء، امرأة وثلاثة رجال حول قِدْر كبير أسودَ يتكاثف حوله

الدخان. وعلى بعد خطوات امرأة أخرى وأطفال منهمكون في جمع قِطع متفرقة من شيء ما، موزّع على مساحة عريضة حول خيمة واطئة من قطع الخشب... فوقف العربي الحمدوني مُسْتحْيياً، واستدار راجعاً، ليهزَّ كيانه صوت قوي يناديه من خلفه :

- هيه... أنت ؟

حاجبان كثيفان منعقدان فوق عينين ناريتين مستطلعتين تحاولان أن تغوصا إلى أعمق ما في المرء من مجهول. وعَرتْ العربي هزة ارتعاب من مشهد مُخاطبه، وحاول أن يسيطر عليها بصعوبة ليقول في صوت معتذر كالهمس :

- ضيف الله.

كان الرجل الآخر بلحية كثة طويلة عريضة، شديدة البياض والسواد، وبنْيتُه القوية المتينة يَشي بها ساعدان عاريان متصلبان، كأن حبالا مشدودة إليهما، وقد اقترب من العربي، ينحسر عن ركبتيه سروال بلدي أدكن، وقال في استخفاف أو تهديد كمَن لمْ يسمع بعدُ شيئاً، وينتظر أن يسمع الكثير :

- هه ؟

وردَّ العربي في تهيُّب يملأه إحساسُ من اقتحم عريناً وأثار أسداً عن أشباله :

- غريب... اعذرني أنا عروبي.

لو كان في مكان ما من أية قرية، لما أصابه مثل هذا التهيُّب الذي يوشك أن يبلغ المذلة، وماذا فعل ؟ كل ما هناك أن مشهد الرجل الآخر، لا يوحي لك بغير أن تتهم نفسك على مخالفة لم تقترفْها. ولو كان العربي في أي مكان آخر من دنيا الله، في أية مدينة، لما خامره هذا الشعور بأن يعمل ما في وسعه ليُرضي الآخر وليمضي سليماً. وبدا له الرجل يحرِّر سكينا في يده من شقَّيْ محارة، يبدو أنها كانت في يده قبل أن يُقْدم، وأنه ذهل عنها لحظة أو أنه... على كل، فالموقف كله غير مألوف.

وتساءل الرجل مقطّباً :

ـ ومن أين أنت ؟

ـ من هنا، من الشاوية...

وضاعف الرجل استخفافه وتقطيبه :

ـ نقطة في بحر... قلت لك من أين أنت ؟

وأوضح العربي :

ـ في الأصل أنا سعيدي من قرب القصبة...

وبدا أن الرجل قد تفحصه بما فيه الكفاية، وأن حَدْسَه حدّثه بشيء ما، فلانَتْ نظرته وهو يقول :

ـ لا بأس... لا بأس، مرحبا بضيف الله.

وسار أمام العربي فلم يملك إلا أن يتبعه، حتى وصل المجلس حول القدر فسلم وجلس قبالة صاحبه، في حين هز الرجل رأسه كأنه يتحسر على قطعة من ماضيه وهو يقول، وكأنه يرحب بضيفه أو يتمم ما قاله :

ـ من القصبة ؟ الله يعمرها، دار.

ـ وأنت ؟

كان لابد من إتمام التعارف، وأشار الرجل إلى صدره برأس السكين :

ـ أنا مذكوري.

ـ دار الكرم... الله يعمرها.

والتفت الرجل إلى الفَتييْن اللذين كانا ما يزالان في مجلسهما يحثهما على العمل، بعد أن فترت حدَّتُهما بقدوم الغريب. وقال يعرِّف العربي بهما :

ـ أولادي.

كانت نظرة أولى كافية لإدراك الشبه بين المذكوري وولديه. حسين أكبرهما يبدو متجاوزاً العشرين ؛ وانكفأ أصغرهما على النار ينفخها تحت

القدر. لقد علّمهما المذكوري أن يجمعا المحار ويعملا على سلْقه وشقّه ليبيعَه، وسيعود بهما لشقّ الأرض وشقّ بطون الأعداء، ولم يبق طويل أمد يتحقق فيه ذلك.

وتهلّل وجه المذكوري وهو يسأل ضيفه عما جاء به، ويرد العربي بإهمال.

ـ نزلت، غادي للبحر...

وقاطعه المذكوري :

ـ خلّنا من هذا... أنا سألتك على بلادك.

ـ آه.

يسأل إذن عن الأصل. يتشوّفُ لباطن الأخدود العميق في نفسك. فلْيَعتصرْك الضيْم. لماذا أتيتَ ومن أنت ؟ ما أبعدك عن دار تعرفها وتعرفك، أما هنا... وأتم العربي عبارته :

ـ خرجوني... جروا عليّ من أرضي... وخرجت.

وتفرّس المذكوري جيداً في وجه صاحبه مُستشِفاً ما وراء الكلام، وكأنه يقول بنظرة نصف واثقة، نصف متشككة :

ـ لا يبدو عليك سوء حال.

ونظرة العربي مستكينة تقول :

ـ لا يعلم النفوس إلا خالقها.

وخفَّتْ نظرةُ المذكوري بعد قليل، وزمَّ شفتيْه كأنه فهم أخيراً أو اكتشف المقصود :

ـ أنت من الكبار.

عبارة طافحة بالمعاني يمتزج فيها التهكم بالاحتقار، والرثاء بالنفور. السادة الكبار في القرية كما عرفهم المذكوري وكما خبَرهم، هم أعوان النصارى على سلْب أراضي الصغار وذوي الهمم... واليوم جاء دوْرهم ليخرجوا من الأرض أيضاً. يأتي النصراني الأبلق بسيارة يتعالى شخيرها

ويتطاير من حولها الدجاج والحمام، ليقف في ساحة القرية تلْمع نظارته تحت أشعة الشمس، وقبعته كغراب يهم أن يحط أو يطير، ويجول طرفه فيما يحيط بالقرية من أراضي كأنه يتفقد ملكه، والناس على بعد منه وعلى قرب، قد أكلها الرعب والتوجّس، ثم يُشير بسبابته يرسم حدود أملاكه، فيفتقرُ السيد الكبير الذي كان يوماً ما أسداً على المستضعَفين، والذي ساعد يوماً بطريقة ما، على أن تزول أملاكهم وتبقى أملاكه...

ولا يملك السيد الكبير إلا أن يُسَلّم ويستسلم، وقد يُقبّل يد النصراني، وهو يمد يده لبعض فرنكات، وقد لا يقبض فلساً، ولكنه على كل حال يُسرع ليهاجر ليندرِج بين الآلاف ممّن تصهرهم أفران السكر، أو تشقُّ جلودهم صهاريج الحوت المملّح. وقهقه المذكوري في ختام رسمه السريع المتهكم لموقف السادة الكبار من المُستعمِرين، وأتم مركّزاً نظرته في ضيفه، كما لو كان العربي يمثلهم :

- قلوب الدجاج... انتما الكبار... وكبدة الحمام...

وأحس العربي بنِصال حادّة تغور في جنبيه... حقاً إنه في قريته يُعد من الكبار. ولكنه لم يسمع بهذا التمييز من قبل. ولم يعلم عن نفسه ككبير أنه سهَّل طريق المستعمرين حفاظاً على أملاكه مضحياً بأملاك الغير. ولا يكاد يُميز إنْ كان صاحبه المذكوري يتحدث بحق، أو أنه يهْذي متحاملا ومتحمساً... ولعله في حاجة إلى أن يعرف قصة العربي ويستوعبها، ليراجع أحكامه. على كل حال، فالرجل لم يعد مُرعباً كما كان في البداية، وإن كان ظاهرَ العدوانية قريبَ الغضب. مذا يظنه المذكوري ؟ قلب دجاج هش، وكبد حمام، يطير فزعاً من شبح النصراني وشخير سيارته ؟ ألا، فَلْيعلمْ أنه إن كان قد ترك القرية، فلأنه قد حمل الرصاص على المعمِّر النصراني، والمسلم جميعاً، أليس مما يكفي فخراً أنه مازال يتوفر على السلاح ؟ هذا اللفظ الذي هجرتْه الألسن فلا يتردد حتى في الهمس أو في الحلم منذ سنوات. بنادقُ من عهد جدّه ماتزال مخبأة لا يعرفها إلا هو. استولوا من يَده على بندقية واحدة أخرجها من مخبئها في ثورة الغضب، ليرد للكرامة معناها، وعندما فشل نصحوه بالهرب. لكنه مستعد في كل

لحظة، وعندما يتكاثف اليأس أن يعود متسللا بالليل، إلى حيث يروي الأرض بدماء المغتصبين، ولا يقبض عليه أو يقتل إلا بعد إشفاء غليله.

وانعقد الحاجبان الكثّان، ويد المذكوري تغرز رأس السكين بشدة، في شق المحار، ثم تتجمد حركته كما تتجمد حركة ابنْيه. والقدر وحده يضطرب ويغلي : لو وجد المذكوري أمامه رصاصاً لأقفرت الأرض من كثيرين... لو وجد أي شيء في الوقت المناسب لشفى نفسه وروى أرضه بدماء الأعداء... أرضه المسْودّة الحنون كبشرة جسمه، لكنه لم يجد أمامه شيئاً فاستعمل يديْه وحدهما ؛ كان الموقف مباغتاً والغدر مبيّتاً، دون أن يفطن إليه منذ البداية، وعندما أحس بعظام تنْدقّ تحت ضغط يديْه الغليظتين، وثقْل جسمه الحقود، وصرير أسنانه كاحتكاك الفولاذ، تلقى على مؤخرة الرأس صدَماتٍ قويةً متلاحقة من الفضاء... من فوق، من خلف، من كل جانب.

- شف.

وتطاير الزّبَد من فم المذكوري، وهو يُزيح بحركة واحدة عنيفة منديلا متّسخاً أزرقَ كان يغطي به رأسه.

- شف... شف...

وظهرت آثار الإصابات على الرأس جُزُراً وجداول متعرجة بيضاء على بقعة شائكة. وكان المذكوري يدق مواقع الإصابات بعنف، كأنه يتلقى الضربات من جديد، وكانت حقاً رأساً عنيدة صلْدة :

- شف هنا... هنا... هنا... كلهم ضربوني... بنسالم... ولد الأعرج (كلهم لابد لهم من الموت...).

ولكنه لم يقتلهم، ولن يقتلهم على الأقل قبل أن تعود إليه هو الحياة، حياتُه أرضه. وقام المذكوري يجر العربي من يده جرّاً وهو يأمر ابنيْه بمتابعة الشغل.

- زد، تعال تشوف... شف هذا.

كان قد اجتاز به إحدى الخيمتين الواطئتين، وأشار إلى مساحة فسيحة

تمتد أمامها، فرشت وبراً وخِرقاً بالية، وأوراقاً تفوح منها النَّتانة، بينما امرأتان وأطفال ينْفُشون وينفضون ويعزلون في انحناء دائم. وأرْدف المذكوري :

ـ هذه أمهم، والأخرى امرأة ولدي حسين وأولادها.

قانون الشغل يُهيْمن هنا على كل كبير وصغير، والمذكوري يمسك الزمام بيد من حديد. إنهم يتذمرون منه : زوجته وأبناؤه وزوجة الإبن، حتى الأطفال يتذمرون، لكنهم لا يقدرون على التمرد. بِوُدّهم لو اشتغل حسين وأخوه في أحد المعامل، ولو اشتغلت المرأتان، وحتى المذكوري الشيخ، لكنه يرفض ذلك ويراه خطراً، لأن الفرنكات المنتظمة كلّ أسبوع تعَوِّد على الكسل والخمول وتُنسي الأرض : يريد لهم ألا يملكوا شيئاً، وأن يعيشوا في غربة دائمة، يجمعون قوتهم من المزابل وفضلات البحر... وسيتزوّج ابنه الأصغر أيضاً... يجب أن يلدوا ويكثروا فلا تحتضنهم غير الأرض. فعندما يُنجب المرء فقد دُقَّت له الأوتاد، وحطّت مِرْساته على قعر ثابت فلا يميل مع كل ريح. وقد دأب المذكوري وابناه على أن يقضوا يومهم في البحر لجمع كل ما يرمي به وما لا يرمي به. ويعودون بسلال المحار، وقطع الصفيح والأخشاب ؛ والسوق قابلة لكل شيء. بينما تتّجه المرأتان والأطفال إلى المزابل لجمع الأوراق والخِرق والأوْبار.

وسار المذكوري بصاحبه إلى ما هو أبعد، فمَرّا بأكوام من الصفائح والعلب الصدِئة، وولج به مَغارة في الجدار الصخري حيث عمَّتهما رطوبة وظلام، اقشعر لها بدن العربي، ويد المذكوري تتركه لحظة تفتش عن شيء تشعله، واتَّقد ببطء مصباح زيتي من الصفيح، وتجلَّت على ضوئه الخافت صخور ناتئة على جوانب المغارة وسقفها، وتبدّت بعض أكوام مرصوفة إلى بعضها، واتجه المذكوري صوْبَها وأزال عنها قطع الخشب والأسمال لتظهرَ تحتها أكياس مُكْتنِزة اعتبرها العربي ثروة هامة من الحبوب يمتلكها المذكوري، بينما أدخل هذا يده في أحد الأكياس وغرف منه، ثم قرَّب يده من وجه العربي :

ـ شف.

كان ما باليد أبيض من كل قمح أو حَبّ آخر رآه العربي في حياته. وتمتم العربي مستطلعاً.

ـ رز ؟ ملح.

واكتفى المذكوري بأن قال لصاحبه :

ـ ذق.. ذق تعرف.

وتناول العربي برؤوس الأصابع شيئا شمَّه. لا ريح له، ووضعه على لسانه مُتَهيِّباً لتنفرج عيناه عن عجب :

ـ شْششت !

وأكد المذكوري أن هذا هو عمل الرجال الحق... إن كان للرجل أبناء قادرون، وإن كان له قلب من حديد، فهذا هو العمل. وأحس العربي كأن الرجل يقدِّم إليه عرضاً ويطلب جواباً فتمتم :

ـ عندي ولد صغير وبنت.

ورد المذكوري بقوة واشمئزاز.

ـ خلِّنا من الصغار والبنات.

كان العربي ما يزال ذاهلا لما بهره من الثروة التي يتوفر عليها الرجل بأكياس السكر الرابضة في المغارة، وتابع ما يحدثه به المذكوري بأنفاس متقطعة.. إن كنت رجلا فهذا عمل الرجال لمن يقدر عليه :

يتربص واحد قرب محطة قطار البضائع في ليلة مظلمة ويختبيء بينها إذا تيسر له ذلك في غفلة من الحراس، أو يستكين تحت العربات على محور ثابت قرب عجلات القطار، حين وقوفه إن كان جريئاً... وعند نقطة معينة يكون المتربص قد أخذ مكانه المناسب، ليعمل مخطافه في الظلمة، يرمي به ما استطاع من أكياس لغيره ممن ينتظرون متربصين على الأرض عند مرور القطار في النقطة المعلومة ؛ ويعود راكب القطار إلى مكانه منتظراً فرصة تخفيفه من سرعته قرب المحطة القادمة ليقفز بنفسه. أطفأ المذكوري مصباحه وخرجا إلى النور، وحديث الرجل

ودهشة العربي لا تنقطع. وتغْلِب نغمة نُصح محبَّبة، على صوت المذكوري :

- صعب عليك هذا، شف لك غيره.

كان واضحاً أن العربي مقتنع بهذا الرأي، وعليه فقط أن ينسى ما رأى. عادا إلى مجلسهما بجانب الفتيين، وتناول العربي بدوره سكيناً بينهم، وبدأ يساهم معهم في العمل... وتتابعتْ قضية المذكوري في سمع العربي أمام المحاكم والقضاة. إنه قادر بقوة الرجال، وبدافع الكرامة أن يوفر المال اللازم لقضيته ويؤكد للعربي :

- كن ذئباً، وإلا توزعك الذئاب.

والمذكوري ذئب أصيل بكامل المعنَى.. والمحامون جميعهم محتالون أو أكثرهم، والشواش سماسرة، والترجمان الذي يقف بينك وبين القاضي في المحكمة يخدم مصالح خصمك النصراني قبل أن يخدمك أو يخدم العدالة. فهو يحذف من كلامك رغم ما تدفع له من رشوة. وعلى المرء أن يكون حازماً حتى يعثر على محامٍ حقيقي، فإذا قدر له أن يعثر عليه فليكن فطناً حتى لا ينقلب عليه، ضده. عرفهم المذكوري جميعاً وابْتُلي بهم، وقد وقع مرة في يد سمسار خبيث، تقدّم إليه على أنه محام، وعندما عرف المذكوري حقيقته كان قد ابْتزَّ منه الكثير. فأوشك أن يخمد أنفاسه، لولا أنْ قبِل الخبيث أن يردَّ بعض ما أخذ. وبعد محاولات عديدة توصّل المذكوري إلى طريقة سليمة للاتصال بالمحامي الحقيقي.

كان العربي يستمع غائم الوجه في خضم هذه الأحداث الشائكة المتشابكة : أين يضع المرء قدمه في وسط لَزِج كهذا ؟ وتنهد كالمستفسر عندما حدّثه المذكوري عن طريقته :

- يعني ؟

- يعني في المحكمة بالذات، في الجلسة تلْقى المحامي.

كل وسيلة غير هذه، حسب المذكوري كانت تُلْقي بك في شِباك السماسرة والمتلاعبين. ولكي تفلت، عليك أن تضع فرنكات في يد

المخزني الواقف عند باب قاعة المحكمة، ليسمح لك بالدخول. وعليك أثناء ذلك أن تكون قد تظاهرتَ بأنْ لا ناقةَ لك ولا جمل... وأنك لا تبحث عن شيء بل مجرد فضولي مستطلع، حتى لا يطمع فيك محتال. وعندما تبتديء الجلسة سترى المحامين الحقيقيين يدافعون، وعليك أن تختار حسب حدْسِك.

وردد المذكوري في فكاهة ظاهرة.

- في الجلسة تختار المحامي كما تختار الثور في السوق.

وتساءل العربي :

- وأنت هكذا لقيته ؟

- ايه، لقيته واعجبني... واحد نصراني ونجح في القضية.

- نجح ؟ حكموا لك ؟

- حكموا لي بالأرض وبالتعويض من النصراني المعمر عن مدة الاستغلال وحكموا لي حتى بمصاريف الدعوة.

يالله. كأن العربي يحلم، ولكنها الحقيقة الصارخة، لطالما سمع شيئاً مثل هذا عن رجال حكمتْ لهم المحكمة، بكامل حقوقهم، عدالة لا يصدقها السامع بسهولة. قضاة مستعمِرون يحكمون على إخوان لهم مُستعمرين من بني جِلدتهم وجنسهم ! لكنه لم يصدق من قبْلُ مثل هذه الحكايات، وان كان تصديقه لها هو أمله الوحيد. كان من قبْلُ يسمَع عمن سمِع وهو الآن أمام من عاش الأحداث وحُكم له. إنه أمامه من لحم ودم ينطق بالحقيقة، ويؤكد مفارقة العدالة بين الحاضرة والبادية ؛ هناك يخرجونك من أرضك، وهنا يحكمون لك. ومهما تكن المفارقات فالمهم أن تعود لأرضك. ويقول المذكوري.

- حكموا لي في المرة الأولى... واستأنف النصراني وفي الاستئناف...

- حكموا له ؟

إنْ لم يكن الأمر كذلك فما معنى استمرار حال المذكوري على نحو ما

هو عليه ؟ وأكد المذكوري :

- لا. حكموا لي في المرة الثانية.. حتى هي ونهائياً. وتحولتْ استفهامات العربي إلى استنكار.

- حكموا لك نهائيا وقاعد هنا.

ولم يتم العربي وهو يتجول ببصره في الجو النتن حوله. ورد المذكوري في تُؤدَة العارف بالأمور :

- حكموا لي، لكن التنفيذ باقي.

- التنفيذ ؟

لغز آخر كيف يفهمه المبتدئ في هذه الأمور ؟ وحرك المذكوري رأسه كالمتحسر وقال :

- المحامي ولد الحرام... نوصيك تكون على بال منهم... كلهم أولاد الحرام.

دوامة لا نهاية لها، والعربي تائه في خضمها. مرة أخرى ينقلب المحامي الحقيقي أيضاً إلى متلاعب، أو هذا ما يقوله المذكوري، وهو متأكد من تلاعب كبير في سلطة التنفيذ، بإيعاز من المحامي وبتلكُّئه. فلقدْ بدأ يطلب مبالغَ ماليةً إضافية لم يكن المذكوري ليُحجم عن دفعها لو لم يتأكد من أن المحامي له اتصال بخصمه، وأنهما يتساومان وراء ظهره، ولذلك عمد المذكوري إلى مواجهة الخصمين معاً، وطلب الوثائق من محاميه معرباً عن كل ما يعرف من اتصالاته بخصمه، وهنا بدأت معركة أخرى يعيشها المذكوري...

- أقمتَ دعوى على المحامي حتى هو ؟

ورد المذكوري ببرود :

- وماله ؟ المحامي يأكلني وأنا نشوف ؟!

كله أمل، قوة أمل ضاعف تيارها شعوره بملاك العدالة يطوف حول آلامه، ينْثُرُ بلْسَماً فوق جراحه : ألم يحكم له مرة ومرة ؟ لم إذن لا يحكم

مرة أخرى ضد تلاعب محاميه ؟ وما بقي لا يساوي معشار ما أنجز. وسيعود إلى أرضه يوماً ما وقريباً جداً، لتغوص قدماه من جديد في الوحل الزكي ويتجرع الأنذال كأس الهزيمة...

- كلهم جزاؤهم الموت.

وعيدُه مازال يهدِر، أي موت للأنذال أقسى من أن ينقلبوا خماسين ورعاة، مأجورين بنسائهم وأطفالهم للنصراني مغتصب الأرض... وأي موت ينتظرهم عندما يعود المذكوري بعد جهاد أكثر من عقد من السنوات بأبنائه وأحفاده، بعزيمته وحقده، وهو الذي تنبأ له الأنذال بمستقبل حالك تنتهي به حياته محروقاً مصهوراً في مِرجل بمعامل السكر أو الإسمنت ؟ لقد رفض ذلك المستقبل وثار وقام بعمل الرجال، وسيخلدها أسطورة حية.

جاوز النهار منتصفه والعربي ذاهب شارد فيما يرى وما يسمع، يبدو له الطريق طويلا شاقاً، ولم يتخذ فيه بعدُ وجهته. والمذكوري مثال فريد من الحق أن يعترف العربي بأنه قد عجز عن مُجاراته، ولكنه يستلهم منه الكثير، الجلَدَ والصبر وعزيمة الفولاذ، ضد كل إغراء يُنسي، وضد كل وضعية ثابتة قارة في المدينة. ولابد أن تتوفر قضية العربي على خصوصية ما، تجعلها أقصر مدى وأقل تشعباً من قضية المذكوري. ويؤكد المذكوري أن سنوات العذاب والكفاح الطوال تبدو له الآن مجرد برهة وجيزة. إن لحظة قصيرة من لحظات عمرك عندما تسمع الحكم لصالحك تنسيك السنوات. وبرهة أقصر من ذلك من لحظات العودة إلى الأرض عندما تتم ولو في آخر العمر، تذهب بكل مرارة العذاب وسنواته.

فقط، يجب أن تتحقق تلك اللحظة قبل الممات. وكرر المذكوري وصيته :

- شُد على فلوسك بأسنانك، وإياك وإياك من أولاد الحرام في كل موضع !

ابن العم أيضاً كرر عليه هذا مراراً، لكن وصاياه كانت تصل إلى العربي باردة. أما وصية هذا، فجمْر مُحرق يستقر في الأعماق.

سلّم العربي مودعاً، فقام المذكوري يسايره في المُنْبسط الصخري، وكأنه يسير معه إلى باب الدار في ملكية غُفل، لا باب لها ولا معالم، حتى إذا وقفا على الحافة الصخرية التي يجب أن يرقاها العربي عائداً، شدّ المذكوري على يده بحرارة وقوة ؛ انفتلت لها عضلات ذراعه المتين.

ـ تبقَى على خير.

ـ الله ييسر لنا وييسر لك.

ـ تحزَّمْ، وكن على بال، والله يعاونك.

ولم يلتفت العربي إلى صورته المنعكسة على السائل الداكن الدسم، وهو يتجاوز القناة المهشمة عائداً إلى مسكن ابن عمه، ولا إلى ظل المدخنة الشاهقة الذي تقلص، وإنما كان يطأ الأرض مطأطئاً، كأنه يسمع رجْعَ الصدى من خطواته، كان المذكوري مايزال يسايره ويحادثه مسيطراً على الموقف، كأنه يقول له وهو ينصت :

ـ هذه الأرض غريبة عنا ونحن عنها غرباء، إنها ترفضنا بقوة. تردُّ صدى خطواتنا ولا تتجرعه إلى أعمق أعماقها كأرضنا.

ـ صفية، نعستِ ؟

ـ أنا ؟ لا... هذا المذكوري ولي صالح بلاشك.

لم يعلق العربي على كلامها. فقد أضحى المذكوري ملء قلبه وإحساسه وكلما لقي شخصاً أو وقف موقفاً أو خطرت له فكرة تساءل في سره : لو كان المذكوري مكاني ماذا يقول أو يفعل ؟ وقد ردّد الليلة مراراً أثناء سهرة الأهل عنده، بينه وبين نفسه : أيهم أقرب إلى شخصية المذكوري وأكثر شبهاً به ؟ كبور ؟ ذاك ينصهر بين فرن ومرجل، ولعله افتقد نهائياً كل حنين إلى الأرض. سعيد ؟ وماذا يمكن أن يربط سعيداً بالمذكوري : أناقة اللباس أم الاعتداد الفارغ أم غموض في السيرة لا يمت بشيء إلى صراحة المذكوري وصفاء ضميره ؟ من إذن ؟ علي ؟ عباس ؟ المزابي ؟ كلهم تعتصرهم المعامل ويستسلمون إلى العربدة والدندنة. أيكون إذن هو العربي الحمدوني أقربهم إلى المذكوري ؟ ذاك ما لا يجرؤ

على الإقرار به. ولئن كان على ثقة من الطريق الذي سيسلكه، فهو على ثقة أقل ؛ من أنه سينال ما نال المذكوري أو ينجح في الاحتمال مثل نجاحه، كل ما يرجو أن يظل هذا الصوت ملء أعماقه، يثبته ويُذكي من عزمه.

وبدأت شقوق الألواح تشي بخيوط الضوء خارجها ؛ وظلام الليل ما يزال حالكاً كثيفاً داخل البراكة. وما أطوله من ليل.

* * *

لو انعكست صورة الأرض على صفحة السماء، لبدتْ المدينة في الصباح الباكر، بأطرافها المتنائية وما يفصلها من مسافات، شبيهةً بمستوطنات نمل مبعثرة يدب بينها في خطوط متراصة، هذا الكائن الدؤوب ناقلا محتويات بعضها إلى بعض... وما تنقضي ساعات معدودة من إشراق الشمس، حتى تنمحي الصفوف المتراصة من السالكين كل فج، لِتظهر بين الحين والحين أشباح منفردة من أشخاص أو عربات نقل، تعبر المسالك بين أطراف المدينة على مَهل، وفي فترات زمانية متباعدة كأنها مُخلَّفات معطوبة من جيش مرتحِل... في هذا الوقت، تكون فورة الحياة قد غادرت السبُل والمسالك، لتستقر داخل المراكز الرئيسية في هذا الكيان الأجوف الهائل لمدينة مفككة، في قلب المعامل وأسواق المدينة الحديثة والأهلية.

وسوق القريعة، أحد تلك المراكز الرئيسية. واليوم، من تلك الأيام التي تبلغ حركة السوق وزحامه أشده. لم يكن الوقت عصراً بعد، ولكن بعض المستعجلين أو المحظوظين الذين قضوا مبتغاهم من السوق، قد أخذوا ينفلتون حيناً بعد حين إلى كل وجهة في فتور... وتبدَّى الشريان الرئيسي الملتوي الذي يربط درب السلطان في المدينة الأهلية الحديثة، بالمدينة القديمة أقصى الغرب بمحاذاة البحر، خالياً من السالكين ؛ حتى أكبر شريان وهو المتمثل في طريق مديونة بدا هادئاً، لا يعكر صفوه إلا عربة أو سيارة نقل أو شحن تمر بين الآونة والأخرى مثيرة حولها غباراً، وماء راكداً، وضجيجاً لا يلبث أن يهدأ. وبموازاة هذا الطريق على مبعدة مئات

معدودة من الأمتار، يبدو مسلك منعرج للراجلين من السالكين، كأنه جدول ماء يتسرب بين الصخور والأعشاب، يسلكه الراغبون في اختصار الطريق... لكنه كان يبدو خالياً إلا من شبح أطلَّ عند مشارف هضبة القصر السلطاني، وقد بدا الشبح مجلْبَباً مُطرْبشاً، مثْقلاً بسلة كبيرة في يده، لا يتردد من يقترب منه، في أن يتعرف فيه على تاجر من تجار المدينة القديمة قد قضى مبتغاه من السوق، وهو عائد من حيث أتى. ولعل هذا التاجر أصبح في منتصف الطريق عندما بدا خلفه وعلى مقربة منه، شبح يسير وكأنه يركضِ، في عنف لاشك معه في أن وقع خطواته الثقيلة المُجهدة، وحركةُ نفسه القوية قد ملأت سمْع التاجر وهو يتجاوزه. ولو اعتنى التاجر بمراقبة هذا الراكض وهو يتجاوزه، ويوليه ظهره لتبين فيه قصراً وصلعاً صافياً لا تنجح طاقية صغيرة متسخة في إخفائه، ولتبينَ صدريته الضيقة عن هيكل ممتلىء، وسرواله البلدي ينحسر عن ساقين قويتين، وقدمين صغيرتين، في نعل من القماش الخفيف... تجاوز الراكض التاجر في عنف، وعلى مائة متر أو أكثر قليلا، بدا أن نعله ينفلت عن إحدى قدميه لعنف الخطو، فانحنى يعيد وضعه، ثم أخذ طريقه على نحو ما كان عليه لا يلوي على شيء. لكن انحناءه وقيامه، أسقط شيئاً من صدره، شيئاً لم يتبيَّنْه التاجر على هذا البعد ولعله لم يهتم به، ولكن الفضول دفعه إلى بعض الإسراع ليتحقق من ذلك. كانت حافظة نقود تطلُّ منها أوراق مائة ريال بألوان وردية زاهية لا تخطئها العين، وفي لحظة الدهشة وهو لم يفتح بعد الحافظة، بل لم يلتفت بعْدُ ليتحقق من وحدته، تناهى إليه من خلفه خطوات ركْض وهمس.

ـ شْشْت.

والتفت وراءه مذعوراً... شخص كأنما انفتحت عليه الأرض، واضعاً أصبعه على فمه يأمر بالتريث والصمت :

ـ اسكت... شد واسكت.

كان يقترب من التاجر مؤكداً أمره أو نصيحته له، وظهر وجهه النحيف وأنفه الدقيق المعقوف كمنقار نسر، بيد أن ملامحه تبعث على

الثقة به، ونظافته تَشي بيسر حال : عمامة بيضاء على الرأس، وبلغة صفراء في القدمين، وجلابته وحدها كانت تبدو جدّ فضفاضة لا تناسب كيانه الهزيل... ابتسم الرجل للتاجر المذعور، وقال مشيراً إلى الحافظة في يد التاجر.

ـ هذا رزقنا، كتبه لنا الله.. اسكت.

وقبل أن يفيق التاجر من حيرته، كان صاحبه الذي هو فقيه كُتاب كما قدَّم نفسه، يندفع بلسان السخط والشتيمة على ذلك الراكض وأمثاله من اللصوص. إذ لاشك أن ذلك الراكض الملهوف لص سرق الحافظة من غيره، وأبى الله إلا أن يفقدها بدوره، ومن الظلم أن تعاد إليه الحافظة. وكأنما خطر للتاجر أن يتساءل عن الموقف برُمَّته، أو كأنه فكر بأن الحافظة من نصيبه وحده، إن كان لابد من حيازة ما فيها، وكأنما قرأ صاحبه أفكاره فقال للتاجر :

ـ بلا طمع.. أنت لقيت، وأنا حضرت ونظرت... نص... نص... أو... اعطني الثلث وخذ الباقي.

ودون أن يجيب التاجر، وإن أظهرت هيئته أنه يفكر ويوازن بين القبول والمساومة، تناول صاحبه الفقيه الحافظة وأفرغ ما فيها، وعدَّه : قرابة الاربعمائة ريال ورقاً، ناولها للتاجر بأرْيحية ظاهرة، بينما عمل هو في الحافظة الفارغة تمزيقاً، ثم خطا بعيداً عن الطريق، وتوغَّل قليلا في الحشائش والاشواك، ورمى بالقطع الجلدية الممزقة، وعاد إلى صاحبه التاجر، ينفض يديه وكأنه ينكر جريمته أمام محقق :

ـ ما سمعنا ما شفنا...

وبدا التاجر يفيق من ذهوله ويعي الموقف، فابتسم وهو يؤكد موقف صاحبه بحركة مقلَّدة.

ـ حتى أنا كذلك، ما سمعنا ما رأينا...

قال ذلك وهو يناول الفقيه نص الحاصل. وعمَّهما الرضى لأول مرة، فبدآ يتعارفان ويضعان خطة لتغيير طريقهما إلى المدينة القديمة، حتى لا

يثيرا شكوك أحد. وقرَّ رأيهما على الافتراق حين صاح الفقيه في هلع :

ـ ها هو راجع.

ونظر التاجر إلى حيث أشار صاحبه، فإذا بصاحب الحافظة عائد في طريقه، ولكنه لا يركض هذه المرة، بل يسير بتأنّ ومهَل، وعيناه تتفحصان الأرض بحثاً عن شيء، وفي لمح البصر، وضع الفقيه كومة نصيبه في يد التاجر وهو يقول.

ـ خلِّ كلّ شيء عندك.

وتابع إفراغ جيوبه، من كل ما بها من أوراق وقطع معدنية نقدية، وضعها أيضاً في يد التاجر بعد أن عدَّها بسرعة :

ـ حتى هذي خلِّها عندك... ثمانين ريال... اجمع كل شيء. وبدا التاجر غير مستوعب للموقف السريع. ولكن الفقيه كان ذا مبادرات وسرعة في العمل والتفكير. وكانت خطته أن يعرض نفسه على صاحب الحافظة ليفتشه، فلا يجد عنده شيئاً.. ولكنه قد يفتش التاجر.. آه معضلة.. وهنا بادر الفقيه بسرعة البرق ينجد التاجر المتبلِّد.

أخرجْ فلوسك حتى هي.. احسبْها واجمع كل شيء في رزمة واعملْها.. اعملْها.. في.. تحت حجرة أو..

وأشار بأصبعه نحو حجرة ناتئة على بُعْد بين الحشائش. لم يكن ثَمَّ مجال للنقاش أو الشرح، والشخص العائد يقترب رويداً رويداً، وعيناه مثبتتان دائماً على الأرض. وكأنما بدت حركة التاجر بطيئة. فساعده الفقيه على إفراغ ما في شكارته، واتجه التاجر بالكل إلى حيث أشار صاحبه، بينما كان الفقيه قد تجنبَ الطريق قليلا واستقبل القبلة، وقبل أن يستغرق في الصلاة همس لصاحبه بنصيحة أخيرة :

ـ ثبّتْ راسك.. واسكت.

وقعد التاجر قرب سلته، كأنه ينتظر فراغ صاحبه من الصلاة.. وبدا كل شيء منسجماً، والخطة سليمة. وتوقف صاحب الحافظة على مقربة من التاجر مسلماً بصوت غليظ مخيف. ردّ عليه التاجر باقتضاب مغالباً

ما اعتراه من رعب وارتعاش.. ولعلّه تمنى لو يقلع الفقيه عن صلاته ليشاركه الموقف، ويزيل عنه بعض ما يعاني من ملامح الواقف الغريب : وجه مستطيل قوي العظام يزينه نَدْب قديم لا ينبىء عن طبع مسالم. ولم يفد الإنكار الأوَّلي الغامض من جانب التاجر :

ـ والله العظيم ما شفنا ولا سمعنا. ابحث على راسك. يمكن تلقاها القدام. ويؤكد الغريب المرعب :

ـ قلت لك هنا ضاعت.. والطريق خاوية ما فيها غيركم.

ويرد التاجر في لهجة من يود إنهاء الموقف :

ـ الله اعلم.

لكن صاحب الحافظة لم يقتنع، وظل جامداً أمام التاجر مُلحاً في سؤاله بصوته الخشن المتوعد. وأحس التاجر بحَرج الموقف، ولم يستطع أن ينظر إلى عيني صاحبه رغم جهوده في هذا السبيل، وأدرك أن هذه علامة لا تُحمد عقباها، وأحس بكيانه يوشك أن يتهاوى... حين أنقذ الفقيه الموقف، وهو يقبل عليهما متمتماً بدعواته... وحين تظاهر بأنه استوعب كل شيء أكد ما قاله التاجر قبله، مدعماً ذلك بالأيْمان المُغلَّظة :

ـ ياسيدي حرام عليك تقول هذا الكلام، وتشك فينا. الطريق طويلة وعامرة بالناس.. ورزق الحلال لابد يرجع لمولاه.

كان يتحدثُ بثقة وعزم، وهو يحدق تحديقاً قوياً في وجه خصْمه، على نحو جعل الثقةَ تنبعث في كيان التاجر أيضاً فقام يؤكد ما قال صاحبه :

ـ أنا وصاحبي طلبة.. ما عندنا حتى فلس.

وتضاعفت ثقة الفقيه، وهو يعرض على خصمهما أن يفتشهما، إن كان ما يزال في شك بعدما سمع. فهما مجرد فقيهين يقرآن القرآن على القبور ويعيشان على الإحسان... وأجال الخصم نظرة بينهما فلم يتبين بارقة أمل، حتى ضعْف التاجر الذي أنعشه في البداية، تحول الآن إلى مجابهة قوية وإصرار.. ومع ذلك فقد قبل الرجل أن يفتشهما على أمل أن يتراجعا، أو يعثر على شيء، ولعله ما كان يتردد في أن يسلبهما بالقوة ما

قد يعثر عليه عندهما عدا ما يبحث عنه، ولعله يعثر على حافظته في بقية الطريق مادام غيرهما لم يسلكه إلى الآن. وفتشهما بدقة كبيرة دون جدوى، ثم نظر إلى السلة نظرة ذات معنى، فدفع التاجر بها إليه قائلا :

ـ كلها تَمْر.

وحرك الخصم يديه في كل الجهات دون أن ينبىء التمر بشيء، ثم فحصها من جوانبها ومن قاعها دون جدوى.

وكأنما احتمل الفقيه من الإهانة أكثر مما ينبغي، فثار في وجه الغريب :

ـ صافي ؟ قنعت.. ويا الله، سر في حالك.

لكن الرجل لم يتزحزحْ ؛ وظل صامتاً في لوعة ظاهرة، ثم نظر ملياً في وجه الفقيه، كأنما أدرك من حركاته وقوة مجابهته ما يثير فيه شكوكه من جديد، وقال بقوة :

ـ أنت، لابد... تحلف لي.

واستنكر الفقيه ؛ كأنه لم يحلف عدة مرات منذ بداية الموقف :

ـ نحلف ؟

ـ ايه... لابد تحلف لي في الجامع والمصحف.

وتجمد الفقيه بعض الشيء، كأنه يتأمل صعوبة العرض، ثم نظر إلى صاحبه التاجر، وغمزه بما له معنى، وهو يعلن موافقته على عرض الخصم.

ـ قبلت... يا الله.. نحلف لك.

والتفت إلى صاحبه التاجر يشير عليه أن ينتظره حتى يعود بعد قليل. ثم ثار في وجه الغريب بقوة.

ـ سرْ قدامي.

وقبل أن يخطو وراءه، عرَّج بحركة سريعة نحو مخبإ المال يتفقده،

وهو ينظر إلى التاجر نظرة معنى لا تخلو من انتصار مشيراً عليه بأن يلتزم الصمت ؛ ولا يحدث أحداً، ثم سار وراء خصمه يكاد يعدو. وظلت عين التاجر ترقبهما حتى غابا وراء الهضبة. ولو تابعهما وهما يسيران بجانب سور القصر بعد ذلك عند مشارف درب السلطان، لرآهما يقتربان من بعضهما، ويضع كل منهما يده على كتف صاحبه مقهقهَيْن بقوة، وسعيد يخاطب صاحبه :

- اعطني حوائجي يا الله.

ونضا موسى الجلابة والعمامة والبلغة لسعيد الذي عاد إلى مظهره القوي الأنيق، بينما ظهر موسى كأحد أتباعه، بعد أن عاد إلى صدريته وطاقيته المتسخة، والنعل القماشي الخفيف. ونظر موسى إلى صلعة سعيد الذي أعاد العمامة الملوية عليها إلى الوراء وخاطبه قائلا :

- راس بن راس هذا عندك.

كان يقصد إظهار إعجابه بعبقرية سعيد، التي تفتقت عن هذه الحيلة البارعة للإيقاع بالتاجر، واهتز كيان سعيد للإطراء فأتى بحركة لا ضرورة لها، لتعديل عمامته من جديد ورد :

- قلتها لك. الحيلة أحسن من القوة.. الحيلة هي كل شيء.

وأمَّن موسى على كلام صاحبه، ولعله تخيلَ في تلك اللحظة حال التاجر المنتظر، والساعات تمضي به، وبصره متطلع نحو أعلى الهضبة يترقب عودة الفقيه. حتى إذا يئس أو ملَّ قبَيل الغروب، تملكته فكرة ظلت تراوده منذ انفراده وهو يغالبها، فإذا هو يتجه صوب مخبإ المال. فلا يجد إلا التراب...

وعلق موسى على هذه التصورات بتأوه مُصطنع :

- مسكين.. ضيّع الربح وراس المال.

لم يعبأ سعيد بالرد عليه، وتابعا طريقهما عائديْن إلى سوق القريعة.

* * *

يقع سوق القريعة في أقصَى شرق درب السلطان، بعد نهاية أبنية آخر حي أهلي. حيث تنتأ هضبه صخرية ما تلبث أن تنحدر شيئاً فشيئاً، متحولة إلى سهول فلاحية خصبة فسيحة، تمتد وراءها. على هذه الهضبة بالذات يقوم السوق العتيد، في حركة مستمرة من مطلع كل صباح إلى الغروب، تتراص فيه الحوانيت الخشبية والخيام من كل حجم ولون على مدى الرؤية، وينتشر صغار الباعة والوافدون والمحترفون على مساحة شاسعة على جوانبه، وتتداخل فيه أصوات السقائين وبائعي المأكولات والمشروبات، من الفول المسلوق إلى الرؤوس والخرفان المشوية في المطاعم المتنقلة والثابتة، موسم دائم لكل شيء وكل لون تتضخم حركته لتبلغ أقصى مداها أياما معينة متفرقة في الأسبوع، ولكن الحركة في سائر الأيام لا تنعدم فيه، وإن كانت تفتُر نسبياً. وكما قال سعيد يوماً عن سوق القريعة إنك تعثر فيه على الإبرة معروضة بجانب الجمل. ولا يزيد لهيب الشمس منتصف النهار إلا في إذكاء حرارته التي لا تفتر إلا قبيْل المغرب حيث يلحظ المرء أسراباً وأفراداً من الناس ينسلّون من جوانبه في كل اتجاه، لتسكن الحركة والضجّة مع بداية الظلام في السوق، بينما تكون حمولة يومه من البشر والبضاعة قد توزعت ككلّ مساء، ترفُد الشرايين المُوصلة بين قطاعات المدينة المتنافرة، بأعداد تضاف إلى ما تلفظه المعامل والميناء من خلائقَ في مثل هذا الوقت، تدب رائحة في نشاط النمل ليهمد كل شيء مع استقرار الظلام، وليعيد هذا الكون دورتَه كلَّ صباح ومساء.

وإذا كانت القريعة معرضاً لكل شيء، فهي أيضاً مرتع خصب لكل نشاط، لذلك تتجاور في رحابه التجارةُ والشعوذة والتسول والنصب والاحتيال... وكما يعتقد سعيد وأمثاله، فإن المدينة ما خلقتْ لِلَّبيب ظرْفاً صالحاً للاسترزاق أنسب من هذا الخليط المزدحم، وما عليه إلا أن يدور دورة أو دورتين، ويختار زبوناً صالحاً، يرعاه فترة كافية بالعين التي لا تغفل، حتى إذا تأكد من امتلاء يده أو حافظته، خلق الفرصة أو انتهزها ليُرسل أناملَ لطافاً لا وزن لها ولا سمْك. تتسربُ إلى جنبات الزبون، وتُفرغه مما يحتويه في خفة النسيم. بيد أن الربح لا يكون صافياً على كل

حال لسعيد وأمثاله، فالأعوان السرّيون للشرطة منبثون في كل جانب، ولا يرضون بغير النصيب الأوفر مما يتم من عمليات تحت ضمانتهم. وكثير منهم يطالب بمبلغ معين عن كل يوم يقضيه النشال والمحتال في السوق... ويدرك بعض الحاذقين من المحترفين أن الزحام سيف ذو حدين، لأنه إذا كان يُيَسِّر عملية الاحتكاك وهي مرحلة أساسية، فإنه يعوق الحركة، إذا ما حدثتْ هفوة، ورغب المرء في الفرار، فتَتشابكُ حوله الأيدي والأرجل ليسقط بعد لحظة وجيزة يذكي نشاطها، صراخ الضحية المستمر :

ـ واك... واك... آعباد الله... شدوه..

ومن ثم يتعين العمل في فرق وعصابات، يرأسها الموهوبون أمثال سعيد... لتتدخل في اللحظة المناسبة، عندما يعلو صوت الضحية بالاستغاثة، فتساهم في خلق البلبلة وإخفاء صاحبها. وَكثيراً ما يتمسكون أثناء ذلك بضحية بريء عمداً، يفرغون جيوبه من محتوياتها، وهم يضربون ويتنادون عن اللص المزعوم (ولد الحرام)... وقد يُبين الضحية عن احتراس كثير، فلا ينفع الضرب والصياح في إفراغ جيوبه، وعندئذ يأتي دور الأعوان السريين، الذين يقودونه رسمياً، ويفرغون جيوبه باسم القانون. وقد لا يكفيه ذلك كفدية من تهمة اللصوصية.

... ولم تكن فرق المحتالين تعمل على خلق الجو المناسب داخل السوق فحسب، بل فيما حوله وما يؤدي إليه من مسالك. وهنا كان كثير من النشالين واللصوص يفضلون العمل حيناً بعد آخر، تجنباً لإشراك الغير في المحصول، وسعياً وراء ربح خالص. وكثيراً ما أوقعت هذه المسالك الوافدين من رجال البادية والتجار المنتقلين وسواهم، في قبضة المتربصين.

* * *

متوسلةٌ ومجدوبة ومحسنة وخياطة وأرملة، وخير وسيط في كل شيء، وأنكر شئ في الزقاق... بذلك كانت عائشة العرجاء نقطة لامعة في

الحي، ولعلها كانت اليوم في فترة من فترات راحتها، أو أنها خَلقتْ لنفسها فترة الراحة هذه، كما تخلقها لنفسها في العادة عندما يكون لها شاغل عن التسول، وما يفترض أنه يستحق أن يكون شاغلا. لعلها وجدت في الأسرة الوافدة الجديدة انغلاقاً، لم يُيسر لها مهمَّتها للتعرف والتدخل، لذا بدأت خطتها اليوم مركزة في أن تهجم هجوماً، لتضع نفسها في قلب هذه الأسرة. وما أن سمعت نداء (الماء الحلو) من أول سقاء يتوقف عند طلب صفية بنت سويعد، حتى فتحت العرجاء بابها وإذا هي تواجه جارتها المقابلة محيية :

- صباح الخير... ياوجه الربح...

ولم تنتظر الرد، كأنها كانت تقدر أن صوت الجارة لن يرتفع كصوتها، ليقطع إليها عرض الزقاق. كانت بدون شك على خبرة بطبائع الناس، ومثل هذه الوافدة البدوية، لن تتخلص من شعور بالنقص والخجل قبل فترة مديدة من إقامتها بالمدينة، ومن طول المعاشرة. قدرتْ ذلك وأقبلتْ تنط وكأنها غادة يقفز بها طيش المرح، حتى إذا وقفت على رأس السقَّاء، وهو يُنزِل من أعلى كتفيه برميلا صفيحياً من قرابة العشرين لتراً يضعه على (كَتْفِيَة) فوق قطعة ثخينة من الخيش، تحول بين عظام ترقوته وبين البرميل، وتخفف عنها بعض تأثيره. سألْته في لهجة الخبير :

- ماء السقاية هذا عندك، أو ماء البير ؟

نظر إليها نظرة استنكار وإن بدا أنه مستأنس بوجودها :

- من السقاية يا للا عيشة... صافي ؟

بيد أنها لم تتابع بقية حديثه، بل انحنت على البرميل تزيل سدَّادته، وترمي من ثقْب فوهته الضيق، نظرة حادة إلى أعماقه متفحصة نوع الماء ثم أعادت السدادة وهي تنظر إلى صفية مطمئنة :

- عنده الحق... أولاد الحرام كثار.

وكأنما انتعش السقّاء بالتبرئة، فرفع البرميل حذْو ركبتيه ودخل به تتقدمه صفية تجاه الخابية في ركنها المعهود في الصحن، ووراءهما

عائشة في حديث مسترسل عن ضرورة الاحتياط من أولاد الحرام في كل شيء، حتى في اقتناء الماء، فباعة الماء كثيراً ما يضيقون بطول الصّف في الساقية، وانتظار نوبتهم، وهكذا يفضلون في الغالب أن يقفزوا خارج الحي، ليملأوا من البئر المحاط بالغبار والأزبال، والذي ترقد في أعماقه جيف القطط يرميها الأطفال في قعره على الدوام.

ـ أولاد الحرام... كلهم حرام.. لا دنيا ولا دين عندهم.

ويؤكد السقّاء كلامها، وقد أراح البرميل على حافة الخابية والماء ينصبُّ من فوهته :

ـ الله يطعمنا من الحلال.

وتستمر العرجاء في ذكْر ما يخالط ماء البئر من قذارات وكأنها تقدم لجارتها نصيحة عملية لاختيار الماء النقي.

ـ ماء السقاية عمره ما يخنز، أما الآخر، من نهاره ريحته تعطي...

وظهرت على صفية علامات امتنان لموقف الجارة، حتى إذا مدّت للسقاء يدها بثمن الماء، تناولته منها عائشة، ونقصت منه قرشاً، ومدَّت الباقي للسقاء بلسان وصوت رادعيْن :

ـ خذ آمحمد واقنعْ، جيراني ما معهم حساب.

ـ الله يخلف.

وما ان بقيتْ المرأتان بمُفردهما حتى ردّت عائشة القرش لجارتها مع سيْل من النصائح في ضرورة حفظ الماء وتدبير القروش. هكذا فرضت العرجاء نفسَها في مقام الأم أو الأخت الكبرى لجارتها، ولم يكن بدّ من أن تدعوها صفية لتناوِل شاي الصباح، فاستجابتْ للدعوة بابتهاج، وهكذا دخلت إحدى البراكتيْن وراء صفية، فارتمتْ دون تردد بالعناق على امرأة كانت هناك، وكأنها تعرفها منذ زمان، حتى إذا انتهت من سلامها قالت صفية وكأنها تقدم المرأة لجارتها :

ـ هذي الغالية بنت عمي وامرأة ولد عمي.

كانت عبارة العمومة هنا فضفاضة تعني كل قرابة غير محدّدة، كما تعني الاعتزاز بصاحبتها. وردت عائشة مقدِّمة نفسها :

ـ تبارك الله.. تبارك الله.. أنا أمهم.

قالت ذلك وهي تقوم إلى الركن، تأخذ إليها الطفل الصغير وتحتضنه في حجرها، تقبِّله وتشمّه وتنادي أخته :

ـ تعالي يابْنتي، تعالي عند أمك عيشة.

واستغرقت صفية خلال ذلك في تهيء الشاي، حتى إذا عادت بأدواته وجلستْ إلى المرأتين، وجدت الحديث بينهما يدور بعفوية غريبة وإسهاب، يرتفع بينهما ضحكاً عالياً، وأحيانا يخْفُت ويغدو تهامساً، كما لو كان يجالسهما غريب أو رجل... وقالت الغالية وكأنها تستخلص العِبْرة مما مرّ من الحديث :

ـ الرجال يا اختي ما فيهم خير...

وتمدُّ عائشة عنقها المعروق وتديره يمنة ويسرة، حركة العليم الخبير وتؤكد :

ـ حيَّاني... منهم.

وتنْفتح صفحات غير مريئة من حياة المرأة : فكلما جمعت العرجاء مقداراً من المال، كان الرجال وسيلة الدهر الوحيدة لابتزازه منها.. يتلوّنون أمامها كأصناف الحرباء، تلتقط منهم المتسوِّل والمريض والمشرَّد، تُؤويه وتُطعمه، ويُظهر لها العطف والصفاء، بل العبودية والخضوع، حتى إذا استيقظ فيه ما لا تفهمه وما تسميه (طبيعة الرجال).. غافلها، وسرق مالها ومتاعها في غيبة منها، واختفى أو ابتلعته الأرض. وعلى كثرة ما مرّ بها مثل هذا، وعلى كثرة ما تجوب من أقصَى المدينة إلى أقصاها لم يقدر لها في يوم من الأيام، أن تلتقي بأحد من غرمائها، وإلا لعرفتْ كيف تُريه شيطان النساء وانتقامهن. وتعلق على مرارة الذكريات :

ـ نهار نشوف واحد منهم...

وتضرب كفاً بكف غيظاً على ما أصابها من مكر الرجال وتنكرهم لجميلها، لتؤكد أنها اليوم لم تعد غريرة، وأنها تفضل أن توزع ما تكسبه على الأطفال والنساء، أو أن ترميه في المزابل للقطط والكلاب أو في البحر، على أن تُنقِذ به روح رجلٍ يُحتضر. وتنْهي المرأة كلامها بحكمة ثمينة توجهها لإحدى جليستيْها، أو لهما معاً :

- اعملي الراجل في يدك كالزيت في الكف... ما يزيد ما ينقص.

وتؤمن الغالية على كلامها، وهن يتناولن كؤوسهن حتّى إذا انتهَى الشاي، عانقتْ العرجاء كلتا المرأتين بقوة وحنان من تودع فلذة كبدها، وكررت على الغالية أن تزورها، وأنها رهن الإشارة في كل مُلمَّة، ودعتْها الغالية أيضاً في مجاملة :

- زوريني أنت الأولَى يا أمي، أنت وبنت عمي صفية.

ورحبت عائشة بالدعوة وهي تخرج. ومنذ ذلك اليوم، لم تعدمْ وسيلة تساعد بها صفية، سواء في تنقية الحبوب أو غسل الملابس، أو مجرد المؤانسة عن طيب خاطر، وكلما واتتها الفرصة.

* * *

مشاعرُه غريبة هذا المساء، لا ينكر ذلك ولكنه لا يفهمه. حقاً إنه منذ سنوات قليلة، منذ ارتحاله عن بلدته وهو يعاني من مثل هذه المشاعر، كلما آن وقت المحصول. ولطالما فكّر في ذلك وفهمه على أنه من فعل الصيف، ريحه وحرارته وأماسيه يذكره بقريته في عنف. وعندما يؤوب إلى مسكنه عند الغروب، وتنحدر ضجّة النهار نحو السكون، لا تخالطها بقايا أصوات متباعدة في الزمان والمكان لباعة «الماء الحلو» ولا أذان يرتفع من هنا وهناك ؛ أثناء كل هذا لا يعود يملًا سمعه إلا ثغاء وخوار ونباح، تتجاوب به أرجاء قريته النائية عند الرواح... عند كل موسم، عند موسم كل محصول، كان شيء من ذلك ينتابه ويلح عليه. بيْد أن مشاعره أشد غرابة هذا المساء، ولعل لزائره يداً في ذلك. ابراهيم مقدم القرية وقريب صفية، رجل لم يمس الغربي منه إلا الخير أو على الأقل لم ينلْه

منه شر، إلا أن شعوراً لا ينْكَر وهو أن أحدهما لم يكن يرتاح للآخر. أكان ذلك لتحاسد طبيعي بينهما، لتقارب مستواهما في الشرف والممتلكات مما هو معهود في القرى ؟ ربما. ومن يعرف طبيعة القرويين يعرف أن مشاعرَ من هذا النوع تتولّد بينهم كلما تقاربت ممتلكاتهم، لا يكاد يمحوها إلا التفاوت المطلق في الأرزاق. بيْد، أن مما لا ينكر أيضاً أن هذه المشاعر، تبدو سطحيةً أو ثانوية في غالب الأحوال، إذ ما تكاد مُلمّة تلُم أو مناسبة تحدث، حتى تبدوَ القرية كلها ملتحمةً فوق التحاسد والتنافر وتلك مفارقة أخرى... إن كانت مشاعره غريبة نحو زائره هذا المساء، إن كان يُضمر له كراهية أو عدم ارتياح، فلن يكون مرجع ذلك لمجرد سبب طبيعي مما سلف، بل لأن الزائر يحْظى بامتياز لا يُنكر : أليس مستقراً في قريته محافظاً على أهله وملكيته، وهو في رأي العربي لا يحافظ على ذلك بطرق معتادة، بل بالتقرب إلى النصارَى وخدمتهم وإيذاء أهله... لئن لم يؤذك أنت بالذات فهو يؤذي غيرك. ولئن تحاشاكَ اليوم وتهيّبك فلم يمسَّك بشيء، فإنه في ضميره يعتقد أن بإمكانه أن يفعل ذلك متى شاء، كأنه يشملك بجميله إلى حين، أو لا يضاف هذا إلى ما يبذر عدم الارتياح إليه ؟.

أما المقدم إبراهيم، فقد جاء لإحياء صلة الرحم بقريبته صفية وزوجها (ابن العم). وهذا ما لم يقم به أحد من رجال القرية على عمق صلاتهم بالعربي وأسرته، ربما لخوفهم منِ أن يشاع عنهم ذلك فيكونون موضع سخط أعوان الحكومة أو لسبب آخر... وقد تجوّل العربي بضيفه نهار اليوم، وأراه كثيراً من معالم حياته الجديدة في سوق الحبوب، وحدّثه طويلا وببعض المبالغة عن حسن حاله، ولكنه بدون شك لم يخبره، بتفاصيل ما ينوي أن يقوم به لمتابعة قضيته العتيدة، قضية أرضه، وهذا احتياط ضروري، والحكمة تقول : (إياك والمخزن لا تركبه ولو كان دابة). والمقدمية، وإن كانت رتبة غير سامية في سلم مناصب المخزن، بل إن كانت أصغر ما يمكن أن يتولاه رجل، فصاحبها قادر على ممارسة الإيذاء إن شاء. فلابد من احتياط. على أن ما كان يرتجف له العربي الحمدوني في باطنه طوال يومه مع المقدم إبراهيم هو جلسة ما بعد

الغروب، عندما يضمّه وضيفه سكون الشاي والعشاء والنوم : كيف يمكنه أن يتجنّب أسئلة صارخة في باطنه، أغرقها طول اليوم في ضجة النهار وتعَبِ تجواله بضيفه. بل كيف يحتمل لحظاتٍ قصار طوال، بين كل سؤال منه وجواب من صاحبه، وأحس العربي بأنه لا يمكن أن يتجاهل ما يعتمل في باطنه من لهفة وحيرة إلى الأبد، وأن شوقه للاطلاع على ما آلت إليه حال الأرض والقرية شيء فوق الكبت والتحكم. ومن يدري أي تأويل يعطيه صاحبه لحاله، إن لم يعرب عن أسئلة صريحة : أيعتبره ناسياً أم غافلا ؟ أم خائفاً أم فاقداً لكل أمل ؟.

ـ كيف هي الحالة عندكم ؟

سؤال غير محدد ولا مضبوط، لا ينبىء إلا عن بداية سلسلة متلاحقة من أمثاله. ولقد ضغط العربي الحمدوني بشدة على نهاية سؤاله، كأنما يريد أن يؤكد لصاحبه أنه يُعْنى بصفة عامة بأخبار الجميع في القرية.

كانا قد تناولا عشاءهما، وهما في انتظار أن تدخل خدوج بصينية الشاي :

وأجاب المقدم :

ـ الحالة ؟ هي هي... كما تعرف.

جواب من جنس السؤال لا معالم له ولا حدود.

ـ والأرض والبلد و... ؟

كأن العربي يحدد سؤاله الأول ويتممه بحركة دائرية من يديه، تعني أنه يسأل عن كل شيء محدد مضبوط، يعرفه صاحبه.

ويردّ المقدم إبراهيم في غير تحديد للمقصود :

ـ الناس مشغولة... كل واحد في همه.

وينهمك في ترتيب الكؤوس في مواضعها حول البراد. أيتخوف أن يُؤْذي العربي بذكر الحقيقة والتفاصيل ؟ ألَا إنه مستعد لذلك ولا شيء يخفف عنه. ولو تطوع صاحبه فأوجز إليه أو فصَّل ما عنده من أخبار

أرض الهضبة والسهل والوادي، وكل شبر وكل نبتة أو صخرة في أرضه... يود بالضبط أن يعرف كيف يستثمرها الأجنبي، كيف يخطو فوقها، كيف يرتفع صوته وتتحرك رجلاه عليها... كيف يقف ويجلس... يود أن يعرف مآل البقية الباقية من البساتين... يود أن يعرف، لو يستطيع، مشاعر أرضه إزاء المستثمر الدخيل ؛ أمَا تزال تجود بالخير أم جفّت غيظاً وكمداً ؟ أما يزال النهر على جريانه وتعرجاته ومداعبته لاقدام المائسات من عجائز كروم التين، أم أنه جف واعتراه الصمت ؟ يود أن يعرف كثيراً كثيراً وبتفصيل...

ورد المقدم إبراهيم بلهجة باردة وباقتضاب :

- العام جيد... والحمد لله.

وأحس العربي كأن طعنة أولى أصابته من ضيفه. هناك إذن شُكر وحمد على محصول جيد فوق أرضك. وفي أعماقك قَفْر يلتهب...

وأردف إبراهيم :

- النصراني ولد الكلب... عمل العجب في الفلاحة والأرض !

من يضع نفسه في مرمى السهام، لا يجني غير الجراح وعليك أن تستمع وتستزيد.

وتابع المقدم :

- ... ماكينات للحرث والحصاد والزرع.. شيء غريب !

الغريق لن يخشى البلل والغواص لا يخشى اللُّجّة. وأحس العربي الحمدوني أنه فقد حاسة الألم بعد الطعنات المتتابعة، وعلى صاحبه الآن أن يستمر. فقط، عليه ألا ينتظر منه سؤالا.

صارت راحته في الصمت والسماع بهدوء وجمود، كأن كل حركة فيه تضيع عليه متعة عذاب عميق... حظائرُ أزهى من أجْمل بيت في القرية تقام على أرضه، في نَسق فريد مقسم إلى أجنحة منفصلة للطيور والأبقار والأغنام والخنازير... حتى خلايا النحل أُقيمت صناديقها محاطة بأسلاك في الهضاب التي كانت مخصصة للرعي.. وإذن فقد سُلب مزيد من أرض

القرية. أما نظام العمل مع النصراني المستغِل فيكفي أن يعلم العربي أن الفلاح من رجال القرية، أصبح من العسير عليه أن يجد من يحرث أرضه، أو يحصد زرعه بالأجر المعتاد، أو حتى بما هو أكثر من المعتاد... الكل يتهافت على العمل مع النصراني، أما الغلة، أما المحصول، فشيء لا يصدق.

ـ تعرف الولجة ؟

طبعاً يعرفها العربي ؟ أليست أخصب بقعة في أراضيه وأعزها عليه ؟ وسؤال المقدم مجرد تمهيد لكي يذكر رقماً يريد أن يصدم به خيال العربي في تقدير ما يمكن أن يبلغه محصول هذه البقعة، لكنه لن ينجح في ذلك، فهذه بقعة جيدة على كل حال لا يقل مردودها عن أربع قنطارات للهكتار الواحد في أسوإ الأحوال، ويرتفع إلى العشرة وقد يتجاوزها إذا كان الموسم ملائماً... ويكرر إبراهيم سؤالاً لا ينتظر عنه جواباً :

ـ تعرف نتاجها هذا العام ؟

ويلتفت حوله معبراً عن دهشته وحيرته قبل أن يجيب في مهل :

ـ الولجة ياسيدي... أعطت هذا العام ثلاثين قنطاراً للهكتار، وأكثر ! وضجَّتْ أعماق العربي الحمدوني باستنكار لم يُبِنْ عنه لصاحبه. أكثر من ثلاثين قنطاراً للهكتار الواحد شيء لم يسمع به العربي قط، ولا غيره من رجال قريته، وكان صاحبه يُخرِّف. على كل حال لن يعلّق بشيء على شيء.

ويضيف إبراهيم في نفس اللهجة :

ـ والحمرية تعرفها ؟

كيف لا يعرفها ؟ أسوأ أراضيه وأقساها، لا تعود في أحسن المواسم بما يعادل ما ينفق عليها من مصاريف، ولم يكن العربي يحرثها إلا بدافع العادة، وكان كلما مارس عمله عليها، وكابد النصب في شق تربتها الملساء، كلما طغت على فكره صورة من يغتصب امرأة عن نفسها كرهاً، أو يذلل صهوة جواد جموح. ولعل هذا الشعور وحده كان كافياً إذ ذاك

ليملأه اعتزازاً، ويدفعه إلى مداومة الحرث، كأنه يردُّ على تحديها الطبيعي بتحدّ يماثله. ما مفاجأتها عند صاحبه ؟ وما أعطت ؟ وينظر إبراهيم ملياً في وجه العربي، كأنه يحاول أن يتأكد من أنه قادر على تحمُّل الخبر أو تصديقه ويقول :

ـ حتى الحمرية ما قصّرت... أعطت ياسيدي فوق العشرة... فوق...

وأحس العربي بأنه يتألم بما فيه الكفاية. ولئن كانت ما تزال له قدرة على تتبع الحديث، فذلك لميل غريب فيه، لتعذيب نفسه، كأنه يعاني من شعور من أصيبت كرامته في الصميم. كأن أرضه تخونه : أليست تحتضن غريباً وتجزل له العطاء، بما لم تجزل به له ولأجداده ! كيف ؟

وقاطع المقدم إبراهيم خواطر صاحبه بحكمة يُتوِّج بها ما أنبأه به :

ـ العرب ما عندهم فلاحة... الفلاحة ما فاتت الروامة.

* * *

خلائق بالمئات يعج بها الميدان. وجوه منكسرة ترنو إلى المستقبل في إشفاق ترسمه يوماً ما شفتا قاض أو محام أو ترجمان. ميدان فسيح شاسع الأطراف تحيط به شواهق بنايات رسمية من قصر العدالة، إلى مبنى البلدية، فالمحافظة العقارية والخزينة... وخلائق القرويين من نسوة ورجال في أزر وجلابيب ثخينة فضفاضة، تموج بينها في اضطراب، كما يموج السمك في بركة محدودة، أبصارٌ زائغةٌ، وأمل في لجة المجهول يبحث عن قشة الإنقاذ... وعلى السطح الغامض تطفو بين الحين والحين فقاعة ما، تصنعها كذبة سمسار محتال، أو خدعة محام محترف أو شاوش، تتضخم في باطن اليائس رجاء، ثم سرعان ما تخبو، لينبعث المجهول عاتياً جباراً في الأغوار، ينتشر ويتضخم من جديد.

وحدَه، ووحده فقط، ما كان ليعرف المجهول أو يهابه أو يترك له فرصة التضخم :

هذا التمثال البرونزي الهائل، لفارس تلمع نياشينه تحت أشعة شروق، أوْلاها ظهره، وأشار بعصاه تجاه الغرب، نحو البحر، وما وراء البحر.

يختال في الأوسمة والنياشين كأن سمعه ما يزال ينتشي بتحايا النصر وهتافاته، يهتز لها جواده طرباً ويختال... تحايا وهتافات امتزج فيها مبحوح ونَدِي ومقروح، تتناهى لسمع البطل انسجاماً رائعاً تشارك به الأرض السماء : النصر. النصر.. النصر لفرنسا : وأكاليل الدفلة ما بين نارية وفاقعة وناصعة، بعضها من أحراش زاهية، وبعضها من أغوار دامية مجروحة، وقوس قزح من ألف لون ناضر، تشارك به السماء الأرض في احتفالها بموكب النصر العظيم...

بدت الخلائق في الميدان مسرعة أو متوقفة، أقزاماً تحت عظمة التمثال. وبجوار قاعدته جلس رجال ونسوة وأطفال، يلتقطون أنفاسهم اللاهثة، ينتظرون أن ينفتح باب المصير. وأطفال وبنات في براءة الصِّغر يتمسَّحون بالقاعدة البرونزية ويتمططون ويقفزون، فلا يتجاوزون ما ارتسم على وجوهها من تصاوير وكتابات ناتئة، وعلى الدرجات المعدودة المنْسابة أسفل القاعدة، غفا البعض، أو اتكأ في خمول أو تداعى. لقد بدا الفارس من السماحة والكرم بحيث يمنحهم الظل والراحة، ويهب أطفالهم مراتع اللهو واللعب لا يضجر من ذلك ولا يتزحزح... أم هو لا يعبأ ؟ وقوائم الجواد في خطوها المختال تهمّ به ولا تكاد، كأنها تتريث، لتختار لحوافرها موقعاً في أرض مُوحلة... أم هي لا تحفل بشيء ؟ وثلة من أقوام شُقْر من رجال ونساء ما تنفك تلتقط في شغف صورة بعد صورة، ومشهداً بعد آخر للبرونز العائم في الجلال لا يَريم، وللخلائق البارزة المتمسحة حوله. ما من شك في أن موكب المجد يبعث في أولئك مشاعر الفخر والاعتزاز، أتراه ينتزع من هذه الخلائق معنى المجهول وهوله ؟ أيخرجهم من شعور بالمغامرة اليومية عند كل باب، وكل خطوة ؛ ملؤُهم توجس مستمر، واحتضار مُتأنّ طيلة انتظار من سنوات ؟.

وبدت الشمس ما تزال بعيدة في جوف المشرق. والعربي الحمدوني يزيح عمامته إلى الخلف وهو يتطلع إلى قصر العدالة الشاهق، وقد ارتسم حذو أذنه ظل العصا القصيرة في يد الفارس البرونزي المغوار...

- كن بعقلك وشد يدك.

نصيحة كالهمس، ترددت في سمع العربي مرات هذا الصباح من ابن عمه كبور. وردّ في اقتضاب :

- الله يسهل علينا وينجينا من أولاد الحرام.

ويجتاح الرجلين معاً احساسٌ مشترك بالمغامرة. وما عملية البحث عن محام للقضيةِ إلا مغامرة أولى وكبرى لقروي ضاعت أرضه، وهو يخطو في وسط ملَغم شائك لم يألفه ولم يعرف منتهاه.

وتقدما نحو القصر الشاهق يصعدان الدرجات في تُؤدة بين جماعات تعدو مُصعِّدة ونازلة، حتى انتهيا إلى ساحة القصر تحيط بها الأعمدة الرخامية والأقواس، وتتوزع بينها الجماعات البشرية في قاعات المحكمة وعلى أبوابها ؛ وأصوات الشواش والأعوان ترتفع مرددة أسماء المتقاضين والمتهمين، بين حين وآخر في كثير من الغلظة والجفاء، ومحامون يختالون في ألبستهم السوداء.

توجه نحو الرجلين شخص مطربش في بذلة أنيقة، فلكز كبور ابن عمه بمرفقه خِفية ينبهه. ودون تحية بادرهما الرجل ونظره يتنقل بينهما، كأنه يخاطب كلا منهما بمفرده.

- محامي ؟ اتبعني...

وبادر كبور يردد في جفاء :

- ما عندنا به غرض.

وابتسم المطربش كالعليم واستأنف في غير يأس :

- عندك الحق. أولاد الحرام كثار... الواحد لازم يكون على بال منهم... أنا صاحب لومتر بواتيي... سمعت به ؟ المحكمة كلها في يده.. يا الله عنده، وهو يقول لك كل شيء... ويؤكد كبور للرجل في لهجة قاطعة.

- قلنا لك ما عندنا غرض بالمحامي.

ولا يبدو أن المطربش قد يئس، لذلك بدا أنه يلحُ بطريق غير مباشر :

- على خاطرك... أنا دلّال خير.

ويأتي الرجل بحركة من يهم بالانصراف تاركاً لهما مسؤولية الموقف، لكنه يقدم لهما بطاقة لكي يعرفا من يقصدان عند الحاجة... وأحس العربي كأن يداً تدفعه من خلفه، فالتفت، لم يكن وراءه أحد، ولكن شعوراً ملأه بأن عيني صاحبه المذكوري ترقبانه، فجرٌ ابن عمه، وتقدما نحو إحدى قاعات المحكمة. رغم كل شيء فقد كان وجود كبور في جانبه داعياً إلى بعض اطمئنان، وإن كان قبل ذلك لم ير داعياً لأن يصحبه ابن عمه مضحياً بنومه الضروري، بعد نوبة عمله الليلي في السكر، واستعداده لنوبته القادمة مساء اليوم.

كان الزحام قوياً أمام إحدى القاعات، وشاوش مطربش تلمع أزراره النحاسية، ينادي على من تطلبهم المحكمة في الداخل، وبجانبه فرنسي مسلح وبلباس خاص. ودافع العربي بالمنكبين، حتى أصبح وابن عمه بمواجهة الباب فصاح بهما الشاوش في قوة واستنكار :

ـ ههو... هو يا بقر !

وفي تلك اللحظة كانت يد العربي قد تحررت من شكارته، وامتدت ملمومة نحو يد الشاوش بشيء تناوَله دون أن يراه، ودفعهما إلى داخل القاعة متأففاً في سمة الغاضب المستنكر كأنه يقول :

ـ نبُحُّ نداءً عليهم... ولا يحضرون إلا متى يشاؤون !

وقف العربي وابن عمه مع من تكتظ بهم القاعة من الواقفين، يفصلهم عن الجلوس حاجز خشبي له فتحة يقف عندها حارس يسمح للمطلوبين باختراق القاعة الفسيحة، من ممرّها الضيق بين صفوف المقاعد الملأى بأصحابها، للمثول أمام هيئة المحكمة.

في صدر القاعة منبر هيئة المحكمة، يتصدرها القاضي ويحيط به مستشاروه غارقون في ألبستهم السوداء، ذات الأشرطة الخضراء والحمراء. كلهم فرنسيون بجانبهم جماعة من المغاربة بألبسة عادية جداً بالطرابيش والجلابيب، يبدو عليهم الخمول كأنما يراود أعينهم نعاس، وفي أقصى ركن من الممر، باقي هيئة المحكمة من نيابة وكتاب. وفي صدر

القاعة وأسفل منبر القاضي مباشرة، على بعد قليل، مكتب الترجمان الذي يكون واسطة بين المحكمة والمتقاضين، تليه مقاعد المحامين، فالعموم، فالحاجز الخشبي، فسائر المكتظين الواقفين... وعندما دخل العربي وابن عمه بدتْ لهما الأحداث تسير بما لا يساعد على الفهم، كأنهم يشاهدون نهاية مسرحية لم يحضروا فصولها الأولى. فالقاضي منكبّ على دفتر أمامه، ومحام في صدر القاعة بجانب أحد الأهالي، من أطراف القضية دون شك. وشرطيان يتقدمان بهدوء ويسحبان الرجل نحو باب ضيق فيما وراء هيئة المحكمة. وبدأ الرجل المسحوب يلتفت وراءه، قبل أن يختفي عن الأنظار... وتكدّر الصمت المخيم بنحيب مكبوت من آخر القاعة من بين الجموع الواقفة المكتظة، ليرتفع صوت الحارس الواقف على الحاجز الخشبي :

ـ ششت...

وتجوّلت عيناه تتفحصان الوجوه تبحثان عن مصدر الصوت، وسرت في الحين موجة تدَافُع في الجمع المُكْتظّ، مختلطة بالنحيب المكتوم وأصوات خافتة تردد : الصبر.. الصبر..

ووجد العربي نفسه أمام الحاجز الخشبي مباشرة، وقد انتهت موجة التدافع الصادرة عن إخلاء بعض الواقفين لاماكنهم، وبدأ يرى كل شيء بوضوح. كان القاضي قد رفع بصره عما كان منكباً عليه، وارتفع صوت المنادى باسم قضية جديدة ومتهمين جدد... وبدأت عينا القاضي خلف الزجاج، تتجولان في القاعة. وخُيل للعربي أنهما تلتقيان بعينيه فتتوقفان عليه، وأحس برعدة تسري في بدنه... ارتعاب قاتل يعمّه من نظرة عينين باردتين دقيقتين خلف الزجاج، كأنما تفوحان برائحة الموت. وأحس بالعينين تتجاوزانه بتؤدة إلى غيره تشيعان الرعدة والقشعريرة في كل ما تقعان عليه، وهمْهَم العربي بينه وبين نفسه : ميّت حي.

وكأنما سمع الحارس حديثه الباطني. فانبعث صوته الناهر دون أن يحدد وجهته :

ـ ششت !

وارتفع صوت المنادى من جديد :

ـ فاطمة بنت المعطي.. فاطمة بنت...

وتردد نداء مماثل خارج القاعة لتسري موجة من التدافع الخفيف يخترق جمع الواقفين، تتمخض عنه امرأة تجرجر ذيول إزارها المتسخ، وقد شد إلى ظهرها طفل لا يبدو من طول رجليه وحجمه، أنه عاجز عن الوقوف أو السير أو أن هناك ضرورة لإحضاره... كأنها تحتمي به. وقام في الحال إلى جانبها محام فارع الطول، لم يتبين العربي إلا نحافته.

وسرت محادثة بين مثلث المرأة والترجمان والقاضي، لم يكن آخِر من في القاعة يسمع منها شيئاً. ثم تقدم المحامي نحو منبر القاضي، وقال شيئاً فأدار القاضي رأسه علامة الرفض أو النفي. فتراجع المحامي وأعطى وجهه للجميع، فبدا حاجباه الكثان تحت جبهة عريضة. شفتاه تغيبان بين أسنانه في سِمة غيظ أو إصرار. ومرت فترة والترجمان يتحول بين القاضي والمرأة، ليتقدم المحامي مرة أخرى إلى منبر القاضي، ولتُكرِّر نفس الحركة من رأس القاضي، يُمنة ويُسرةِ بِكامل الهدوء، ثم... فجأة وكأن سقف القاعة قد انشق عن رعد يرتفع صوت المحامي هادراً، وبدا أن طائر النوم والخمول يفارق جانباً من هيئة المحكمة لأول مرة. لم يكن أحد في الجمع المكتظ في آخر القاعة بقادر على أن يفهم رطانة المحامي، لكن صوته كان يصل قوياً إلى كل الأرجاء وتابع العربي بانتباه شديد حركات المحامي، وهو يضرب الطاولة، ويبسط كفه غاضباً أو كالغاضب. وهل من حق أحد أن يغضب ؟ وفي هذا المكان بالذات ؟ وأمام من ؟ وارتفعت ذراعا المحامي تلوّحان في الفضاء وتلوَّثْ أصابعه مشيرة إلى الأرض، إلى السماء، إلى العينين الباردتين خلف الزجاج، إلى المرأة الواقفة المرْتعِبة، وحملها المربوط إلى ظهرها في استكانة الموت... وتشبثْ أصابعُه ببذلته السوداء كأنه يودُّ أن ينسلخ عنها أو يمزقها كمجذوب في أوْج انفعاله. أمِنْ حقه أن يغضب ؟ بأي قانون إذن ؟ وانفتحت شفتا القاضي بهدوء عن شيء لا يمكن أن يسمعه أحد على خطوات منه... وصمت المحامي لكي يبدأ حديثه كالواهن المتألم، ليملأ القاعة من جديد، وسبّابته

ترتعد في الفضاء مسدّدةً نحو هيئة المحكمة، حمّلها كل طاقته كأنه يهدِّد أو يتوعد... ما أروعه. ولم يتكدر هدوء القاضي أيضاً. ما أروعه. من أية طينة هؤلاء الناس ؟ وخُيل للعربي أن طرْفة حياة تعاود نظرة القاضي، لتتوقفا عن جولتهما المعتادة المُميتة في وجوه الخلائق المرتعبة... ثم ما لبث أن همْهم قليلا مع مستشاريه ليجمعَ دفاتره، وتخرج في إثره هيئة المحكمة من باب خلفي والناس وقوف. وتحلّق في الحال بعض الحاضرين من أصحاب المقاعد حول المحامي. بينما كان هو يحادث موكّلته في حُنوّ ويداه على كتفها.

كان رائعاً في غضبته، في نبرات صوته، في حنوه على المرأة البائسة ؛ وأحس العربي أن كل احتياط يفارقه بشأن هذا الرجل. إن كان يبحث عن محام حقيقي. فلن يكون غير هذا الرجل.

كان آخر القاعة قد أوشك أن يخلو، حين جذب كبور ابن عمه وخرجا :

- ظهر لك شيء ؟

وهمْهم كبور دون أن يجيب، وعاد العربي يؤكد وكأنه يسأل :

- ما يصلح غيره.

ولم يُبِن كبور إلا عن حيرة، فقد كان على يقين من أن اللحظة الحاسمة قد دقت، ولكنه لم يكن على بيّنة من أمره، ويخشى أن يخدعه حدسه، وكأنما أدرك العربي ما يدور في خاطر ابن عمه، فخرج عن لهجة التساؤل ليدافع عن موقفه من المحامي :

- عندك الحق تخاف من أولاد الحرام... ولكن هذا شفتاه بعينينا... هذا شيء آخر..

ورد كبور في غير حماس :

- يمكن.

كان واضحاً أن كلا منهما يقرأ ضمير صاحبه، يدرك سر حماسته أو

احتياطه، ويود أن يعرف بأي ثمن، إن كان هذا المحامي يصلح أو لا يصلح. مهما يكن موقفه في المحكمة في قضية موكلته تلك، فقد يكون الأمر مجرد مسرحية لتبرير أتعابه. هذا محتمل جداً... وقد يكون الرجل صادقاً صالحاً، ويُضيِّع الاحتياط فرصة ثمينة.

- وردّد العربي في لهجة المستسلم :

- على كل حال. الله يسهل لنا فيه والسلام.

كانا واقفيْن خارج القاعة بالقرب منها، ينتظران خروج المحامي ؛ حتى إذا وقع ذلك، ظهر الرجل أكبر سناً مما كان يبدو عليه على البعد في القاعة. فتوجها إليه وبادره العربي وهو يوقفه :

- مسيو أنا يبغي...

وطفق لسانه يتعثّر بعربية يصطنع لها الركاكة، يقلد بها الأجانب ؛ كأنه بذلك يجعلها في مستواهم. لكن المحامي أوقف تعثره بعربية سليمة :

- السلام قبل الكلام يا أخي ! أنا أخوك مسلم... أطلق لسانك، قل مالك ؟

وشُده العربي للمفاجأة، ووجد نفسه يحدّق في عيني الرجل وملامحه، وهو يكرر في همس.

- مسلم ؟

وأكد المحامي :

- ايه. مسلم وعربي واسطى من الجزائر... يا الله قل مالك ؟

وفي لمح البصر، غمرتْ ذاكرة العربي صور متداخلة سريعة من حكايات عن قساوة (عرب الوسْطى) وشنيع أفاعيلهم بالقرويين عند بداية دخول الاستعمار، ولو سألتَ الرجل قبل هذا الوقت أن يرسم لك صورة الواسطي (الجزائري)، لتخيله بلباس لا يختلف عن أي فرنسي ممتطياً جواداً، يجوس به خلال الدواوير والحقول، وسوْطه الطويل المفتول ملوي على يده، يداعب به حذاءه (البوط) الجلدي. حتى إذا ما صادفه طفل أو امرأة أو بهيمة كال لهم من سوطه ما يشاء...

ـ قل لي قضيتك.

ويمضي الواسطي على جواده متابعاً نزهته وهو يبصق على كل من يصادف مردداً :

ـ يلعن ملّتكم وأبوكم يا الكلاب... البهائم...

ولا يجد العربي بداية لحديثه، فتدور عيناه كأنه يستنجد بكبور أو بأي أحد، وحين ينطق لا يزيد عن كلمة واحدة ضمَّنَها خلاصة ما عنده :

ـ الأرض !

وبدت على المحامي حركة تدل على أنه يفهم خلاصة الموضوع، فيسأل من جديد :

ـ أرض من ؟

ـ أرضي يا سيدي، أرض جدودي.

ـ ضد من ؟

ـ ضد كل شيء... ضد النصراني، والقايد، والشيخ كلهم...

ويقاطعه المحامي :

ـ أرضك مسجلة، محفظة ؟

ويجيب العربي :

ـ فيها المحفظ وفيها...

ويقاطعه المحامي :

ـ لمن التصرف الآن ؟

ويتوقف العربي متعثراً مستنجداً، تجول عيناه بين المحامي وابن عمه، فيُجيب عنه كبور، كطبيب يُجْهز على الجراح في غير رحمة ولا إشفاق :

ـ كان يتصرف هو، والآن هو خارج من بلده ومطرود.

وبدا التأمل على وجه المحامي، وهو يضرب أرنبة أنفه ضرباً خفيفاً،

بقلم معدني في يده ثم قال :

- اعطني رقم التسجيل.

واندفع العربي يخرج من شكارته ورقة زرقاء باهتة، تهجي المحامي ما بها ثم طواها وهو يهم بوضعها في جيبه، حين بادره كبور بحدة :

- لا... انقل منها وردها.

وقطب المحامي في استنكار، ثم تراخى حاجباه وهو يوجه إليهما الكلام في بعض شدة توحي بالثقة :

- اعطوني القضية أو خلوني، وسيروا في حالكم.

- أعطنا ورقتنا.

وقاحة كبور بادية وهو يرد. والمحامي يناوله الورقة كأنه يتحرر من قيد. حتى إذا ما اطمأن كبور إلى ما استرد تساءل :

- قل لنا الآن المقدار... اجرتك على القضية.

أجاب المحامي في هيئة من يجيب على سبيل التخمين ويهم بالانصراف يائسا :

- خمسين... وزيادة.

وتعجب كبور من قيمة المبلغ... خمسون ريالا وزيادة ؟ بينما بدأ المحامي يخطو مبتعداً، حين أوقفه العربي في هيئة من أحس بأن فرصة ثمينة ستضيع منه :

- هاك العربون !

وأدخل يده في شكارته، يهم بدفع شيء، بينما لاحظ المحامي حركة من كبور ابن عمه، فأوقف المحامي يد العربي، وقال مبتسماً لأول مرة :

- بلا عربون... ابق عند باب المحكمة حتى نخرج ويكون خير... وانصرف عنهما.

هبطا درجات المحكمة الخارجة نحو ساحة التمثال، حيث يجب أن

ينتظر العربي محاميه، وخواطرهما الصامتة تتركز حول ما يمكن أن يصيبهما من فشل أو نجاح. لقد بدا أن العربي قادر على أن ينسى في لحظة من لحظات الاندفاع، كل نصائح الاحتياط والتدبر. ورغم كل شيء، رغم التردد والتخوف، كان على اقتناع بأن سحنة محاميه صادقة، وكبور يعيب سذاجة ابن عمه :

- تقدر تتكلم على الصدق هنا ؟ أنت مدوخ مع راسك !

ولم يسعْ العربي إلا أن يُؤمِّن على كلام ابن عمه وهو يوَدِّعه، إذ كان من اللازم أن يعود كبور إلى بيته يتهيًّأ لفترة عمله الليلية ببعض الراحة. وحين تلاقت أعينهما ويداهما في الوداع، خامرهما شعور مشترك يعود إلى سنوات بعيدة، عندما وقفا نفسَ الموقف متواجهين، وقد بدت حافلة السفر الكبيرة، التي ستنقل كبور إلى المدينة مُقبلة، وهما ينتظرانها عند مشارف القرية. كانت زوجة كبور إنذاك بدأت تستعدُّ وتلمُّ بعض المتاع المحزوم تساعدها صفية. حدث ذلك منذ سنوات، وانبعث في هذه اللحظة نفْس الشعور العارم أو أقوى.

هناك أسلم العربي ابن عمه إلى المجهول، واليوم يُسْلمه كبور بدوره. وأكد كبور يومذاك لابن عمه :

- بقيت معهم وحدك... كن على بال، وما تثق حتى بواحد.

ويرد العربي متجلداً :

- الخوف من الله.. على كل حال، ابق دائماً تفكر في بلادك، والغربة ما تدوم.

ولكن الغربة دامت، والتهمت العربي نفسَه كما التهمت ابن عمه من قبله، وكما التهمت وتلتهم الكثير. وهما الآن معاً على أرض المجهول.

أخذ العربي مكانه عند قاعدة التمثال بعد انصراف ابن عمه، ولم يكن من الصعب عليه أن يقضي ساعة أو أكثر في هذا الموقف، فلقد وجد في نفسه دافعاً إلى تأمل الخلائق المضطربة في كل اتجاه وتحليل خباياهم.

أليسوا أمثاله ؟ أليست الأرض محور همومهم ؟ أليس الشعور

بالاجتثاث مشتركاً بينهم ؟ وإلا فما هذه الحيرة البادية، هذا الحزن المقيم على الوجوه ؟ فيم كانت ابتسامة المحامي تلك، والعربي يومىء إليه بقضية الأرض ؟ ترى كم منهم ألقى بقضيته بين يديه إلى اليوم، وكم منهم أفلح ؟ كان شعور بالراحة وبعض اطمئنان يخامره الآن، وقد زالت عنه بعض الحيرة وقضيته توشك أن تبدأ طريقها، إن صدقتْ فراسته، وإلا فسيضاف ضيق إلى ضيق، وكرب إلى كرب، وتستطيل قضيته وعذابه كظلال الغروب، كما يحدث للآخرين. ليس له الآن خيار. واستمرت خواطره على هذا النحو، تبدأ وتعيد، يساير حركتها توتُّر وانبساط في أنفاسه، كأنه يخوض بالفعل معركة جسدية... ومرّت به في ذلك الحين، ثُلة رجال ونساء بالأُزُر والجلابيب، ملتفة حول شخص نحيف مطربش، لا يخلو لباسه العصري من بعض أناقة، يتأبَّط محفظة وعلى ذراعه بذلة محاماة. لم يكن في موقفه يرى إلا ظهر الشخص، ولا يتبين من الملتفِّين حوله إلا أصواتاً مختلطة، تصل ببعض التمييز والوضوح. كانوا يتساءلون حول الشخص عن المسيو... المحامي، والشخص يحاول أن يشقَّ طريقه بينهم بصعوبة في تأفِّف وضجر، ويعلو صوت امرأة :

ـ هذي أكثر من شهر وأنت تضحك علينا... حضِّر لنا المحامي أو رد فلوسنا.

ويرد صوت المطربش في لهجة لا تخلو من تهكم واستنكار، خُيل للعربي أنه يعرفها جيداً.

ـ فلوسكم عند المحامي.. أنا معكم.. هنا ودائما. صبرو حتى يرجع اليوم أو غدا.

ويرد صوت :

ـ أرضنا ضاعت، وأنت مصدعنا بالصبر... الصبر.

وبدا أن القوم يجدون صعوبة في فهم التسويف المستمر، وغيبة المحامي الذي لم يروا له وجهاً قط. لكن صاحبهم كان صبوراً على إلحاحهم، يردُّ على لهفتهم بالجواب نفسه، ويُلمِّح إلى أن أموالهم في

الأمان... فهو مساعد المحامي، وبأيديهما كل المفاتيح فمن الخير أن يصبروا.

- آعباد الله الصبر... صبروا... مسيو لوكران الحكومة كلها في يده.

ويقلب لهجة الحديث، مذكراً القوم بأنهم سيبتهجون عندما يظهر المحامي وتنجح قضيتهم، فينسون إنذاك هذا الوسيط الذي يتعب من أجلهم، ولا أجر له سوى سوء المعاملة من جانبهم. ويعلق صوت من القوم :

- الفرحة... ؟ هذه عمرها ما تكون لنا... مشت مع أرضنا وبلدنا...

ولكن المطربش يعاجل صاحب الصوت، بوضع يده على كتفه ليسير معه خارج الجماعة، كأنه يُسرُّ إليه شيئاً هاماً في القضية. وتبدو صفحة وجه المطربش للعربي، فتلحُّ عليه الذكرى، كأنه يعرفه، ولكن أين ؟ ولا يستطيع أن يجيب وهو يتبع حركات الرجل.

ارتفع نفير منتصف النهار قوياً من مركز البلدية، فبدأت جموع البشر تسيل من جوانب قصر العدالة، كما ينساب الماء من قربة تعددت ثقوبها.

* * *

احترم العربي صمت المحامي وهو يسير بجانبه. وخمّن أنهما في الطريق نحو مكتب الرجل، حتى تجاوزا بعض البنايات مبتعدين عن ساحة المحكمة، وأصبحا في ساحة (المكانة). دخلا السور القديم يجوسان في أزقة ودروب ضيقة، فخرج العربي عن صمته كأنما يود أن يذكر المحامي بوجوده بجانبه، خشية أن يكون قد نسيه، فقال وكأنه يعلق على انشغال المحامي أو يساعده على حل مشكل :

- عندك صداع كثير... الله يكون في عونكم.

وتصور العربي على إثر ذلك جموع الخلائق المكروبة مثله وخامره شعور غامض بكراهيتها. إنها مثله، إنها نسخة منه، وكأنها تُميِّع مشكلته عندما تقدم نسخاً عديدة منها. وانشغال المحامي دليل على ذلك. وهنا وآفته

الذكرى المتمَنّعة فجأة، فالتفت كأنه يتحقق منها : ذلك المطربش المحتال، لم يكن غير رفيق لصهره سعيد تعرف عليه معه في مناسبة ما. أصحيح ؟ ولكنه أبعد ما يكون عن التحقق من ذلك. ولمعت في ذهن العربي فكرة أن يعطي لقضيته طابعاً خاصاً، يجعلها تحْظَى باهتمام المحامي. وذلك بألا يناقش في أي مقدار يطلب منه.

ورد المحامي على سؤال صاحبه :

- مشاكلنا كثيرة.

وكرر العربي دعاءه بطريقة آلية :

- الله يعاونكم.

وطلب منه المحامي أن يحدّثه قليلا عن نفسه، فبادر العربي يذكر قضيته، في حين أوقفه المحامي :

- خلّينا من القضية الآن... قل لي قبيلتك... ومع من أنت هنا، وكيف تعيش ؟

ومد عنقه بحركة تُدلّ على ما يريده. كيف جاء العربي ؟ كيف يعيش ؟ ومن أية قبيلة ؟ كل هذا لا جواب عليه ولا معنى له إلا في سياق قضيته الرئيسية على الأرض. فكيف يمكن الفصل بينها وبينه ؟ وبدا العربي يتعثر في حديثه لا يسْلَس له قياد، كأنه يتكلم لغة جديدة غريبة.

أفضت بهما الأزقة الملتوية إلى ساحة فسيحة، تتوسّطها حديقة صغيرة. تحيط بها، يبدو من طرازها أنها تتردد بين القديم والحديث، ويكْمُن في بعض أركانها ضريح ولي من الأولياء، يبدو أن قبّته كانت في يوم ما خارج المباني. وتوقف المحامي أمام دار تُواجه الساحة، تعلو فوق سورها الخارجي المرتفع أشجار باسقة من الداخل. والتفت إلى العربي مشيراً جهة الضريح كأنه يشرح له الموقع :

- ذاك، قبر سيدي بوسمارة.

ورد العربي وهو يقدم بحركة تبرك من يديه :

- الله يجعل بركته تكون معنا.

4

انفتح الباب، وظهر وجه خادم يحيط بعنقه خيط مئزر أبيض يتدلى إلى أسفل ركبتيه. انفلت المحامي داخلا ووراءه العربي، وسارا في ممر مزلج بين حديقة كثيفة، حتى إذا وطآ عتبة الدار الداخلية، صعد المحامي إلى الطبقة الأولى، وأشار الخادم إلى العربي بأن يتبعه ليأخذ مكانه في قاعة فسيحة للاستقبال. وفي الحين أحس العربي بضياع وعدم استقرار، وقدماه تغوصان في كثافة السجاجيد المنمقة، وهو يستقر في أريكة جلدية وثيرة. بدا البيت مدهشاً في أثاثه الفاخر، لا تكاد بقعة فيه تخلو في الأرض أو على الجدران من تحفة ثمينة. والكل غارق في هدوء عميق كعالم مسحور. لا عجب، فالبيت نسخة من نفس صاحبه. وهل يمكن أن يتصور المرء مثل هؤلاء القوم يعتريهم قلق واضطراب ؟ وعلامَ يمكن أن يقلقوا ؟ الطرد والتشريد والاضطراب على وجه الأرض خُلق للعربي وأمثاله. أما هؤلاء فأقدامهم راسخة في الأمان. واعترته موجة ضيم شديد، ولعله لم يتمنَّ في فترةٍ من حياته مثلما تمنى الآن، لو أنه لم يكن من أبناء الأرض، أو لو أن حُبّها لم يلتحم بذاته، ويترسبْ في أعماقه على هذا النحو المُقيم. وتساءل بينه وبين نفسه سؤالا غامضاً عما إذا كان المحامي بالفعل قادراً على أن يعاني أحاسيس موكّله من أبناء الأرض ؟ وأي فارق هائل بين عالمين ؟ وأحس بأن البَلغة والعِمامة والجلباب على جلْده، أصبحت شائكة، أو أنها لم تؤدِّ مهمتها في ستره، كأنها تتململ أو تتبرَّم من الوسط المنسجم الغريب، كلُّ ما فيه ينطق بالأناقة والثراء. كان العربي غارقاً في مثل هذه الخواطر، عندما دخل الخادم يحمل بين يديه صينية عليها كأسان من عصير الفاكهة، يتبعه المحامي في لباس خفيف، ويجلس على مقعد مقابل العربي، وهو يشعل سيجاراً غليظاً. وكأنما لاحظ المحامي حرج صاحبه أو أنه أراد أن يمهد لحديثهما فقال مرحِّباً :

- أنت هنا في دارك.

ورد العربي بإيماءة شكر بيده وبابتسامة. ولعله افتقد الكلمات المناسبة لمثل هذه الحال واستأنف المحامي :

ـ اعجبني فيك شيء واحد ؛ وهو نيتك. أنت رجل نية. قلت مع نفسي أنت من أولاد الناس، وكلام الدار أحسن من كلام الزنقة.

وكرر العربي شكره :

ـ بارك الله فيك آسيدي.

وتابع المحامي كلامه في لهجة متواضعة :

ـ تعرف... أنا عندي محبة كبيرة للناس العروبية والفلاحة.

وكأنما لحظ معالم تعجب أو ارتياب على محيا صاحبه أو هو خشى أن يفهم كلامه على أنه مجرد مجاملة فتابع :

ـ على خاطر، أنا أصْلي عروبي فلاح... والدي وجدي كانوا فلَّاحة... الحر ما ينكر أصله.

وأقبل الخادم يعلن إعداد المائدة، فقام المحامي ومد يده للعربي الذي بدا عليه امتناع، وسار به إلى غرفة الأكل، حيث جلسا على مقعدين متقابلين، والخادم يضع بينهما الأطباق والسكاكين... حين ابتدره المحامي :

ـ خلينا من هذا الشيء... خلّنا ناكل بيدينا.

كان واضحا أنه يعمل لتقليص كل مسافة فارقة بينه وبين ضيفه. ولأول مرة أحس العربي بأن المحامي يوجه سؤالا مباشراً قائلا :

ـ ايه.. سامحني.. قل لي اسمك.

ـ العربي بن محمد بن العربي الحمدوني.

ـ تبارك الله تبارك الله.. وأنا اسمي موهوب.. بانت لي في وجهك وإشارتك علامة فكرتني في والدي الله يرحمه. كان يشبهك تماماً.

وتأسف العربي للذكرى. قائلا :

ـ الله يجدد عليه الرحمات. مات هنا ؟

ـ لا. مات في البلد وأنا صغير ؛ وتبعته الوالدة الله يرحمها... ومن ثم، الفرنسيس أخذوني وربوني مع كثير من أولاد البلد، ودخلونا للمدرسة والعسكر..

كان يتحدث وبين الحين والحين، يشجع ضيفه على الأكل ويسرد حكاية غريبة أطول وأعمق : قبل أن يكون محامياً كان قبطاناً في الجيش الفرنسي، غربته بدأت منذ الطفولة ؛ واستمرت طيلة الشباب وما تزال إلى اليوم وهو يقارب الأربعين. عاش خارج الوطن في فرنسا، وتونس، قبل أن ينتقل إلى المغرب في مهمة بالجيش الفرنسي... ثم تحرر من ذلك عندما واتت الفرصة ليشتغل بالمحاماة. وعباراته اليوم ناطقة بالحنين إلى الأهل والوطن ويتوقف ليعيد :

ـ كان عندي عم وخالة في البلد لكن أخبارهم مقطوعة علي من سنين.

هدأت نفس العربي لحديث الرجل، حديث صادر من الأعماق ونغمته مؤثرة. بيْدَ أنه رغم كل شيء محام، ورغم ما يقول فلن ينتسب إلى الفلاحين. لم تخالط البلد شقوق رجليه، ولم تغص قدماه في أوحال الارض، ولا أحس يوماً بأن حياته ووجوده كله هما عطاء الأرض... عانى الغربة، وهذا حق، ولكنه لم يعان محنة ولا مشكلة.. والذين صنعوا غربته وضعوا لها في الوقت نفسه الحل المناسب. فعلّموه وجعلوه واحداً منهم.. فتحوا له باب الحياة الرغدة، بعيداً عن الوطن، فليكنْ ؛ بعيداً عن بلده ؛ فهذا أنفع له. وماذا شاهد من وطنه ؟ وماذا يمكن أن يحمل من تعلّق وهو الذي فتح عينيه منذ طفولته، على مستقبل مهيإ له مفتوح الآفاق... ؟ لو كان العربي مكانه لما وجد غضاضة ولا ضيماً في واقعه.. لو كان لأمنية خرقاء كهذه أن تتحقق. وقال العربي كأنه يعلق على خواطره الشخصية :

ـ الحمد لله يا سيدي على ما أعطاك.

ورد المحامي بعد لأي :

ـ صح... لكن.

وتجمد على شفتيه الجواب. وبدا ساهماً غائباً في نظرة لا تثّبت على

شيء، كأنه يتابع خيوطاً خفية ؛ ثم انتبه لنفسه على ملامح ضيفِه المتسائلة المترقبة لتتمة الحديث. لكن المحامي بدلا من ذلك، حَوّل موضوع الحديث، وقد بدا الخادم يزيل الأطباق :

ـ يا الله. قل ما عندك... قضيتك.

قال المحامي ذلك، وهو يسحب من صدر قميصه سيجاراً غليظاً. وطفق يسمع ويسأل عن التفاصيل، ويتمّم ثغراتها بما يعرف من قضايا أخرى مماثلة، حتى إذا انتهى العربي ضمَّتهما لحظة صمت، اشتغل المحامي أثناءها بتفحص وثائق قدمها له العربي، وهو يرشف قهوته بين الحين والحين.

وظل العربي الحمدوني خلال ذلك يتابع ما يرتسم علي وجه المحامي، محاولا أن يُترجم كل نأمة فيه إلى فعل لصالح قضيته أو ضدَّها، وكان بحاجة في النهاية إلى أن يسمع جواباً حاسماً بأنه سيربح قضيته ويعود إلى أرضه، أو أنه سيضيع كل شيء ويضيع إلى الأبد. بيْدَ أن المحامي طوى الوثائق ووضعها جانباً، ثم قال بهدوء وهو يخط على ورقة أمامه عنوان العربي :

ـ يكون خير إن شاء الله.

ثم قام يودعه، فاخترقا من جديد غرفة الاستقبال، وذهن العربي مشغول بشيء لم يعرف ماهيَته، شيء يثقله كأنه نسي عنصراً في القضية أو وثيقة ضيَّعها. شيء ما أحس به محيِّراً له منذ فترة من جلوسه مع المحامي على المائدة، وربما قبلها وألح عليه الآن كالهمِّ الرازح دون أن يعرف ما هو. وعندما واجهه المحامي عند العتبة ليودِّعه، وقبل أن يفُوه هذا بكلمة، مد العربي يدَه بأصابعَ متفرقة مُشْرعة، وقال في لهجة يمتزج فيها الحزم بالرهبة :

ـ عاهدني.

ـ هه ؟

لم يبدُ على المحامي أنه فهم، أو أنه كان ينتظر شيئاً من هذا. وكرر

العربي وقد تولَّتْه رعشة :

ـ أعطني عهد الله.

وبعد لأي، ابتسم المحامي وهو يمد يده لتتداخل أصابعه في أصابع العربي وتشتبك، والعربي يشد بأقوى ما يستطيع محدقاً في صاحبه بعينين جد مفتحتين مغرورقتين بالدمع.

وعندما سار العربي الحمدوني وراء الخادم في ممر الحديقة، نحو الباب الخارجي ظل المحامي جامداً في موقفه يتابعه.

* * *

5

صباح ككل صباح. ويوم أخذت معالمه تثبت ليصير نموذجاً مكرَّراً في حياة العربي وأسرته. لم تعد الأيام تحمل جِدة، وإن كانت الأعماق تنتظر جديداً في يوم ما، على مدى طويل. ليل يجمع كائنات أربع تحت فراش واحد، يكاد يكون متصلا بعد أذان العشاء مباشرة، ما لم يكن هناك زائر ونادراً ما يكون. ومن تحت الحصير، تلتقط الأنوف الحساسة ريحاً مألوفة لأرض غير مبلطة يدعو ذكرياتٍ غابرة. وفي المسامع يتردد طوال الليل هرْج وركْض، ونفير حاد متقطع يعلو تارة وينحطُّ أخرى، ولكنه لا يتوقف إلا لينبعثَ من جديد : أقدام عديدة مصعِّدة منحدرة، في الزقاق أحاديث الجيران والسَمَر تنتقل بين شقوق البراريك بلا استئذان، والنفير لا ميعاد له، يعلو في كل وقت من ليل أو نهار، ملتوياً بعيداً ؛ ويتضخم في كل أذن، ويرتفع بعد كل جولة منه صوت آدمي مبحوح :

- خدامات كوان... خدامات ماسي...

وتتحرك تحت كل سقف وغطاء، عيون تعوّدت نوماً غير منتظم لنسوة ورجال، تلبيةً لهذا النفير أو ذلك ؛ فترش وجوهها بالماء وتركض في الأزقة منحدرة صوت المحيط، حيث تغيب في معامل السمك. وفي غِبطة تعلن عن نفسها رغم الكبْت والكتمان، ينطلق صوت العربي الحمدوني في ظلام الليل والغطاء :

- مساكين.

رغم كل شيء فهو ليس كهؤلاء البؤساء. إنه ينام ملْءَ جفنيه إذا أراد واستطاع، وإن كان لا يستطيع لأن أرقاً يلازمه في بداية الليل وآخره. وهو ينام إلى أي وقت لو أراد أو استطاع، ولكنه لا يستطيع إلا أن يستيقظ مبكراً لعادة قروية متأصِّلة فيه، وإن كان لا يجد ما يملأ وقته بعد صلاة الفجر في المسجد، فيعود إلى المسكن بعد جولة قصيرة في الغبش ليجد صفية قد أعدت له أي شيء يتناولانه، دون أن يجد أشياء مما يعمل أو يقال.

وتلتفت بنت سويعد إلى جانبها حيث ماتزال البنت وأخوها يغُطان في نوم هانىء، وكأنها تحاول أن تبعث الحركة في اليوم بإيقاظهما، فينهاها العربي عن ذلك :

ـ خليهم ناعسين.

كأنه يسجل أنه أسعد حالا، مادام يملك أمر نفسه، ويجد طريقة تلائمه في تدبير عيش عياله. ولمجرد أن تتحدث الزوجة تقول وهي تزيح إلى الركن شمعة مضاءة، بدأ يغالبها نور صبح متردِّد :

ـ اليوم السبت.

ويجيب برأسه أنْ نعم. معناه أنه أكثر أيام الاسبوع محصولا في (رحبة الزرع) حيث اتخذ العربي مكاناً له في السوق المكتظّة بأكياس الحبوب، يتاجر فيها. في يوم السبت يتقاطر العمال والعاملات على السوق بكثرة : لأخذ حاجاتهم الأسبوعية من الحنطة والذرة والشعير وسائر الحبوب كل حسب طاقته.

وسأل العربي زوجه :

ـ صفيت القمح ؟

ـ ايه.

كان متأكداً من ذلك، وقد وفّرت عليه أن يدفع قدراً إضافياً من المال، لنسوة شُغلهن في الرحبة تصفية الحبوب وتنقيتها من الشوائب، قبل أن يمارس التجار خلْط الأنواع المتلائمة من الجيد والرديء لتصبح نوعاً واحداً.

وتضيف الزوجة :

ـ أكحل. الله يعطينا بركته.

ويرد في لهجة العارف.

ـ الأصفر يغطى الأكحل.

ولم يكن الحمدوني بحاجة إلى أن يتعلم طريقة خلط الحبوب التي

يفرضها عليه السوق. فكل قروي يمارس ذلك على قدر استطاعته ومعرفته، كلما عزم على بيع شيء من محصوله، أما هو فقد أتقن ذلك.

نفختْ صفية على الشمعة فعم الركن ظلام مخيف، وقام العربي خارجاً مُؤْذِناً ببدء يوم العمل قبل ميعاده بساعات. فسوق الحبوب لا تزدهر إلا قبيل منتصف النهار. وقبل أن يتجاوز الباب الخارجي لمسكنه، انحرف نحو ركن إلى اليمين في الصحن، حيث تتكدس بعض أكياس الحبوب، التي تكون رصيد تجارته، وغمس يده في أحدها وخرج بحفنة منه، حكَّها بين يديه قليلا، ثم اشتمها، ورماها في الكيس متمتماً : الله يعطينا بركته.

لم يكن متعجلا في سيره، لذلك كان الراكضون إلى كل صوب يتجاوزونه في الزقاق. خطواته متَّئدة على الجانب الأيمن حيناً وإلى اليسار حيناً، محاذراً ألا يضع قدمه في الجدول النتن الجاري عبر الزقاق، والذي يكوّن مجراه الرئيسي ترفده جداول صغرى، صادرة من كل كوخ حيث تلتقي مياه الغسالة والتصبين ومختلف القاذورات السائلة. وكان يحس في سيره بأسراب الذباب المنزعجة من موقع أقدامه وهي تطير، مُحْدِثة طنيناً مرتفعاً كخلايا النحل، تاركة مكان تجمعها المختار إلى حين، لتعود إليه بمجرد ما تتجاوزه الأقدام.

وأسلمه الزقاق إلى زقاق آخر أفسح، يخترقه ويتضخم فيه الجدول نسبياً، ليعرِّج إلى فسحة أخرى طويلة عريضة، يخترقها في الجانب الأيمن حفير عميق، تتجمع فيه وتركد سوائل الجداول النتنة. وعلى حافة هذا الحفير تقوم سلسلة حوانيت متراصّة للحلاقين وباعة الأسطوانات الغنائية وإعارتها مع آلات الفونوغراف اليدوية، التي تظل طوال النهار مُشْرعةً أبواقها تتداخل نداءاتُها على نحو مزعج لا ينقطع إلا آخر الليل. وبموازاة الحفير، على بعد أمتار معدودة يمر خط حديدي صغير، لقاطرة تظل تنوء طوال اليوم بجر عرباتها من مقلع الأحجار شمال الحي، إلى جنوبه، حيث تُفرغ حمولتها في معمل الاسمنت والجير. وعلى يسار الساحة تقوم بقعة يختلط فيها من بداية النهار باعة الخبز والسجاير واللصوص، وتنتصب على حواشيها مقاعد على شكل مقاهي ومطاعم تقدم لزبائنها الحريرة

والسمك المقلي والأمعاء المشوية، وغير ذلك من المأكولات الرخيصة، تتداخل روائحها مع روائح الحفير، وصياح الأبواق وأصوات الباعة المشترين وصفير القاطرة المنهوكة. فيتكون من ذلك كله كيان يوم نموذجي من أيام الكاريان سنطرال.

ومن أحد جوانب هذه الساحة ينفتح زقاق شديد الضيق قصير، يؤدي مباشرة إلى (رحبة الزرع) وهي ساحة كالبحيرة تحيط بها البراريك من كل جهة. وفي أقصى طرفها الآخر منفذ مماثل.

كانت الرحبة في هذا الوقت المبكر ما تزال فارغة ساكنة، والأكياس المتراصة بعضها بجانب بعض، أو يعتلي بعضه، وقد امتدت فوقها قطع الثوب المشمع وقاية لها من رطوبة الليل. وكان الحارس الليلي الخاص بالرحبة، يتجول بين هذه البضاعة طوال الليل يتقدمه كلب نشيط.

ووفّر العربي على نفسه أن يسمع صوتاً ناهراً متسائلا :

- أشكون هنا ؟ هيه ؟

فنادى وهو يتجه صوب الركن المعتاد للحارس الليلي بين الأكياس :

- با با عبد القادر، صباحك.

ورد صوت متثائب، وصاحبه يقوم من مقبعه يتبين مصدر التحية :

- آه سي العربي... صباح الخير والربح.

وبدأ العربي يتحرك مقترباً من الرجل محاولا أن يفتتح معه حديثاً سائغاً :

- الحال سخن.

وتثاءب الحارس وهو يرد :

- سخن على المغطي في داره... أما تبريدة كانت قبل الفجر.

كان حريصاً على أن يسجل صعوبة عمله الليلي في كل مناسبة ولو كانت مجرد حديث عابر بلا هدف. فرجال رحبة الزرع إن كانوا يقضون

ليلهم نائمين، فذلك بفضل سهره ويقظته، ولذلك كان ما يفتأ يطلب منهم أن يرفعوا حصة كل واحد منهم في أجرته.

واستمع إليه العربي الحمدوني، دون أن يعترض، حتى إذا انتهى الحارس من ذلك علّق العربي بالدعاء :

ـ الله يخليك لنا.

وغيّر الحارس لهجته إيذاناً بتغيير الموضوع :

ـ ما نعست لا أنا ولا الكلب... طول الليل وهو ينبح وأنا تابعه. ولم ينتبه إلى أنه يعترف ضمنياً بأنه ينام (ولو أحيانا) هو والكلب، وأن هذا لا يرضي أصحاب البضائع بحال من الأحوال، بيْد أن همَّه الذي كان منصرفاً إلى صعوبة هذه الليلة بالذات، هو ما جعله يغفل عن مراقبة لسانه. ولم يكن للعربي أن ينتبه أيضاً إلى فلتة لسان صاحبه : فالمودة بينهما طيبة، وهو يبحث عن مُؤْنس ريثما يبدأ عمل السوق، والواقع أن بابا عبد القادر حارس عتيد للرحبة، قضى في خدمة أصحابها سنوات عديدة، لكنه لم ينكر أنه لم ينصرف لمهمة حراستها، إلا بعد أن أسلمته مغامرات الشباب وأفران المعامل، وصهاريج الملح، وزوابع البحر... هيكلا عظمياً متداعياً، لم يعد يملك من بقايا الجبروت إلا صوته الناهر.

وتساءل العربي عما سبب قلق الحارس، ونباح الكلب طوال الليلة في لهجة من يهمه الأمر :

ـ لا باس ؟

وردّ الحارس في لهجة تهويل واستخفاف :

ـ جماعة من الزناديق... ضربوها بسكرة وبقوا سارحين طول الليل غاديين جايين بالغناء والشطيح والهرج.. لو ما كنت كانوا دخلوا هنا.. وأنت عارف.

كان كل هذا بالطبع يدخل بمنطق ضمني خاص في تصوير المشقة التي يتكبدها الرجل في الحراسة، وفي أحقيته إن لم يكن في رفع نصيب

مساهمة كل واحد في أجره، فعلى الأقل في أن ينال من بعضهم قسطاً من الذرة أو الشعير مرة بعد أخرى. وسايره العربي في أفكاره، لم يكن إذن خطر على البضاعة ولا حدث شيء مما يهدد سلامة الحارس الليلي حقيقة، سوى أنه يُهوِّل ليثبت جدارته وكفاءته... وجلس العربي إلى جوار صاحبه الذي عاد إلى مجلسه الدافئ، ووضع إبريقا صغيراً من الصفيح على المجمر الذي ما تزال بقية نار تحت رماده، وانكفأ الحارس ينفخ هوْناً من فيه. كانت عملية النفخ هي وحدها القادرة على أن تدفع حَنكيْه خارج فكّيه الفارغين، ليعودا إلى مكانهما بإصرار ملتصقين بالعظم ممتصّين إلى الداخل، ينزل عليهما أذُنا طاقية ثخينة ملتفة على الرأس، تحت عمامة جعلها تلتفّ حول عنقه اتقاء البرد، وحول وجه تشابكت فيه تجاعيد شيخوخة قاسية. وبعد أن صبّ للعربي كأساً، انصرفت يداه المعروقتان إلى لفّ سيجارتين بمهارة فائقة، عرض إحداهما على رفيقه وأشعل الأخرى لنفسه. وراحا يدخنان بهدوء يخالطه سعال متقطع للحارس العجوز. وعلّق العربي كأنه يكتشف ذلك لأول مرة، وينبه إليه :

ـ بابا عبد القادر... هذا برْد عندك.

وردّ الحارس مؤيداً ذلك :

ـ برْد، وقديم من أيام البحر... وتعرف... البحري، دائماً عريان وسخون، ما يخاف من شتاء ولا من ريح... ولكن... يقعد على البحر يمرض... هذي بالتجربة ما فيها شك. كنت مع راسي صحيح فصيح في البحر...

ـ عندك الحق.

وصمت الحارس كأنما تتابعت صورة الماضي وتداخلت أمام مخيِّلته، واختلط فيها هدير البحر بأصوات البحارة يُلقون الشِّباك أو يجمعونها. واشتدَّ بينهما صمت لم يقطعه سوى صوت القطار الصغير، لاهثاً من ثقل الحمولة المقطورة وراءه، مُؤْذناً بنهاية ليل الحراسة، فقام بابا عبد القادر يجمع ما كان يفترش من خِرَق بالية، وقطع أوراق المقوّى ؛ ولمَّ كل ذلك

في ركن بين الأكياس مع سائر مُعدَّاته. وقبل أن ينصرف، ودّع صاحبه، وكأنه يُتوِّج ما دار بينهما من حديث :

ـ ما تدوم صحة يا أخي.

وأمَّن العربي على كلامه وهو يتابع الهيكل المتقوِّس أمامه، يجر إلى جانبه على الأرض عصاه الطويلة، وعلى يساره كلبه الأمين.

* * *

ارتفعت مع الشمس ضجَّة الكون. انفتحت أكياس الحبوب، وتراكمت أكوام الذرة على الحصائر ملوّنة صفراء حمراء. وتداخلت الأقدام في مواطئها على أرض لا تُنبت، تضغط في التراب حبّاتٍ ضالَّةً هنا وهناك. ومن مدخل الرحبة تعالى شخير مطحنة تدفع دخانها الكثيف إلى السماء، وقد تربَّعت على الأرض حولها نسوة ينخلن الزرع، ويُصفِّينه قبل طحنه للراغبين. وتنقلتْ بين الأيدي في السوق ريالات وفرنكات :

ـ الذرة أربعة... والقمح سبعة... والشعير ثلاثة.

ـ غالي ؟

ـ المليح بثمنه.

ـ الله يعطينا بركته.

ـ آمين... شعير زعير ثلاثة ونصف.

ويتتابع ركب المتسوّلين متقطعاً حافياً ممزقاً :

ـ صدقة على الله.

ـ باسم الله. هاك.

ـ على الله.

ـ الله يسهّل علينا وعليك.

ـ على الله.

ـ قلنا لك الله يسهّل... اخ.

يتلاشى صوت ليعقبه آخر...

- على الله صدقة...

ولم تهدأ الضجة مع منتصف النهار، ولكنها استكانت بتوقف صفير القطار، وانقطاع شخير المدخنة مؤقتاً. وأقبلتْ خدوج على والدها بالغداء المكوَّن من خبز وشاي، فالتفت يمنة ويسرة منادياً جيرانه في السوق واجتمعوا أربعة، وجلسوا متربعين حول البراد وكؤوس الشاي، وقطع غير متجانسة من خبز أحمر، وأبيض، وأسود. وأحضر كل منهم شيئاً مما تبقّى من إفطاره، أو ينتظر به غداءه.

... فتلك عادتهم، يحضر كل منهم زاده أو يجتمعون على زاد أحدهم في السوق، جماعات يأكلون ويشربون ويتبادلون الأحاديث :

- الصيف قرّب.

- الفلاحة ضعيفة هذا العام.

- أنت كنت في زعير ؟

- لا زعير ولا الحوز... الزرع ضعيف في كل موضع.

- والثمن ؟

- يا أخي المليح بحقه.

- أهاه.

همّ واحد يجمعهم : توقُّع محصول السنة ليدبِّروا أمر ما عندهم من رصيد. وفترة ما قبل الموسم الجديد، هي أحرج ما يمرون به من أوقات، إذ على ضوء ما يتوقّعون يتخلصون أو يتمسكون بما تحت أيديهم، قبل أن يغمرهم المحصول الجديد.

- باقي عندك أنت من المعلوم ؟

- باقي الخير.

- اعطني منه، نخلطه بالآخر.

ـ والقُطْنية ؟

ـ كل شيء موجود.

وانفضَّتْ جماعتهم مع ارتفاع الصوت المبحوح لقاطرة الحجارة وهدير غير متوازن لمطحنة الرحبة، ولم تمْض على ذلك ساعة حتى عادت الحركة إلى نشاطها.

تنفَّس اليومُ الصعداء عند الغروب. وانكفأتْ ظهور نسوة وأطفال على أرض الرحبة منقبةً عن حبوب ضالَّة متناثرة هنا وهناك، تجمعها لتصنع من القليل الزهيد كثيراً وبركة. وانتشرت أغطية المُشمَّع على الأكياس.

وسُمع نباح كلب الحارس يقترب من السوق، معلناً قدوم صاحبه العتيد، وألقى العربي الحمدوني نظرة أخيرة على تغطية أكياسه.

... ورنا إلى حمرة الغروب الباهتة في الشفق، ولعله لمح في أفقها موقفه في البيدر وروائح المحصول تضوع حوله، وثغاء وخوار ونباح يتعالى من كل فجّ منحدراً نحو الدوار، كأنه طلائع الفاتحين ؛ والتفت العربي خلفه كأنه بالفعل سيرى أدخنة متفرقة، تتسامى من البيوت والأكواخ، مفتتحة مساء القرية. مهما يكن فرُفقة الرجل للمحصول ماتزال قائمة، ولعل اختياره لهذه التجارة بالذات لم يأت عفواً، وليس أعزّ على نفسه من أن يحيا ويموت مع رمز الأرض الخالد : الزرع.

* * *

6

فقدت خطواته كثيراً من التهيُّب في طريقها نحو المحامي موهوب. ألم يعاهده ويشاركه الطعام ؟ وماذا بعد اشتراك العهد والطعام في ذهن قروي من شيء يمكن أن يكون أكثر قداسة وحفظاً للإخاء ؟ كان العربي جدّ محتاج إلى صخرة يستريح إليها ويُرخي عليها آماله في خضمّ الأحداث العاتية، فجاء موهوب يجسّد هذا... ولقد أسْلمَ إليه العربي فرْخَ الأمل يُعْنى به وينمّيه. وزياراتُه بين الحين والحين إنما تُنبىء عن تشوُّف لهذا الأمل، يودّ أن يطمئن على سيره الطبيعي حتى وإن لم يكن هناك جديد يستدعي هذه الزيارات. تماماً، كما ترنو إلى جنينها بين الحين والحين فتاة في حملها الأول. وموهوب يرحِّب بزائره، بل لا يبدو أن شيئاً يثير استبشاره كزيارات العربي وأحاديثِه، وآرائه الساذَجة، عندما يسوقه تيار العفوية والألفة، عندما تفارقه الخشْية والتهيُّب. أي سرّ يجمعهما ؟ سؤال طالما راود خاطر العربي، لكنه مطمئن إلى أن قدرة الخالق وعلمها بدخائل النفوس، تُيسِّر لكل خير خيراً. وما كان لقدرة الله العالمة بما أصابه من ظلم، وما تنطوي عليه نفسه من حب للأرض والعباد، أن تتركه فريداً في متاعبه تائهاً.. وكثيراً ما ينطلق العربي في مقارنة وضْعه بوضع غيره، بابن عمه كبور مثلا أو بالمذكوري، أو بغيرهما ممن تسلطتْ عليهم مثل ظروفه، ليجدَ أنه بالنسبة إليهم الوحيد السعيد الذي لم يلْق هوْل ما لاقوا. فابن العم في اعتباره، قد فقد كل أمل في العودة إلى أرضه يوماً.. وهو أكبر هوْل. والمذكوري ما بعد قسوته على نفسه وعلى أهله من قسوة وعذاب... ويبدو العربي مُبْتَلىً بأقلّ من ذلك، فهو يحيا بين نتاج الأرض حتى في بُعده عنها، ويرتع في حريته. شظف العيش عنده أقل قسوة، وبإمكانه أن يبْسط يده في الإنفاق أكثر، لولا احتياط وخوف من مقالب الأيام...

أيكون ذلك جزاءاً وفاقاً لكل بما جنى على نفسه أو على غيره ؟ أما ابن العم، فهو يعرف نزواته القديمة وهي لم تكن تخلو في نظر العربي من سوء

وأما المذكوري فما يستطيع أن يجزم بشيء عن ماضيه... أما هو، فلا يكاد يذكر عن نفسه أنه أساء لأحد أو اقترف ظلماً ضد الغير، إلا ما جرى عن غير قصد. عدالة الله لا تخطيء، وكل يكفِّر في دنياه أو آخرته عما جنتْ يداه. وعلم الله فوق كل علم. ولعلّ بودّ العربي أن ينطلق في مثل هذا الاختبار لعدالة السماء على الأرض، يتساءل إذا لم يكن (النصارى) أيضاً ظالمين ؟ فلم إذن لا يُبتلُون بما يبتلَى به غيرهم، ممن يعرف من محن وعذاب ؟ ولم لا تأخذ العدالة طريقها فيهم أيضاً ؟ مغامرة فكرية لا تروقه وإن كان لا يعدم جواباً شافياً : إنهم غير مسلمين ؟ وكأنهم بذلك خارج طائلة العدالة، أو كأن عدالة الله لا تصيب غير عباده الأوفياء.

انفتح الباب وتقدمه بْريك خادم موهوب، في ممر الحديقة وبعد أن سار أمامه خطوات، أشار له نحو أقصى ركن على يمينه في الحديقة، حيث بدا موهوب على مقعد تحت كرمة تين باسقة الظل يتفحص أوراقاً على مائدة أمامه.

- صباح الخير.

- أهلا. أهلا زارتنا البركة، تفضل.

وأشار موهوب إلى زائره أن يجلس على مقعد بجانبه، وهو ينصرف إلى إتمام ما كان فيه من أوراق. ولو أمكن للعربي أن يتوفَّق في تصور شخص على وجه الأرض، يعيش راضياً لكان صاحبه موهوب في هذا الاكتفاء، وهذه الحديقة الغناء أو هذه (الجنة على وجه الأرض) حسب تعبير العربي في نفسه. وطفق العربي يتفحَّص الأشجار والزهر، وثبتتْ عيناه على أغصان الكرمة التي تظللها ثمار التين مكتنزةً خضراء، تخالطها دُكْنة مبشِّرة بعطاء لذيذ في أجل قريب. إن للتين رائحة يعرفها العربي جيداً وهي تملأ أعماق خياشيمه الآن، ولها طعم أحس أنه يتذوقه، ولها ذكريات غابرة في نفسه منذ عهد الفتوة، عندما كانت الطبيعة تتفتّح عن طيِّب، وتعطي بغير حساب ريحاً رخاء، تذرو القش عن حبات القمح الذهبية ؛ وأقصابُ الذرة تنتصب في الحقول مزدانة خضراء محمّلة بأجود العطاء. وتحت الهضاب على حافة النهر تنتشر كروم التين والعنب وغيره

مُبْهجة بكل صنف... عند ذاك، كانت تُصبح كل بقاع الأرض مرتعاً للمرح، وفتيات القرية وفتيانها مبعثرون هنا وهناك، تتعالى نداءاتهم وضحكاتهم من بين الأغصان الملتفة، وهم يعملون في جنْي الثمار، حتى إذا اشتدت حرارة اليوم، اجتمع الفتيان تحت أضخم تينة على حافة النهر، ووضعوا الأقوات واللباس تحت ظلها، وانطلقوا في ستر الطبيعة يرتمون في الماء...

ـ سبحان الله آسي العربي ؟

قالها المحامي في لهجة من يوقظ صاحبه من نوم. وانتبه العربي من شروده العميق الذي لعلّه دام طويلا، ولعل صاحبه تأمله فيه طويلا أيضاً، ولعله تبيّن كثيراً مما لم تفُهْ به شفتا العربي وعبّرت عنه ملامحه. وردّ كالمعتذر :

ـ أعوذ بالله. خاطري سرح مع البلد ؟

حرك المحامي رأسه :

ـ لازم، تنسى البلد... مرة مرة...

ينسى ؟ وكيف ينسلخ عن جلده كيف ؟ سمع المحامي منه هذا مراراً ولا حاجة لتكراره. ولكن لمَ يكرر عليه هو بين الحين والحين أن ينسى ؟ أيكون لذلك دلالة ما، أم مجرد إشفاق عابر ؟ وردّ العربي :

ـ هذي الكرمة عندك فكّرتْنيَ في كثير...

وكأنما انتبه المحامي إلى جلستهما لأول مرة فأدار بصره في البقعة وأكّد :

ـ حتى أنا بحالك.. وما عندي ما أحلى من القعود هنا. وأحضر لهما بْريك شاياً، وعندما ولّى منصرفاً ظل العربي يتابعه، ثم قال كالمعلّق على خواطره :

ـ هذا الرجل عندك ولد الناس.

وأكد المحامي :

- بْريك ؟ صحبتنا قديمة وما عندي صاحب غيره، وغيرك أنت !

تأثَّر العربي في باطنه لما يعرب عنه المحامي نحوه. وتأكّد له أن بريك ليس مجرد خادم للرجل بل هو رفيقه ؛ وشخص كموهوب لا يمكن أن يرتبط بقلوب لا تتعلّق به. وتوقف العربي، ولكن شيئاً ظل يبدو على ملامحه، متردداً فتساءل المحامي :

- مالك ؟

وتلعثم لسان العربي بالسؤال، بتشجيع من صاحبه :

- قل، خلاص.

وطفق العربي يعدِّد ما ينعم به صاحبه من خير، وهو يمهد بذلك لسؤال لا يبدو أنه مقتنع بشرعيته :

- الدار كبيرة، والخير موجود... والصحة تبارك الله... واتسعت ابتسامة على ثغر المحامي، كأنه أدرك ما يريد أن ينتهي إليه ذلك القروي، واستوقفه :

- مرادك تسأل على مولاة الدار ؟

وأكّد العربي كالمجرم :

- المقصود... الوليدات والسلام.

واكتسى وجه موهوب ملامح جدّ وهو يُفْضي بشيء من دخيلة نفسه لصاحبه :

انه لم يحس قط بحاجة إلى الإنجاب بعد حياة كلها تغرب مستمر. لا ينكر أن الفكرة راودته أحياناً، ولعله عزم في فرص عديدة على تنفيذها، إلا أن شيئاً ما، كان يوقفه في آخر لحظة كأنه في باطنه غير راض : أو لأنه غير مستقر ؛ ولم يخلُ يوماً إلى نفسه إلا وهاجمه شعور بأن شيئا ما، سيعكر صفو هنائه. بوده لو يتخلص من هذا الشعور ويكف عن التفكير بأنه إن رزق أبناء، فلن تتاح له فرصة تربيتهم ورعايتهم لسبب مجهول، وأنه إن تعلق بامرأة أو تعلقتْ به فلن ينعم أحدهما بالآخر. وقد يكون ذلك

من تأثير رفاق له، تزوّجوا في أروبا أو تركوا زوجاتهم وأبناءهم في الوطن، فلم ينعموا بشيء من دفء الأسرة، وامتلأت أنفسهم عوض ذلك بأحزان مقيمة، دفنوها دون جدوى في الخمر والشجار والقمار. أم هو تأثير طفولة لم تعرف في سيرها خطّاً مستقيماً ثابتاً مستقراً ؛ أم تأثير صرامة عسكرية صهرته منذ يفاعته، ووجدت في طبعه تربة خصبة ؟ لم يفارقه قطّ خاطر أمرٍ خفي يصدر إليه مزعجاً نومه لينطلق في مهمة أثناء الظلام وانهمار المطر. ولعل تخليه عن مهمته العسكرية عند أول فرصة سنحت له، مجرد محاولة للتخلص من ذلك الخوف المقيم. أم أن ما رآه من أهوال الطفولة والبشرية المشردة في وطنه، وغيره من أوطان افريقيا، ركّب في نفسه هذا الشعور ؟ لا يدْري على وجه التحديد. ولكنه يعلم يقيناً أنه يتهيّب من تكوين أسرة كما يتهيّب من مغامرة مجهولة محققة الأخطار. والمرأة بالنسبة إليه ليست مجرد متعة والا ما كان ليشكو أو يتألم، لأن المتعة ميسرة له، لكنها بالنسبة إليه أم وأخت وزوج، دفء وحنان وعش وهدوء يجب ألا يتعرض لسوء، فمن يضمن هذا أو من يخلّصه من شعور بضرورة الضمان ؟ والثروة عاجزة، وهي ظل زائل لم يشعره بالطمأنينة يوماً.

وبدا واضحاً أن العربي يجد صعوبة في فهم صاحبه. ولو حاول أن يفسر هذه الحال لعزاها إلى سحر أو عمل روح شرير ركب صاحبه فأفسد عليه مزاجه. لذلك ما إن توقف موهوب، كمن يجد بدورهِ صعوبة في التبسيط، أو يبحث عن طريقة يقرّب بها مفاهيمه من سامعه، حتى بادره العربي :

- الزواج فرض يا أخي وما فيه غير الخير... اِنْو الخير تلْقَه...

ويعلن موهوب أن فكرة الزواج كلما خالطته ملأ عليه الرؤية حذاء ثقيل، من أحذية الجنود يطأ بكل قوته، حضانة دجاجة تقفز مُفْزَعة، من طريقه وريشها يتطاير... كيف ارتسمت في ذهنه هذه الصورة ؟ متى وأين ؟ لا يدري، لكنها لا تفارقه.

ويؤكد العربي. في لهجة من يحنو على طفل مدلَّل :

ـ اخْزِ الشيطان. صلّ على النبي، وتزوجْ.

ويغيب موهوب برهة في رؤية بعيدة عميقة كأنه يتهجّى سطوراً في الغيب ليعود إلى جليسه متسائلا :

ـ وأنت، كيف أحوالك ؟

وبلهجة من يشعر بذنبه في إثارة أحزان صاحبه أجاب العربي :

ـ لا بأس، الحمد لله.

ـ الأولاد وأمهم ؟

ـ لا بأس عليهم.

ويكون ذلك تمهيداً لحديث المحامي عن القضية. حديث يتجاوز سمع العربي الحمدوني، ليستقرّ في قلبه بكل إشاراته وعباراته، بما فيه من إيحاءات وتأويلات. ويمضي العربي مستمعاً يستفسر ويستوضح ويعيد. ويتوقف المحامي ليسأل صاحبه من جديد :

ـ قل لي الجد.. أنت عمرك ما بعتِ قسمة من أرضك أو... ؟

ويؤكد العربي وعيناه جاحظتان :

ـ أبداً أبداً. هذه عمرها ما كانت.

ويتابع المحامي في أناة :

ـ عمرك ما وقَّعت أي شيء، ما نزَّلت خطّ يدك أو أصبعك على ورقة أو شيء.. ؟

ويرد العربي بلوعة :

ـ أبداً وحق...

ويمنعه المحامي من أن يحلف. إنه يصدقه. علائم الصدق بادية. ففيم القسم، وفيم السؤالِ وأين حدْس المهنة إذن، إن كان يخامره الشك في صاحبه ؟ أم أنه ألقَى عليه السؤال لِمجرد العادة، لكثرة ما ألقاه على أمثاله من زبائن، ليختبر صدقهم ويقارن أقوالهم باستنتاجاته ؟ العربي إذن ليس

إلا زبوناً كغيره، رغم ما يوهِم به نفسه من أنه وُفِّق إلى أخ شقيق في شخص محاميه وصديقه. المسافة إذن ما تزال قائمة بينهما، ولعل العربي قد أخطأ الحساب... أتكون هذه بداية صدَماته ؟ لو قدر موهوب غوْر الطعنة في أعماق صاحبه بهذا السؤال لتردّد كثيراً قبل أن يُلقيه.. أوَ لمْ يكن الأولى أن يرتفع بينهما حجاب الشك والشكليات... أيُقدر موهوب أن العربي باع أو وقَّع ثم جاء يحتال ويدّعي، كبعض زبائن يأتي الواحد منهم متحدثاً باسم البراءة، صارخاً من وقْع الظلم، ثم سرعان ما يتبين أن المتظلم أكبر ظالم أو محتال ؟ مكر بمكر. مكْر المحامين والمدافعين ؛ ولكن العربي يقدّر أنه وصاحبه، زوْج فريد، من طينة أخرى. ترُى عن أي هول سوف تتكشّف الأيام ؟

وكأنما كان موهوب يتابع خواطر صاحبه فطمْأنه إلى أن استقصاءه إنْ هو إلا تمهيد لما يجب أن ينْجَز في القضية، ويتقبل الحمدوني هذا التبرير كعزاء، وإن كان في أعماقه ما يزال يُحس ألمَ الجرح. وما العمل في نفس أرهقتها الأحداث، فأصبحت رغماً عنها، تهتزُّ لكل عابر هزة العنف ؟ لكن حديث موهوب يفاجيء أو يُنسي ويُبرر كل سؤال، ويعلو فوق كل جرح. ويصرخ العربي.

- زوَّروا عليَّ ؟...

ويؤكد موهوب ذلك مرات بإيماءة من رأسه. فقد انتهى بحثه إلى أن يكتشف في ملفات المحافظة العقارية، وثائق قانونية باسم موكِّله وصفاته وتوقيعه، يتنازل فيها عن كل نزاع بينه وبين خصومه حول عدة بقاع من أرضه، ويصرِّح بأنه أكرى أرضه نظير مبلغ من المال لمدة غير محدودة... وأنه قبض الثمن أمام الشهود والعدلين...

وبينما يستمر العربي مبهوتاً يؤكد المحامي أن هذا التزوير سيكون في صالح القضية إن أمكن إثباته. وأن هذه الواقعة تعطي لموهوب دافعاً جديداً للاستماتة فيها حتى ينتصر. وارتعش كيان العربي تأثراً والدموع تراود عينيه، وغيظ وضيم يغليان في أعماقه ؛ أعماقه بئر شفّافة ينعكس ما في قرارها على السطح، وتتشكّل بكل حادث. وربتَت يدا موهوب على كتفيه،

وعيناه الخبيرتان دون شك تغوصان في ذاته بما يساند ويواسي، وقبضته عليه عند الوداع تُنْبىء للحدْس الصادق عن عزيمة وتصميم.

وقبل أن يرمي العربي خطواته الأخيرة خارج الدار، التفت إلى مجلس صاحبه كأنه يريد أن يطيل أمد اللقاء أو يتزود بنظرة مشجِّعة، لكن المحامي كان قد غادر مكانه وغاب داخل البيت ؛ وعندما عاد إلى نفسه، والتقت عيناه بنظرة بريك يهم بإغلاق الباب، أحس كأنه يراه لأول مرة، وعانى شعوراً غريباً من ذلك.

7

أذن الضحى بازدحام السوق، واختلطت كالعادة أصوات المتساومين في سوق الحبوب، بهدير المطحنة، وبصفير متعب ترسله قاطرة الحجارة متلمّسة طريقها في زحمة الناس، وتعالى ذكر الحي القيوم ؛ مع دخان مبخرة (الفقير) تجوب الاركان في الوقت المعتاد. واشتمَّ العربي رائحة البخور من بعيد، وبدا يتطلَّع لمصدره، ومصدر صوت الذّكر المصاحب حين بدت أمامه طفلة تنتحب باكية، كاد بصره يتجاوزها متطلعاً إلى ما وراءها، إلا أنه انتبه وصاح بدهشة :

- خدوج !

وأخذها من كتفها بعنف مستطلعاً :

- مالك ؟ مالك ؟

لم تُبِن البنت ولكنها همْهمت :

- أمي.

وأشارت إلى حيث وجَّه بصره، فبدا له شبح زوجه بنت سويعد مُتلفِّعة بإزارها، متردّدَة بين أن تظهر له أو تختفي. أسرع نحوها فسارت أمامه حتى وقفت بركن يجعلها مخفية عن الانظار، فما يجوز أن يراها رجال السوق تحادثه. بيْد أنه كان في غفلة عن كل هذه المراعاة. ما الذي يجعل زوجه تقدم وبنته تبكي ؟ وقبل أن يهتف بها لتشرح له الموقف، علَّقت بغيظ على ما بنفسها متوعدةً البنت على سوء صنيعها :

- الحرامية مِن فعْلها..

- مالها ؟ مالك ؟

لقد أرسلت ابنتها في طلب العربي منذ أكثر من ساعة، حتى إذا يئست من عودتها في الوقت المناسب، خرجت بنفسها لتجد البنت ما تزال في منتصف الطريق، سادرة تتفرج مع المتحلقين حول معتوه يتلوّى في إحدى

نوبات صرع، فما ملكت إلا أن (سخنت قفاها) بصفعة مفاجئة لِكيان البنت، فسارت في طريقها تبكي ولا تلوي على شيء، بعد أن تذكرت مهمتها...

ـ أيوه ؟

انجابت نصف حيرته على هذه البنت ففيم كل هذا ؟

ـ واحد اسمه بريك. يقلّب عليك.

دارت أمامه الأحداث والوجوه في لحظة خاطفة، ولم يزد على أن ردّ عليها بحزم كأنه ينهرها :

ـ سيري.

وغابت في الحين كظنين يلتقط لفْظ براءة من شفتي قاضيه وعاد العربي إلى ابنته يأمرها بالمكوث مكانه بجانب البضاعة وغادر السوق مسرعاً غافلا عن غمامة البخور، وصوت الحي القيوم...

طالعه عند مدخل الزقاق على بعد، مشهد درّاجة تلمع أسلاكها المعدنية على أشعة الشمس، وقد تحلّق حولها أطفال لمراقبتها، ورؤوس الفضول تطلّ من أبواب نصف مفتحة... دراجة في الزقاق لابد أن تكون حدَثَه البارز هذا اليوم ولأيام عديدة بعده. وبدا وجه بريك يتميز شيئاً فشيئاً، والعربي يقترب منه. وما أن سلم عليه حتى بادره بريك في لهجة المستعجل.

ـ يا الله. اركب.

وقبل أن يتساءل العربي، كان بريك قد امتطى سرج الدراجة، مشيراً على صاحبه بأن يركب وراءه في المقعد الخلفي... وتبعهما الأطفال في شغب إلى منعطف الزقاق، مستمتعين بأزيز اللوالب. ولو كانت المناسبة غير هذا لاهتم العربي بزجرهم، لكنه فيما يبدو كان في شغل شاغل بسبب دعوته من قبل المحامي، فظلّ ساهماً عن ذلك، والعجلة تهتز به وتتلوى تفادياً للحفر... إلى أن تجاوزا الأماكن الآهلة وهما يقطعان المسافة الطويلة نحو مركز المدينة، وسأل العربي صاحبه بما يُبين عن لهفته :

ـ هو في الدار ؟

ـ لا. في المحكمة.

ـ قال لك... شي... حاجة ؟

ـ لا... تأخرنا عليه.

وحرّك رجليه مضاعِفاً سرعة الدراجة المنسابة في دورانها المستمر.

* * *

نفس الخلائق تسعى وتضطرب في خضم الحيرة، أعمدة البناء وحدها وأقواسه كانت بمنجاة من ذلك. خواطر التوقع والتوجُّس تموج في باطن العربي. أمواج الافتراضات والتشاؤم يدافع بعضها بعضاً. ليس لمثله أن ينتظر مفاجأة سعيدة. الأَوْلى به ألا ينتظر شيئاً من ذلك. ومع كل ذلك، فكل شيء ممكن في ملكوت الله. أتتداركه الرحمة أم يعصف به عنف جديد ؟

وعندما لاح له شبح المحامي متلفعاً ببذلة السواد، خارجاً من إحدى القاعات متوجهاً إلى أخرى، قفز نحوه، إلا أن هذا أشار عليه بالانتظار دون إيحاء بشيء. وبدت له ملامح المحامي وخطوه ثقيل عنيف. تُرى ماذا يحمل لصاحبه اليوم ؟ مهما يكن فاليوم بداية تاريخ جديد في مصيره، وإلا ما كان موهوب ليتحمّلَ مشقة استدعائه على نحو ما فعل، ولأرسل إليه بطاقة كالمعتاد، كلما احتاج إلى معلومات جديدة في القضية. إذا كان خبر اليوم سعيداً، فأية أفراح تنتظرك ؟ أية ولائم للفقراء وبيوت الله ؟... وهَنُ الرجل عاجز عن توقع خبر سعيد بهذه السرعة. سرعة ؟ قضية توشك أن تبدأ سنة جديدة من تاريخها، منذ تسلّمها موهوب، ومع ذلك فهو يشعر بأن الفرج إن حدث، فقد جاء بسرعة. تُرى ألم يكن يأمل أن يتحقق الفرج يوماً ؟ أكان يخدع نفسه طيلة الوقت، وهو يكسي يأسه أملا، ليظهر على حقيقته اليوم ؟ وإذاً ماذا يميز يوماً عن يوم، ولمَ يحتمل اليوم خبراً جديداً سعيداً ؟ لحظة حاسمة، لا تُقدر بمقدار، خاطفة كلمح البرق، قاطعة، سيسمع فيها شيئاً ثم تتلوها لحظات متراخية بلا أهمية ولا عنف، كأنها

عديمة الطاقة، مُفرَغة. ولشدَّ ما تلمع في ذهنه لحظات من حياة سعيدة، ولو مرة بعد مرة، أدت مهمتها بما يدبِّر له في الخفاء :

ـ كلهم ضدك... اسمعني، اخرج من البلد أحسن لك.

كان العربي قبل تلك اللحظة، ما يزال يشك فيما يدبَّر له، أو أنه لم يكن يريد أن يصدِّق، فظل يعزو المضايقات المتتابعة إلى الصدفة، أو سوء تدبيره، أو إلى خصومات تافهة بينه وبين البعض. لكن قريب زوجته صفية، وصديقه المقدم إبراهيم، وضع له اللحظة الحاسمة بما لا يحتمل تكذيباً.

وتتابعت أمام عيني العربي شتى الصور نابضة بالحياة. يخرج من بلده، يترك أرضه، ومواشيه، وكلابه، يترك علاقاته وأهله، دائنيه ومدينيه، وُعوده ومشاريعه، ليحاول أن يولد من جديد، وهل يستطيع ؟! ثم تتراخى بعد اللحظة الحاسمة، لحظات لا أهمية لها ولا عنف، ليرد على اقتراح المقدم الصديق :

ـ الخروج من البلد... يعني الهروب.

... ويرد المقدم إبراهيم ببعض الحدة :

ـ خروج أو هروب... يدبر لراسه... المهم تغيب من هذه الحارة.

إيبه ؟! وأين يخرج الآن، أو يهرب إن صنع له المحامي لحظة مماثلة ؟ ألا ليت حبل الأمل يطول... يطول...

ليت لحظة سعيدة تشرق.

ولا يبدو على موهوب ما يوحي بالإشراق، وهو يسير إلى جانبه لينفرد به في مكان ما بمقهى (الأَرْشي). كان يبدو متعباً متصلباً في منتصف يوم مشحون، جالساً إلى الطاولة قرب واجهة زجاجية على الشارع.

ـ اليوم عندي لك شيء مهم.

لم ينبس العربي بشيء، ولكن جوارحه كانت تتحفز للسماع. وجاء النادل يتفقد الطاولة، ويمسحها بحركة روتينية، منتظراً ما يطلبان. وفاه له

المحامي بكاسي شاي، ثم استأنف وجليسه ينتظر :

- الآن تحققنا من التزوير... وأصحابك حصلناهم !

وما دلالة ذلك وما معناه بالنسبة لمُتلهف على الأرض والأرض وحدها ؟ ما دلالة أن يتوصل المحامي بالحجة الثابتة إلى أن موظفين بالمحافظة العقارية أو غيرِهم قد خالفوا قواعد مهمتهم، وارتشوا ليكتبوا على لسان العربي تخليه عن حقّه في التعرض لصالح خصمه المستعمر، وأنه ارتضي معه الصلح نظير ذلك ؟ وما معنى أن يكتشف المحامي بحذقه ومهارته، وبما لا يدع شكاً، أن المحافظ الكبير، رئيس المحافظة كلّها، خالي الذهن من هذه الوثيقة، وأن الملف الأصلي من طلب التسجيل الذي تقدم به الخصم، لا يتوفر على وثيقة من هذا النوع ؟ ما معنى وما دلالة هذا التناقض بين الأصل والفرع في وثائق المحافظة أهي اللحظة الحاسمة تتجمع خيوطها ليقولوا له : ارجع إلى بلدك وخذ أرضك... كما قيل له ذات يوم : اخرج... أم أن يقال له من جديد : عليك إثبات براءتك من الوثيقة الأولى المُثبتة في الفرع دون الأصل، ويستطيل به عجز الظلم والاضطراب... أم يقال له في لحظة من لون آخر : لا شيء لك... ؟

واستأنف المحامي وهو ينُفُث دخان سيجاره بقوة، ويبتسم ابتسامة خفيفة بدت للعربي تُبين عن اعتزاز الرجل بذكائه أكثر مما تشعر بشيء إيجابي في صالحه :

- ها أنت الآن عرفت كل شيء.. القضية تشابكت. ولابد من المشاورة معك.

ويفهم العربي أن جهود المحامي كانت مضنية، بل إنها سارت أحياناً في سُبل ملتوية غير مشروعة بالنسبة لمحام مثله حتى استطاع أن يكتشف في الأخير هذا التناقض والتزوير، دون أن يثير ريبة في المدبِّرين له، الذين أصبحوا الآن لا مخرج لهم بعد الدلائل المادية المنسوخة بأيديهم عن محتوى كل من الملفين... على حدة، اللهم إلا إذا فكروا بإعدام وثيقة من الفرع أو إثباتها في الأصل، وهذا ما لم يعد ممكناً لهم بعد المراحل التي قطعها المحامي في القضية...

وتساءل العربي في لهفة من يريد أن يعرف موقعه من الأحداث.

- والمقصود ؟

ويتابع المحامي حديثه بأن القضية دخلت الآن في مرحلة المساومات.

- يعني ؟

ويرد المحامي بأناة بعد أن يتأمل جيداً سحنة صاحبه :

- يعني ياسي العربي، قدامك الآن مقدار خمسمائة ريال تعويض... وحتى أكثر... !

ويتوقف العربي ساهماً ثم يسأل :

- وأرْضي ؟

تجاهل المحامي السؤال، كأنما قدَّر أن مسافة ما، ماتزال تفصل بينهما، وعليه أن يمهد لقصده بوقائع أخرى تبدأ باعتبار أن أرض موكّله، حتى على افتراض انها أعيدت لصاحبها فسوف تتجدَّد ظروف أكثر تشابكاً وحِدَّة، تُؤدي به وبها، على أنّ بالإمكان تفادي ذلك كله بطريقة ناجحة وخطة ذكية.

ولا يبدو على العربي كبير فهم، فيتساءل :

- يعني ؟

ويشرح له المحامي أن المبلغ المقترح كتعويض، فرصة ثمينة ما كانت لتحدث لولا افتضاح التزوير، وهو تعويض يتعدّى قيمة أرض العربي، ويمكن رفعه بالمساومة ؛ وعلى كل فهو مبلغ كفيل بأن يضمن للرجل شراء أملاك وأراض بالمدينة أهمّ بكثير في مردودها من أراضي القرية، فضلا عن بعدها عن كل المتاعب. ويؤكد المحامي أن أراضي القرى معرّضة للسلب بتخطيط مُحكم لا يمكن دفعه أو تجنبه إلا مؤقتاً، فالحاجة ماسّة إلى العمال في المدن، والمستعمِرون يعملون في تكوين هذه المدن وتنشيطها، وتعميرها، ولا وسيلة لكل ذلك إلا بدفع سكان القرى إلى الهجرة، بمختلف الطرق... بالإضافة إلى أن الممتلكات في المدينة لها مستقبل عظيم.

وبدا أن الموكّل يفهم جيداً خطة محاميه، لكنه غير مقتنع أو هو لا يمكن أن يقتنع بشيء يخرج به عن مطلبه الأصلي، عن أرضه، بيد أن المحامي لم ييأس، إذ كان له هدف محدّد يرمي إليه، فقاطع العربي بشيء من الحزم :

ـ اسمعْني...

وسمع العربي باهتمام كل ما أُلقي إليه، فصديقه المحامي نفسه تتوافر له أملاك كثيرة في المدينة والضواحي، أراضي شاسعة مجاورة للبحر، مردودها الفلاحي محدود في الوقت الحاضر لمجرد أنها لم تجد يداً قوية عاملة تعتني بها، كَيَدِ العربي مثلاً، على أن هذه الأراضي بعد سنوات معدودات، سترتفع قيمتها بما يفوق الذهب، مع التوسع المستمر للمدينة، وموهوب غير راغب في الاحتفاظ بهذه الممتلكات، لأنه يُعد مشروعاً للعودة إلى وطنه، وهو لذلك يعرضها على العربي للبيع، وبكل التسهيلات وبأرخص الأثمان، يؤديها من جملة ما سيحصل عليه من تعويض... إنها فرصة العمر إذا ما قُدِّرت حق قدرها...

وتوقف موهوب. لم يكن من الصعب عليه أن يقرأ ملامح الحيرة مقرونة بالخيبة على ملامح العربي. وسادت لحظة صمت واجم بين الرجلين. قال العربي على إثرها لصاحبه :

ـ انصحْني.

ويرد المحامي :

ـ ما عندي لك غير... تقْبل... هذه نصيحتي...

نصيحة ولكن ؛ أي شيء في ذهنه يمكن أن يعوض عودته إلى أرضه ؟ لو طُلب منه أن يدفع هو المتظلم تعويضاً إضافياً للمحامي أو للخصم أو لأي كان نظير عودته، لقَبِل وفعل. يود أن يعود بلا زاد ولا راحلة، عارياً جائعاً، يكْفيه أن يتمرغ من جديد في تربة أجداده، يُفلحها بأظافره عند الضرورة...

ويقف أمام انتظار صاحبه عاجزاً عن التقدير، بل عاجزاً على أن

يتخلى عن مطلبه الأصيل. فيم إذن هاجر ؟ وما الفارق بينه وبين آخرين... لو أنه على الأقل باع حصته، في الوقت الذي عُرض عليه ذلك وطلب منه، لكان في نفس الوضع بل في وضع أحسن.

وابتدره موهوب :

ـ سر لدارك، وفكّر على خاطرك.

لكنه كان قد فكّر. ولعله إنما يطارد شكه في إخلاص المحامي. مرة أخرى تنتابه الريبة فيه. أيصح هذا ؟ أممكن ؟ ويشرح له موهوب أن الطريق الآخر ممكن، لكنّه صعب وشاق، ويتطلب صراعاً مريراً ؛ وإذا قرر العربي أن يرفض العرض الحاضر، ويسير في طريق الصراع، فسيكون موهوب دائماً بجانبه. فقط، يجب أن يقرر ويتحمل مسؤوليته...

ويتساءل موهوب :

ـ يعني... فكّر وقل لي...

ويرد العربي بحماس.

ـ فكَّرْت... وصافي.

ونظر المحامي إلى موكّله ملياً. لم يكن بحاجة إلى عبارات يفهم بها موقف صاحبه، فملامحه ناطقة بالطموح والتحدي، ففيم إذن محاولات عديمة النفع ؟ وبدا على موهوب أنه يُشفق على سذاجة الرجل، وما يمكن أن تُسبب له من محن. بوده لو ارتفع العربي إلى مستوى آخر من التفكير، لو أدرك أن القضية ليست قضية أرض صغيرة محدودة، يجب أن تتوقّف من أجلها حركة الكون، ويُنصت لها بكل التفاصيل... لا... القضية تبدو أعمّ من ذلك وأشمل، ولكن من أين لهذه الطينة البشرية المحدودة الأفق والتفكير أن تقف على ذلك. ولا ينكر موهوب بينه وبين نفسه انه يعطف على الرجل لسبب مجهول. خيط خفي يربط بينهما، ولعلّ ذلك يفسر كل محاولاته معه، ليجنبه كثيراً من المتاعب، ويصل به إلى حل عاجل، لكن صاحبه تبدّى عن طينة في صلابة الصخر، وعن سهم لا ينحرف.

ونظر ملياً في عين صاحبه من جديد. كل شيء فيه ينبيء عن فكرة

ثابتةَ، عن عزم وتصميم، ولعله أحس أن نظرة العربي إليه تحاولَ أن تخترق الحُجب إلى باطنه، لتطَّلع على نواياه العميقة نحوه. نظرة يمتزج فيها الرجاء والتوسل بأن لا يخذله، أن يقطع معه الطريق إلى نهايته... تُرى أيستطيع أن يسْتشف إشفاقه عليه ؟

ووضع موهوب ثمن المشروب على الطاولة ليقوم قائلا كأنه يجيب على رجاء صاحبه الصامت :

- عوّلْ علي.

وعند باب المقهى، أحس بالعربي يشد على يده بقوة أُدرك معناها. فلم يزد على أن أكد له :

- عوّلْ علي، والله يكون معنا.

وافترقا ليمتد الطريق بالعربي، مترباً ملتوياً مصعداً نحو الكريان سانطرال.

* * *

18

كانت همة عائشة في الزقاق تتجاوز حد دخولها كل البيوت ومشاركتها في كل الأمور، إلى خلق مناسبات تغيِّر من رتابة الحياة فيه، وتجعل مسكنها قِبلة الجميع فتدخله النساء والأطفال، ويتخذ الرجال مجالسهم فيما يُبسط لهم من حصائر في فضاء الزقاق حول المنزل، بعد أن يوضع على عرضه حاجزان من عباءات وأخشاب وحصائر، فلا يبقى منه إلا منفذ يعبر من خلاله قاصدوها، وأفراد المساكن المحصورة بينهما. كانت حياة المرأة مواسم مستمرة من عاشوراء إلى القدِّيدة إلى شعبانة إلى غير ذلك من ذكريات العفاريت والشعوذة والأولياء، ولم يكن من العسير عليها أن تدبِّر أمر ما يلزم من ذبائح لولائم هذه المناسبات، وهي التي لا تملك شيئاً وتملك كل شيء. فلها أماكن وأناس تقصدهم من أرباب الحوانيت والبيوت الكبيرة في أحياء لا تعرفها إلا هي. ومجرد مثولها أمامهم يجعلها تعود بما تشتهي. أما جيرانها في الزقاق، ونساؤهم خاصة فكان عليهن إعداد ما يلزم من أفرشة وأوان للقيام بالطبخ، بينما يقوم بعض الرجال بإقامة الحواجز وإعداد الزقاق ليصبح بأكمله مكاناً للقاصدين. وما يكاد النهار ينتصف في أي يوم من هذه الأيام المشهودة في الزقاق، حتى تكتظَّ أركان مسكن العرجاء بالهدايا من سكر وزيت ودقيق، تسهر على صيانته المقرَّبات إليها، فلا يقدِّمن منه إلا ما يلزم عند الحاجة، لمن يقمن بالطبخ أو إعداد الشاي للضيوف. أما عائشة فتكون في شغل شاغل عن هذا، لأنها (غائبة) في عالم آخر كأنها عروس في يوم الزفاف.

في يوم خالد مشهود من أيام شعبانة كيومنا هذا، تكون المقرَّبات قد أعددن لها حماماً في صحن المسكن، يقام بأعواد من القصب ترصّ على شكل مخروطي، تُغطَّى من الخارج بعباءات صوفية وتوضع داخلها أواني الماء الساخن والجمر... وتخرج عائشة من ذلك متلفِّعة بِالسواد، شعار مالك سرها (ميمون الكناوي)، حتى إذا حان العصر، حضرت جوقة

عيساوية ليقوم كبيرهم بذبح عنز أسود شديد المراس، تشَرب عائشة من دمه، وترشّ به سوادَها لتغيب في نوم سحري لا يفسده عليها أحد، ولا توقظها منه إلا دقات البندير والقصبة عند افتتاح الحفل عند الغروب.

كانت بنت سويعد والغالية من ضمن المدعوات والمتطوعات في هذا الحفل، القائمات على الطبخ. لذلك وجد العربي الحمدوني نفسه منفرداً في مسكنه بابن عمه كبور ثالثهما الصمت، ريثما يكتمل جمع الرجال في مجلس الزقاق ليخرجا ويشاركا بالحضور، وتناول نصيبهما من الوليمة. ولو كانت حالة العربي عادية لوجد في موسم كهذا يهز الزقاق والحي بكامله مناسبة لحديث يفصح عنِ فضول وعن إعجاب ورهبة لهذه المرأة التي لا يعصى لها أمر، ولتساءلَ وأجاب عن كل ما يحيط بشخصيتها السحرية.

... ولو كانت الحالة عادية لوجد كبور في نفس الموضوع وأشباهه عديداً من الحكايات تتمّم معرفته ومعرفة ابن عمه. لكن العربي كان في شغل شاغل ما لبثت عَدْوَاه أن انطلقت إلى كبور، فألزمتهما الصمت والشرود. وبعد لحظة قال كبور :

ـ أنت متأكد بأنه قال لك الحق ؟

لم تكن هي المرة الأولى التي يُلقي فيها كبور مثل هذا السؤال الذي كان يعلم مسبقاً جواب العربي عليه.

ـ مُحال... يكذب عليّ. محال...

كان ضمير كلامهما يعود على المِحامي، ويدور حول العرض الذي قدمه للعربي حين استدعاه منذ أيام خلال هذا الأسبوع. ورغم أن العربي كان قد رفض أن يقبل أي تعويض وأنهى الموقف منذ يومه الأول، فإنه كان غارقاً في هموم من هذا الموضوع، حائراً كأنه لم يتخذ بعدُ قراراً. لذلك ألقى عبئه على ابن عمه ليشركه فيه عند أول لقاء لهما. ولم يتردد كبور في أن ينصح العربي بأن الأولى له أن يقبض ما عُرض عليه، ويتبع نصح المحامي، فيقتني بذلك أملاكاً في المدينة. وأكّد :

ـ خلِّ عليك الخَور، وخذ الفلوس، واشْر في المدينة..

ودلّت حركة رفض من العربي على أنه لم يكن راغباً في نصيحة من هذا النوع، وأنه يعلل بكل تفاهة لتأييد موقفه وقال :

ـ على كل حال... كل شيء فات الآن، والأمر بيد الله..

لعل العربي في حاله، كان مجرد باحث عن صوت يستأنس به في قراره، فلم يظفر بموافقة ابن عمه. حركتُه رفْض، وفكره خيال يسبح في مشاهد القرية والأرض يتفحّصها بقعة بقعة، عَبِقة يشتم عبيرَها، ونارُ شوقه تلتهب ؛ ويرتعش كيانه كلما تصور خطواتٍ غريبةً على أديمها... آه بأي مُقابل يجب أن يؤدى ثمن عودته إليها ؟ لو أن حياته كلَّها تنتهي فجأة بلحظة العودة، لعدَّ نفسه أسعد مخلوق، أمّا أن يعود يوماً ما، ويسير على أديمها مُختالا، فذاك ما لا يتسع له وصف أو خيال. وتنهَّد مكرراً :

ـ أمري لله.

لم يجب كبور. لم يعلّق بشيء، فكل كلمة ستعود إلى الدور الذي لا ينتهي ولا يأتي بجديد. أيقول له مرة أخرى : إن الله قد أنجز عونه إليك، عندما هيأ لك هذه الفرصة ورفضتَها ؟ أيقول له من جديد إنه الآن وقد وجد أمامه عرضاً سخياً، ما لا يحلم به كثير غيره، تفتحتْ مطامعه وخيالاته لما هو أكبر ؟ أيؤكد له أنه ناقص حكمة وتدبير، وأنه قد يكون بسبيل تضييع كل شيء ؟.

... وقاطع العربي خواطر ابن عمه وكأنه يجيب عنها :

ـ هذي الأرض آكبور... ما تنفع فيها فلوس... أرض ما تقوَّم بمال... أرض جدودنا...

أدرك كبور أن لا فائدة من الحوار، وهو لا يعارض مبادئ العربي، ولكنه يرى من أمور الواقع ما يتعجب من أن العربي لا يراه أو لا يدركه. إنه فقط على شيء كبير من العناد، ربما لأن المسافة لم تطُل بعدُ بينه وبين الأرض كما هي بينها وبين كبور وأمثاله، ربما لأنه لم يستأنس بعدُ كما

ينبغي بحياة المدينة. وساد بينهما الصمت إلى أن دق البندير والغيطة، وهرع الأطفال متسارعين من كل فج نحو الزقاق إيذاناً ببدء الحفل.

تربعت فرقة عيساوة مصطفة متكئة على الجدار الخشبي، في فضاء الزقاق، وقد اكتظ الجلوس حولها من رجال وأطفال في جانب، بينما النساء في جانب آخر لم تكن تظهر منهن إلا أزر تلفعن بها. ولم يكن هذا الجمع من سكان الزقاق وحدهم، بل انضم إليهم كثير من سكان أزقة أخرى ومن أطراف الحي كله.

انهمك بعض أفراد الجوقة في تسخين البنادر على نار مجمر استعداداً لوصلة جديدة. وقد ترك الحاضرون مساحة دائرة فارغة في الوسط (للمجذوبين) أو (أصحاب الحال) وهو يشتركون في جذبة (الحيرة) عند كل وصلة. كانت عائشة وسط الجمع وقد تهدّل شعرها، واشتد تنفسها، تحيط بها امرأتان ممن ليس عليهن حجاب يهدئن روعها، ويمسحن عرقَها المنساب بعد جذبة عنيفة. وكذلك كان غيرها ممن شاركن في الجذبة. كل واحد وكل واحدة، يحيط به بعض أفراد يعتنون به ريثما تبدأ جذبة أخرى، وما كاد صدى (ميمون) يرتفع مع تموجات القصبة، حتى يقوم أصحاب الحال يهتزون ويتحركون في أماكنهم، قبل أن يسري سحر النداء والضرب إلى عروقهم، ليقوموا يجذبون بعنف على نغماته. وارتمتْ عائشة رامية بنفسها إلى الفضاء في عنف كأنما سرتْ فيها طاقة جديدة، فتحررت من المرأتين، وانهمكت في حركات عنيفة مسايرة لاهتزاز الدقِّ الصارخ، ترمي رأسها ذات اليمين وذات الشمال، وكأنه كرة معلقة إلى سائر كيانها، وارتمى بجانبها في مثل حالها بضعة نساء ورجال. وطيلة الوصلة كان الحال يشتد ببعض الحاضرين فينفعل بينه وبين ذاته فترة، حتى إذا اشتد عليه الضغط ارتمى في وسط الحلقة فجأة. وكان ذلك يضاعف من نشاط الجوقة وحماستها.. حتى إذا بلغ التعب بأصحاب الحال منتهاه أو قدّر رئيس الجوقة ذلك، توقف فجأة لتتهاوى الأشباح المجذوبة على الأرض حيث هي، فتتلقفها أذرع المهتمين من المقربين، وترتفع بين الحين والحين همهمات (الله يستر)... الدنيا دار العيب... فيقوم رئيس

عيساوة ويطلب من الجميع أن يمدّ يده بالدعاء، وينطلق داعياً وأصوات القوم تردد دعاءه حتى إذا ختم، طاف ببنديره طالباً (هدية الله).

ومع تقدم الليل، يبدأ العمال الذين ينتظرهم قيام باكر في صباح الغد، فينصرفون لأخذ قسط من راحة، بينما يستمر الأطفال وغيرهم في أماكنهم، مستمتعين بمزيد من التفرج ومنتظرين فترة الوليمة، التي لا تفتح إلا في الهزيع الأخير من الليل، حيث تتحلّق كل مجموعة من الناس حول طبق من سكسو ترتفع في قمته قطعة من لحم العنز.

وأعلن كبور لابن عمه في لهجة المستأذن بالانصراف :

ـ الله يجعل البركة.

فقام معه العربي وقد انتهت إحدى نوبات الجذبة، وردَّد في سره طالباً حسن العاقبة :

ـ الله يسترنا حتى يسترنا التراب.

* * *

9

صفاء عنيد وإشراق يكسو صفحة السماء، وقد بدت الأرض والقلوب أحوج ما تكون إلى غمام مظلّل يلوح منه رجاء. الآن تكون الولْجة العنيدة قد تعرَّجت شقوقها وتعمَّقت، متفتحة أفواهاً إلى السماء رجاء الغيث، في جفاف عام لا يذكر العربي أن مثله مرَّ به. وموسم الحرث في نهايته دون حرث. ومنذ شهور، كلما بدت غيوم تتجمع، كلما خفق الرجاء منتعشاً، امتدت يد ساحر لتمسح صفحة الجو من دُكنتها وتُحيلَها إشراقاً وصفاء. وبدتْ للعربي أعناق الرجال متعبة في القرية وأبصارُهم كليلة من كثرة ما تطلعت وحدقت في الصفاء الباهر المقيم. في هذا الظرف، تنسحب الأرض شبراً شبراً من تحت أقدام البعض، لتتجمع عند آخرين نظير آنية من ذرة أو شعير، أو مقابل كيس تبن لدابّة عجفاء. وبدأ سوق الحبوب يقفر من بضاعته، لا لقلة البضاعة، فثَمَّ رصيد ما، ولكن رجاله خبؤوا ما عندهم لمسيرة طويلة مجهولة، قد تُؤذن ببدايتها أول قطرة. لكن الغيمة الصادقة ما تزال مستعصية. ورجال الرحبة يخالطهم توجس متناقض، وكثير منهم نادم على ما فرّط فيه بثمن يبدو له الآن بخساً. وخُيل للعربي، كأنه الوحيد القادر على معاناة حقيقة ما يشعر به سواد الفلاحين. وأنه إلى حد ما غريب عن أحاديث السوق، حيث أسدل التجار قلاعهم على الأكياس أو أدخلوها المخازن، وطفقوا في مواقف انتظار، يتحركون أو يقفون أمام قفاف تملؤها حثالات متنوعة أكثر مما يملؤها الحَب، كانت ترمى، أما اليوم فأثمانها تضاهي أجود الأنواع.

وبين الحين والحين، تصدر نأمة استنكار عن زبون مستهلك أو مستهلكة بعد جولة خائبة في السوق :

ـ الزبل بثمن الزرع...

لكن البائع لا يردّد الصدى، كأنه يستبشر بعجز المشتري عن قبول البضاعة، ليجدَ ذريعة لتوفيرها إلى وقت آخر. ويحرك البائع رأسه حركة عليم بما يدَّخره الغد. ويرد على استنكار صاحبه :

ـ الزرع والزبل كله نعمة.

وتمضي حركة أيام ثقيلة بطيئة، لم تعد تتخللها حتى جلسات الشاي المعتادة بين رجال الرحبة، كأنما بطون القوم في حداد، أو هي تقتات خلسة، والطقس خانق يرفض الانتساب لأي فصل معهود :

ـ زَمْت، في هذا الوقت ؟ هذا عمره ما كان.

ويرد بابا عبد القادر، وقد أصبح في شبه عطالة عندما لم يبق شيء ظاهر، تحرس الرحبة من أجله ؛ وشحّت الأيدي :

ـ الزَّمْت في القلوب... عباد الله نسوا خالقهم... هذه أمارة الساعة.

ويخطو الحارس كالمنتفض المتذمِّر، لكن خطواته لا تلبث أن تتمهّل، فلا شيء ينتظره طوال النهار، حتى النوم استعصى بعد أن توافر له فوق الكفاية من الزمن. ويلتفت باحثاً عن كلبه. لم يعد يتعجب من تغيُّبه عنه فترة، ففي ظروف كهذه يجب أن يبحث الكائن الحي عن قوته بكل موضوعية. ويتمتم العربي :

ـ أمارة الساعة ؟ الله يلطف بنا.

ومن بعيد، تتعالى أصوات أطفال وبنات يطلبون الغيث بأنشودة معروفة. والنساء يرمينهن بالماء عند كل باب، كأنهن يحرضن السماء. وعندما يخترق موكب الأطفال الرحبة ويتجاوزها مسرعاً، يعود حديث التجار متقطعاً إلى مجراه الطبيعي عن البضاعة والسوق والمستقبل الغامض.

* * *

40

ـ الرجل اليوم على غير حاله !

هذا ما كرّره العربي لنفسه، وقد خُيل إليه لأول مرة، أن غموضاً حقيقياً يكدر سريرة صاحبه المحامي. أفكاره متقطعة كمن لا يجد موضوعاً للحديث أو كمن يتحدث على غير هدى من تفكير، يرمي بكل ما يصادفه من خواطر في عبارات لا يكاد بعضها يتمّم بعضاً، ولا يكاد يتم إحداها حتى يطارد أخرى، دون أن ينتظر رداً أو جواباً.

ما باله اليوم هكذا ؟.. (لازم عنده شيء)... فقد وجده العربي هذا اليوم مُمعناً في إسداء النصائح، نصائح تبدو في غاية الابتذال أحياناً، وإن كانت لا تخلو من خطرات نافذة. وتوقفاتُه وتعثراتُه أثناء الحديث، أشبه بتثاؤب لا ينم عن تعب حقيقي. ودعْكه المستمر لعينيه، والزرقة الخفيفة، والتورم الملحوظ حولهما، يشي بحال من ساهر النجوم.

ولم يستطع العربي على استطلاع صاحبه صبراً، فسأل متهيّباً :

ـ يا أخي...

ـ هه... ؟

وغلبه التهيب فلم يفرج عن سؤاله، وانحرف عن القصد ليقول :

ـ يمكن، جئتك في وقت غير مناسب ؟

ولمح العربي شبه بريق يلمع في عيني صاحبه لحظة، كما لو كان يفيق من شرود، لكن سرعان ما يخبو، ليمد المحامي رجليه إلى الأمام كما لو كانت الأريكة الوثيرة لا تُسعفه بالارتخاء. ويقول :

ـ لا، أبداً أنا كنت ناوي نتصل بك.

ووجدها العربي مناسبة ليعلم ما يدور بخلَد صاحبه. لعل في الأمر ما يتصل بقضيته :

ـ ناوي تتصل بي ؟

ـ اممم.

ـ خير... إن شاء الله.

ولم يُبِنْ المحامي عن جوابه بسرعة، ولكنه رد في تكاسل وتراخ مستمر، بسؤال ميت :

ـ تشوقت لك والسلام...

كان العربي يتابع الاستماع، ويترجم في باطنه كل حركة، بما يمكن أن يلقي أضواء على حال صاحبه، أو يوضح مراميه حول قضية الأرض التي كان العربي على يقين من أنها مدار كل شيء، وعلته. ولعل المحامي دائماً يمهد للموضوع، لكنه أطال كثيراً وانحرف بعيداً، إن كان ذلك قصده حقيقة. كانت سلسلة النصائح والتوجيهات مجردَ مقاطع صوتية تقرع سمع العربي. أيصدق العربي هذا ؟ إن كان صحيحاً فأين حرارة الشوق. لعلها أول مرة يدرك فيها العربي بحدْسه البسيط كيف يكون التفاوت مطلقاً بين الحال والمقال... وساد بينهما صمت تخللته حركات متعبة وسؤال لا طعم له :

ـ عندك وليدات ؟

وحرك العربي رأسه إيجاباً، وهو يرد :

ـ بنت وولد.

وتابع المحامي، وهو يدعك ذقنه من جديد بحركات دائرية، وخُيل للعربي كأنه يستمع إلى وصية محتضر في آخر لحظاته. والمحامي يلح على ضرورة تعليم الأولاد تعليماً جيداً، وعصرياً في المدارس، لا تعليم الجوامع والكتاتيب الذي لا يتعدى حفظ القرآن والفقه والدين... ففرنسا وأوروبا كلها حكمت العالم بطريقة العلم... وكذلك دولتنا في القديم، والتعليم الديني وحده لا يدفع عنا أي ضرر. وخير ما نعمله هو أن نعلم الأجيال الناشئة ونتذرع بالصبر.

احتار العربي ؛ لذلك عول على أن يهجم على الموضوع متخذاً نقطة انطلاقه من فترة توقف صاحبه وقال :

- عندك الحق... كل شيء بالعلم... النصارى تعلموا وعملوا... والعرب غرقوا في النعاس. لكن قل لي على قضيتنا... كيف هي... ؟

ولف المحامي كشكوله حول عنقه وهو يقول دون أن يبدو عليه أي تأثر :

- آه أنت مشغول بالأرض، قضيتك الآن بدات تظهر صغيرة.

وتحدث بما لم يفهم العربي، أو بما لم يكن مستعداً ليفهمه. تحدث عن أرض أوسعَ وأشملَ بكثير، كلّها تكوّن قضية واحدة كبرى وتطغى على القضايا الصغيرة... والعلم هو المخرج الوحيد للضعفاء والمغلوبين.

وتوقف موهوب ليدقق النظر في عيني العربي لأول مرة منذ جلستهما هذا الصباح وقال :

- الدنيا كلها... كلها باقي لها رمشة عين...

كأنه سيحدثه عن يوم القيامة أو طوفان نوح منتظر، لكنه لم يتمّم فكرته، كأنه يعاني من صعوبة في تخير الألفاظ المناسبة، أو يفضل أن يترك باب التخيل مفتوحاً لصاحبه، ليتمم الصورة التي أوحت بها إشارته...

إن لم يكن يتحدث عن قرب قيام الساعة بعد رمشة العين، فمن المؤكد أن شيئاً غريباً يخالط سريرته. وغرق حديثهما في قصة شوق وحنان من موهوب إلى مسقط رأسه، وخُيل للعربي كأن صاحبه ينتحب أثناء هذا الحديث. ومرة بعد أخرى يغبط المحامي حال العربي، فهو على كل حال في وطنه وبين أهله. أما موهوب فلو أنه فقط، يعرف من منهم ما يزال على قيد الحياة، ومن منهم ما يزال يذكره أو يومن بأنه حي يرزق. ولو أن هذا الحنان، سبق له أن التهب في نفس المحامي منذ مدة لعاد إلى وطنه سريعاً في فرصة سابقة، لكنه لم يشعر بمثل هذا مطلقاً، ولم يعد للوطن منذ غادره، منذ قرابة ثلاثة عقود من السنين، لعله كان مقتنعاً منذ مدة

طويلة بأن لا وطن له، وأن كل الدنيا أوطان له، أو ما لا يدري مما لا يجد له الآن تفسيراً، مما يمكن أن ينسي المرء أهله وذويه ومسقط رأسه. شيء ما جعله طوال هذه الفترة المديدة لا يفكر بالمآب ولا يُعد له. ولعل قضية العربي بما اكتنفها من ترابط غريب بينها وبين ذكريات المحامي الغابرة، عن وجه حبيب تمُتُّ إليه ملامح صاحبه بشبه ما ؛ أو لعل شعوره بأن قضية العربي في بدايتها هي قضيته هو في الأصل حين بدأت منذ عقود من السنوات رغم اختلاف الظروف ؛ أو لعل أسباباً أعمق من ذلك في الحاضر والماضي، هي التي جعلت أنين حنينه ينبعث الآن دفعة واحدة في وقت لا يبدو مناسباً. وللعربي أن يجد في هذا مصداق ما أكده له المحامي سابقاً من أنه يشعر بأن قضية العربي قضيته هو بالذات، وأنه لن يتخلى عنها. وللعربي أن يطمئن إلى أنه قد عثر على خير نصير. وأحس بحرج وهو يترجم حديث صاحبه إلى نداء واستغاثة تصدر من أعماق الأعماق. وكأن بوسعه أن يقدم له شيئاً بعدما سمع من تمسكه بقضيته، وحنينه لأهله ومسقط رأسه. ورد العربي بما لا يعتقد أن له معنى محدداً، ودون أن ينظر إلى صاحبه كأنه يتهيب من أن يراه في موقف ضعف :

- لابد إن شاء الله ترجع لأهلك وتعرف بلدك...

ودون أن ينبس موهوب بشيء، رفع يديه في حركة لا دلالة لها، كأنه لا يريد أن يلتزم بأي ثمن أو رجاء كأنه يقول : ومن يدري ؟

لم يكن قد رشف من شايه بعد، ولا أشعل المحامي واحداً من سجائره الغليظة المعهودة. وعندما طال الصمت بينهما، استأذن العربي في إنهاء زيارته التي لم يكن لها في الواقع موضوع، والتي أصبحت منذ الآن فقط، موضوعاً مستقلا، سيظل يشغل باله.

ودّعه موهوب دون أن يتحرك من مجلسه، بيدٍ أحس العربي فيها ببرودة ثلج. وسار خلف بريك في ممرات الحديقة، وعندما وقف عند العتبة الخارجية، وقبل أن يودع بريك بدوره، واجهه بسؤال في لهجة تودد وحيرة :

- هو مريض ؟

وردد بريك بطريقة آلية :

ـ مريض ؟!

لكن ملامحه بدت للعربي لا تثير سؤالا أو تعطي جواباً. لا تفصح إلَّا عن غموض غريب كغموض صاحبه، كأن عصا سحرية أصابت ملامح الرجلين معاً، فأحالتها إلى أقنعة من شمع. ومد العربي بصره إلى كل جانب يميناً وشمالا. كأنه يستنجد بالأركان والأشجار علَّها تجيبه. بيْد أن كل شيء كان هامداً جامداً وكذلك ظل، حتى شجرة التين العتيدة بدت مُسْبلة أغصانها على سر.

* * *

توقف العربي في سيره وهو عائد إلى مسكنه مساء يوم فارغ. والتفت نحو الغروب، يجيل بصره في السماء وقد التقطت خياشيمه نسمة رطبة لا يمكن أن يخطىء في تفسيرها لو تأكد منها. نفحة رطبة باردة طالما استطلع بها ضمير الغيب في قريته. توقَّف ومال بعينيه مع الأفق وتنشَّق مراراً دون جدوى... نسمة مرت به كطيف في خاطر حالم. وقد يكون أيضاً حالماً واهماً في تفاؤله وهذا ما أكدت له زوجه وهما مُستلقيان ليلتهما بجوار الطفلين. وكأنما عز عليها أن تصيبه في تفاؤله، فاستأنفت مبرِّرة رأيها.

ـ البحر من هنا قريب... والندى يطلع في العشية.

بيد أنه كان متأكداً من أن ملوحة البحر لم تكن تخالط نسمته تلك ولولا أنه يخشى تشاؤم زوجته، لذكر دلالة أخرى قد تؤيد تفاؤله، لكنه لم يفعل. وظل يتابعها بنفس شاردة. لم يعد كبير فائدة يُرجى من الغيث بعد أن أوشك الموسم على نهايته، والأحاديث تتْرى يغالب بعضُها بعضاً، عن مزارعين نثروا حبوبهم على التربة الجافة طيلة شهور حتى التقطتها الطير...

وقاطعها العربي.

ـ وشفْت حاجة أخرى اليوم... ولكن كل شيء بيد الله.

وأحس بها تُنصت إليه، فلم يجد إلا أن يتمم حديثَه كما لو كان حلماً. فعندما اشتم نسمته تلك، ودار نحو الغرب يتصيد مثيلة لها، أبصر في أعالي الأفق طائراً يميل نحو الشرق مُوقفاً جناحيه. وتساءلت صفية :

ـ يعني ؟

يعني أن الطائر لا يميل على هذا النحو إلا إذا كان مدفوعاً بريح شتوية من الغرب، لعلها لا تزال تجوب أعالي الفضاء قبل أن تُدرك رحمتها الارض بعد أيام.

بدا تفاؤله يُصيبها، ومضت برهة كأنها كانت تتأمَّل أثناءها ما سمعت قبل أن تهمْهم.

ـ الله لا يخيب الظن.

ثم تساءلت كأنما لِتطيل أمدَ استمتاعها بحديث متفائل :

ـ والطير ؟

ورد بسرعة وببعض حدَّة تؤذن بانتهاء الحديث.

ـ ماله ؟ طير والسلام.

لكنه أخفى عنها أن يقول إن الطائر غراب... ليكن. أليس الغراب طائراً من خلق الله. ودار العربي على نفسه تحت الغطاء يلُف نفسه به رغم دفء الجو، كأنما ليُحْدث مجرد حركة تنبيء بأنه يستغرق في النوم، ثم ما لبث أن أزاح عنه بعض الغطاء.

انقطع حبل الحديث وساد الصمت والظلام، ترددث فيه أنفاس الأسرة. لكن العربي لم يكن قد نام بعدُ ولا زوجته. كان يتململ تحت الغطاء، أما هي فقد تهيأت لتقول له شيئاً حين أسكتها فجأة :

ـ ششت. سمعت ؟

وأجابت بالنفي. إنه لم يتكلم فماذا يمكن أن تسمع. لكنه عاد يطلب منها الانتباه والإنصات، ففي سمعه كان يتردد اهتزاز خفيف بعيد. وعاد يتساءل :

ـ سمعت ؟

حركتْ رأسها إيجاباً في الظلام، مركِّزة سمعها على مزيد من التقاط الصوت، ولم يعد زوجها بحاجة إلى أن يلح عليها لتنصت، فالصوت يتضخم في سمعهما معاً اهتزازاً وأزيزاً. وتأكّد العربي من صدق نبوءته. وملأت خياشيمه رطوبة ريحه الشتوية واهتزازها ما يزال يتضخم في سمعه مقترباً لدرجة لا يمكن أن يخطئها الأصم، ولم يعد بحاجة لشهادة زوجته على ما يسمع فهتف في اعتزاز.

ـ عرفتها... قلتها لك.

ويزداد الاهتزاز والأزيز تضخماً، ويزداد اقتراباً، ويحتدُّ ويْعلو وينتشر، تهتزُّ له الأرض والسماء، رعد ؟ أي حمْل مُهول تضطرب به أجواز الفضاء وأعماق الأرض ؟ لكنه منظمٌ حاد قوي طويل المدى.. وفجأة، قفز العربي بينما ارتمت زوجته على الطفلين في هلع، بعد أن شملها عنف الاهتزاز. وفي الحين ساد هرْج ومرْج داخل المساكن وخارجها في الزقاق، وأزيز الرعْد المُهوِل يتناقص مبتعداً. مخلّفاً وراءه أسئلة حائرة.

ـ هه ؟

ـ طيارات.

ـ ألمان.

ـ أمريكان، فرنسيس.

ـ الفرنسيس باقي عندهم طيارات ؟٠

ـ أمريكان.

كانت جموع السكان نساء ورجالاً، قد خرجوا في هيئات مختلفة يتطلعون ويسائل بعضهم بعضاً، وعلا صوت منذراً :

ـ الضرب... الضرب في المرسى.

واتجهت الأنظار صوب أقصى الغرب جنوباً، حيث بدت شهب خاطفة

تخرق سماء الميناء وأضواء تخترق جوف الظلام، في أعلى الأجواء.. وتناهى للأسماع نفير مسترسل من بعيد، ثم صوت انفجارين هائلين على مدى أقرب... واختلطت أصوات السكان وحركاتهم.

- الضرب قرّب... الحرب وصلتنا.. اهربوا..

لعلها أول مرة في تاريخ الحي كله، تتجاوز حركة الليل نهاره، فلم يبق من نائم. واختلط النداء والصياح ووباء الرحيل بسرعة لا تصدق. وبدا الزقاق ضيقاً تتدافع فيه الأكتاف والأقدام. بالأحمال في الظلام. وتسمَّر بضعة رجال كالمصطفين على الجدران القصديرية ملتحمين بها ليتركوا أقصى ما يمكن من فسحة في الزقاق يمر بها الهاربون بمتاعهم. لقد بدت هذه الثلة من الرجال لأمر ما، يائسة من الهروب، أو لا مبالية، متفرجة، تتحدث عن غرائب الحرب وأهوالها المشتعلة بين الفرنسيين والألمان وأمم أخرى. وسرح الخيال مطلق العنان يرسم بطولاتها وعتادها.

- عشر شهور هذى وهما في الحرب.

- لا. الحرب بدت عامين هذي.

- عام ونصف.

- ما علينا.

وتتقطع الأحاديث بين الحين والحين، كلما تعثر عابر بمتاعه، لتنطلق من ثلة الرجال شتيمة أو سخرية، ليعودوا إلى ما هم فيه :

- الألمان هلكوا الفرنسيس.

- العفاريت هم الجابون والطليان.

* * *

أصبح الحي كله كالقفر. فأكثر سكانه قد حملوا أمتعتهم وأبناءهم واتجهوا صوب البوادي منذ الليلة السابقة، ولو أمكن لمشاهد أن يشرف على المسالك والطرقات الموصلة بين المدينة والقرى، لرأى أسراباً لا تنقطع من النازحين والعربات والدواب مُولية ظهرها المدينة... لفظّتهم مرة واحدة.

ومن الأكيد أن من تبقّوا فيها رغم ذلك، لم يكونوا سوى يائسين أو لا مبالين.

أجاب العربي الحمدوني عن تساؤل زوجته قائلا :

ـ الموت هنا أحسن.

يعود إلى قريته وقد تركها هارباً أو منفياً مطروداً ؟ أو ليست نهاية الآمال أن تعود كما جئت بل شراً مما كنت ؟ لم تعلق زوجته بشيء فقد كانت نفس الخواطر تراودها لكن الخوف الجاثم على قلبها، هو الذي أنطقها بسؤال عما إذا لم يكن من الممكن أن يتخذوا طريقهم إلى قريتهم... أو إلى أية قرية أخرى خارج المدينة.

وقام العربي خارجاً وطفق يسير بنفس محطمة، وأبواب كثير من المساكن عن يمينه وشماله مفتحة تدل على خلوها من أهلها ؛ والدكاكين المألوفة لم يفتح أي واحد منها. ولا فائدة من الذهاب إلى سوق الحبوب لولا دافع العادة وفضول الاتصال ببعض التجار. ولكن الرحبة تدخر بعض المفاجآت فرجال من المخازنية يحيطون بالسوق من كل جانب، والمقدمون والشيوخ يستنطقون ويعاينون مدخرات كل تاجر ويسجلون ذلك في دفاترهم، ويعطون أوامر بعدم التصرف في شيء منها. ولم تنج من ذلك مدّخرات البيوت فقد كانوا يتوجهون إليها مع أصحابها من تجار السوق، أو إلى أي مكان آخر يتخذه الرجل مخزناً لرصيده من الحبوب. ولم تمض أيام حتى خلت الرحبة وبيوت تجارها من أنواع الحبوب، وبدأ جميع الناس يتوصلون ببطاقات حسب أفراد كل أسرة لسحب تموينهم الضروري من الخبز أو الطحين والزيت.. في تواريخ منتظمة وبأسعار محدَّدة، وبذلك بدأت في حياة الناس صفحة جديدة بدت شديدة الغرابة إلا أنهم ما لبثوا أن ألِفوها.

* * *

باستطاعة المرء الآن أن ينام أكثر ما يمكن حتى يوفر على نفسه متاعب التفكير في الحاضر والمستقبل، إلا إذا كان من هذه القلّة التي بقيتْ تتردد على بعض معامل، أبْقت فيها حالة الحرب عروقاً ما تزال تنبض بحياة

ريثما يُجْهَز عليها... حتى سحب الدخان الكثيفة والغبار، التي كانت ترتفع ليل نهار من معامل السكر والجير والإسمنت، أصبحت مجرد خيوط رقيقة تتقطع بين الحين والحين... كل شيء تقلَّص إلي أقلَّ شيء أو إلى لا شيء... الجميع في خدمة الحرب، ولم يبق إلا أمل في أن تتوقف بعد شهر، بعد شهور، بعد عام، بعد أعوام...

ويقول أحدهم مستنكراً :

- النصارى مع بعضهم في الضرب واحنا مالنا ؟

وردّ عليه آخر :

- احنا مع فرنسا في واد واحد.

ويعلو تفاؤل.

- ما تدوم شدة ما يدوم رخا... الفرج قريب إن شاء الله.

بيْد أن الأيام تمضي شهوراً وسنوات، يتلو بعضها بعضاً دون تغير في الحال أو بارقة أمل.

وبدأ النوم يأخذ أكبر حصة من عمر الناس. وعاد كثير من النازحين من المدينة، بعد أن أدركوا أخيراً أن حالة الحرب ليست عابرة أو أنها قد لا تكون أكثر من نمط جديد من الحياة. ومهما يكن، فلم تقدم القرى بديلا حسناً لهم، إذ أدركتها نفس التدابير وسارت على نفس الإيقاع في التموين أو أسوأ، إلا أنها من دون شك كانت بعيدة عن خطر المعارك والرمي الطائش من قاذفات البحر أو الجو. وتحت ضغط جحافل العاطلين ممن أغلقت معاملهم، تكونتْ من البشر صفوف طويلة متعرجة لا آخر لها ولا حصر. لا همَّ لها ولا شغل إلا انتظار (نصف خبزة للراس) منذ الفجر إلى حوالي الغروب، إن حان دورها ؛ أو إن تبقّى شيء تأخذه عندما يحين الدور. نصف الخبزة هذا كان عمومياً بدون بطاقة تموين، وقد ابْتُدع ليعوِّض بعض الشيء من عدم كفاية نظام البطائق التي كانت جد قليلة، بالنسبة لعدد السكان، فأصبحت على سوء ما تقدمه لأصحابها، امتيازاً يحظى به قلة زهيدة من الناس. أما إن لم تكن من هؤلاء ولا أولئك، فعليك

أن تسير بين صفوف المتكئين النائمين والمتناومين تجر كيانك جراً، باحثاً عن الظل إذا اشتد الحر، تاركاً له إذا أزعجك القعود وهكذا تظل تدور وتدور... قلب الكريان النابض، لم يعد يتحرك إلا بقلة من أصحاب (السوق السوداء) يبيعون سجائر منفردة، ويهمسون بوجود السكر المسحوق أو سائله الأسود وحبوب السكارين.

تجاوز النهار منتصفه في يوم واهن متراخ. كان الطفل يلعب في فناء المسكن وخدوج تساعد والدتها في نسيج عباءة متقادمة لتعيد نسجها من جديد، كأنها تجدد أسطورة بنلوب لولا أن (أوليس) لم يكن غائباً في مغامراته، بل إنه حاضر ممدّد على القرب متداعي الأوصال مهدوداً، يلوك كسرة من خبز الذرة، وقد عاد منذ فترة قريبة من تجواله. رنتْ إليه بنت سويعد لحظة ثم سألته :

ـ نعمل لك أتاي ؟

لم يجب ولكنه أدار رأسه علامة الرفض... ولو تكلم صادقاً لقال : لندخرْ طوبة السكر لأيام عديدة، قبل أن يحلّ موعد التموين القادم، وسألها :

ـ عرفتِ ثمن رطل السكر اليوم ؟

أمعنتْ في حل الخيوط وربطها، دون أن تظهر اهتماماً بالسؤال فهي لا تعرف طبعاً، ولا يهمها أن تعرف. وردّ على سؤاله :

ـ الرطل وصل ثمنه اليوم مائة وثمانين... إه مائة وثمانين... يعني القالب كله وصل لأكثر من خمسمائة ريال : لم تملك إلا أن تتوقف وتتعجب لما تسمع وتمتمتْ :

ـ السلامة يا ربي.

تابع كأنما يُؤْنس نفسه بذلك.

ـ قالب السكر بثمن الولجة كلها... وما زال يزيد... كانت أسعار السوق السوداء تسابق الخيال في تصاعدها، وأخبارها على كل لسان وفي

كل حديث، لا يضاهيها في ذلك إلا انتصارات الألمان المتتابعة. نحَّتْ صفية عن وجهها علامة الاهتمام وقالت في لهجة لا تخلو من زهو.

- على كل حال، حمدنا الله... البركة في سعيد خويا. ورد العربي معلّقاً :

- أخوك هذا عفريت... من صغره كان...

أجابته متعوذة.

- يخزي عليه عين الشيطان... رجل على راسه...

حقّا، وكيف لا يكون رجلا وأي رجل، من يستطيع في مثل هذه الظروف أن يعيش في يسر ويظفر بامتياز توزيع المؤونة على السكان في حومته، في وقت يبيع فيه المرء داراً أو أرضاً في جودة الولجة، ليحصل على ثمن قالب السكر أو بعض الزيت والشاي. وقد دأبت بنت سويعد على زيارة أخيها في المدينة بين الحين والحين، لتعود ببعض المؤونة، وتمتم العربي بأن الله يرزق ما يشاء بغير حساب. وانبطح على ظهره وقد أغمض عينيه متابعاً نفس الخواطر التي لا تتجدد ما دامت الأيام على إيقاعها المألوف. وغابت صفية في الصمت أيضاً تقطعه بين الحين والحين بانتهار البنت، كلما أفسدت هذه لف الخيوط أو ترميمها. وخارجاً في الزقاق تناهى صوت غاضب.

- ينعل والديك يا ولد الحرام... نهار ترجع ليا تشوف... يا الكلب الغدار... تْفو من أولاد الحرام...

قالت بنت سويعد إلى زوجها الذي تحفَّز عند سماع أول الصوت، ثم عاد إلى انبطاحه بإهمال. معلقة :

- العرجاء... يمكن هرب عليها الرجل ثاني وسرقها..

وردّ العربي في غيظ :

- ينعل أبوها وأبوه.

أجابت بهدوء دون أن ترفع بصرها :

ـ قل الله يستر.

ورد بحدة.

ـ الله يستر على الأعمى والزحاف.. أما هي مالها ؟ عجوزة عوجاء بينها وبين الموت شبر، وتعيش آخر أيامها في الحرام ؟

وصمتت صفية عازمة على ألا تفتح هذا الباب للنقاش. مهما يكن فالمؤمن يطلب من خالقه أن تكون عاقبته خيراً.

* * *

منذ مدة طويلة كف موكب العرجاء عن أن يجذب إليه أطفال الزقاق الذي أقفر من كثير من سكانه. ومنذ بداية الحال الجديدة لم تعد جولتها اليومية تجود بشيء، بعد أن جفَّتْ روافد الإحسان وانقلب جل السكان إلى متسولين. وأكثر ما أمكن أن تحفل به سلَّتها منذ الأيام الأولى لهذه الحال قشور جافة من بقايا الخضر تناقصت بدورها مع الأيام، حتى قررتْ عائشة أخيراً ألا فائدة ترجى مطلقاً من التجول والتسول، مادام الرزق مستعصياً على الجميع. بيْد أن ثَمَّ أبوابا أخرى للرزق. والمستعصي قد يلين ويتيسر، وقد يِدب بشوشاً حتى يطرق الباب، وما عليك حينئذ إلا أن تفتح له برفق، وتهشَّ وتَبُشَّ في وجهه كما يفعل هو ؛ حينئذ بألفُك ويعرف طريقه إليك دون سواك، فيستمر موصولا عليك، غير هيَّاب ولا وجل، ولن يفارقك بعد ذلك قط، إذا أحسنْتَ رفقته ودافعت عن صحبته. ولك أن تنام هانئاً مرتاح الجسم والبال كل يوم إلى الزوال بل إلى العصر، فموعده معك الغروب وما بعد الغروب.

تلك ظروف الحرب قد أقامت على ظاهر الكريان، كما أقامت في كل مكان من المدينة الموزَّعة معسكرات للجنود معظمهم من الأفارقة السود. وكانوا يتوفرون دائماً على ما يلزم من السجائر والحلويات وسائر مواد التغذية، كما يتوفرون على النقود، ولا يحتاجون إلا إلى ركن يرفهون فيه عن أنفسهم عندما يغادرون المعسكر ساعاتٍ معدودات في المساء، وكان ظهور هذه المعسكرات إيذاناً بافتتاح أماكن تأويهم وتهيء لهم ما يطلبون،

تتصيدهم طوعاً أو كرهاً... ولعل العرجاء ترددت في أول الأمر في أن تضيف وكراً جديداً إلى ما تناثر في الحي من أوكار البغاء، رغم أسابيع وشهور من عطالتها، إلا أن بابها انفتح أخيراً للجنود والنساء أمام الإغراء. وهكذا أصبحت أحذية ثقيلة تدك أرض الزقاق كل مساء، وتتردد في جنباته الرطانة والقهقهات المعربدة منذ المغرب إلى ما يقارب منتصف الليل، أو يتجاوزه أحياناً. وكان لابد أن تثور في الزقاق ثائرة بعض من بقي من سكانه الأصليين. وقال بنصغير وهو والد سبعة من ذكور وإناث منهن ثلاث في سن الزواج، ويسكن براكة في أقصى الزقاق من جانبه الأسفل.

- العرجاء هذي فضحت زنقتنا شوهت بنا... والله العظيم...

لكن زوجته حدوم أخرسته بقوتها المعهودة :

- وانت مالك، خلّ كل واحد في شغله، ودبِّر لرأسك على ما تعمل.

لم يقتنع ولكنه صمت تفادياً للصدام. ولم يطل الأمر حتى بدأت خيرات العرجاء تفيض على مسكنه، وحاول مراراً أن يتساءل، إلا أن قوة حدوم كانت توقفه.

- آه على فضولك... كل واسكت واحمد الله.

كان قد تعلم أن يصمت منذ مدة، وزاد على ذلك بأن تعلم كيف يمرُق من الزقاق، من أقرب طرقه إذا خرج مضحياً بجلسته أو حديث كان يجد فيه متعة مع صديقه التهامي، ورفيقه في معمل الخشب قبل تبدُّل الظروف وإغلاق المعمل.

لقد كان التهامي منذ أول بادرة اتخذتها العرجاء في طريقها الجديد، أول من فاتح صديقه بنصغير في ضرورة التعاون لإزالة وصمة العار عن زقاقهم. إلا أن التهامي المفضل، عاد ذات يوم دامي الوجه، مهدود الكيان، مما لحِقه من أذى الجنود بعد أن هاجم مسكن العرجاء ؛ وفي صبح الغد أقبل عليه المقدم واستصحبه إلى السلطة، التي أخبرته أنها توصلت بشكوى ضده تتعلق بإذايته للجنود، وبعد التحقيق معه في الأمر سامحوه على ألا يعود لمثل ذلك.

كانت هذه الحادثة كافية لإخراس كثير من الأصوات. أما المسعودي الجار المباشر للعرجاء من أعلى الزقاق، فقد انتهز فرصة مواتية وباعَها مسكنه بثمن مضاعف ورحل بأسرته عن الزقاق. أما المسكن المجاور للعرجاء مباشرة من أسفل، فكان لأرملة مكتهلة... يعيش معها أخوها حمادي الذي ما لبث أن أصبح دليلا للجنود، واقفاً معظم الوقت بباب أخته وعينه على باب العرجاء... نظير ما ينال من خيراتها وخيرات الجنود.

وظهر شبح الحسيني في الزقاق، كأنما انبثق من الارض وكان قصير القامة مكتنزاً في أواخر كهولته، ظهر للكون كأنه زوج العرجاء (العائد) بعد غياب طويل... وبذلك قضي على أمل كان يداعب حمادي، في أن يصبح على الأقل ساهراً على مصالح العرجاء. أو أكثر...

أما بقية من في الزقاق، فلزموا حدودهم ووقفوا عندها، أمام ما رأوْا من تحالف المقدم والشيخ على حماية الجنود ومن يؤويهم.

- والله العظيم ما تخرج عاقبتها بخير.

- الله يسترنا حتى يسترنا التراب.

وعلّق العربي على ما سمع من استغاثة العرجاء ودعائها على أولاد الحرام :

- فلوس الحرام يمشوا في الحرام... ها هو سرقها وهرب...

وزمّتْ بنت سويعد شفتيْها في إصرار حتى لا تتمردا بحديث شائك لا تود أن تخوض فيه... وقد انتهى بقية من في الزقاق بعد حادثة التهامي إلى أن يتوقفوا عن الحركة، بمجرد ما يحل الظلام، حتى لا يصطدموا بالجنود، أو على الأصح حتى لا تُفتعلَ لهم الأسباب للإضرار بهم لدى السلطة، وتعوَّد أغلبهم أن يطفىء نوره في ليل باكر. ورغم أنهم تَنَبَّأوا جميعاً بحوادث دامية سيشهدها زقاقهم، إلا أنهم باستثناء حادثة التهامي المفضل لَمْ يسجلوا أي حادث. بل إن الشهور المتتالية أظهرتْ أن العرجاء كانت كريمة مع الجميع، ومتسامحة ومستعدة لتغمر بخيراتها كل البيوت. فألزمتْ أعداءها موقف الحياد، وجعلت منطقاً غريباً يزدهر بينهم وبين

أنفسهم، وإن كانوا في ظاهرهم لا يعترفون به : هل تؤذي أحداً منهم ؟ ولئن كتب الله عليها الرذيلة فهي لا تفرضها على أحد. وليس جوار الرذيلة هو الذي يُعلّمها بل هي في القلب. ولابد للمرء من ثقة كاملة في أهله. ومادامت أوكار الرذيلة قد انتشرت في كل مكان، فبأي حق يمنعون ذلك عن زقاقهم وحده، أو عن امرأة بعينها ولاسيما العرجاء. وفي هذا المنطق كانوا مهيَّئين لكي يعتذر كل منهم بتقاعس الغير.

ـ كل واحد يدبر لرأسه... نهار مشى التهامي يتكلم عليهم خلوه وحده يأكد الدق من عند العساكرية، والغد لما عيّط عليه المقدم والشيخ وساقوه للمخزن حتى واحد منهم ما تبعه...

وبهذا المنطق أصبحوا أقرب إلى أن يروا في موقف التهامي بعض التهور، لأنه هو الذي تحرَّش بالجنود، وإلا ما كانوا ليَمسوه بشيء... وكانت حادثة التهامي، خلافاً لما يدعيه رجال الزقاق قد وضعت أريحتهم في حرَج.

* * *

تلقتْ بنت سويعد حديث زوجها ببرود، فلقد سلَّمه المقدم اليوم رسالة قادمة من بعيد، كتبها إليه بريك خادم موهوب وصديقه من قلب المعركة في بلد له رنين غريب، لم يسمع به العربي من قبل ولا يهمه شأنه، أو على الأصح، كتبها من مستشفى عسكري بذلك البلد. فلقد أصيب بريك إصابة ما، لا يتحدَّث عنها في رسالته، ولكنه يقول إنه وجد الفرصة لأول مرة لكي ينفذ أمر صاحبه، بأن يكتب بعض رسائل باسمه إلى بعض من تربطه بهم الروابط، وفي مقدمتهم العربي الحمدوني. وتتحدَّث الرسالة عن الاستنفار المستعجَل الذي لبى موهوب أمره باعتباره قبطاناً قديماً في الجيش الفرنسي، وعن صحبة بريك له كمجنَّد في فرقته... وبعد أحداث مسهبة يفترق بريك عن صاحبه بعد إصابته، بينما يرتحل موهوب إلى جبهة أخرى عن طريق البحر. ويعترف بريك بأنه تأخر كثيراً في الكتابة إلى أصحاب صديقه لكن إصابته كانت السبب. هل معناه أنه شفي الآن ؟ هل

معناه أنه سيلتقي من جديد بموهوب أو يلتحق به في الجبهة الجديدة ؟ أم سيعود إلى وطنه ؟ لا تتحدث الرسالة عن شيء من ذلك. ولكنه يذكر أن صاحبه قد احتفظ بكل وثائق القضية في مكان أمين. وأن الحرب مهما تطل، فهي عابرة وسينال كل ذي حق حقه...

وعلَّقتْ صفية على ما بدا من انشراح زوجها :

ـ باقي طامع به يرجع ؟

كان يراوده نفس التفكير، فكل شيء رهين برجوع موهوب أو بريك على الأقل، وبرجوع الأحوال إلى ما كانت عليه لاستئناف قضيته، ولكن من يضمن حدوث كل هذه الممكنات ويضمن أن تحدث في صالحه ؟ وهل من أمل مشروع في مثل هذه الظروف ؟

مع ذلك بدا العربي معارضاً تشاؤم زوجته :

ـ ما حدو باقي حي، أنا مازلت طامع به يرجع، ومازلت طامع في أرضي ولكن الله غالب، وكل شيء بيده.

وسكتت صفية. ما فائدة الجدال ؟ الأَوْلى أن يُصرف الهمُّ إلى الحاضر.

* * *

11

في ظلمة الغَبش تجمع العمال أمام المعمل، وقد تحلَّق بعضهم حول بائع القهوة والحزيرة والشاي. يتناولون ذلك، بعضهم وقوف وبعضٌ قد افترشوا الأرض، أو استراحوا على أحجار كبيرة أعدها البائعون لتكون بمثابة مقاعد للزبائن. كانوا صموتاً كأن خدَر النوم ما يزال متمكناً منهم.

تناول كبور كأس قهوة من البائع وثلاث تمرات يحلي بها فمه أثناء تجرعها، وأومأ إلى ابن عمه العربي أن يشرب شيئاً، لكن هذا امتنع... لقد أفطر العربي قبل أن يخرج في أول يوم له من حياته الجديدة في المعمل، فمن النحس في رأيه ألا يتناول المرء شيئاً قبل الخروج صباحاً ولو مجرد جرعة ماء أو كسرة... ولقد أطال اليوم في دعائه عند صلاة الفجر، ورفض مراراً أن تقوم بنت سويعد بإعداد شيء له، ربما لأنه مُشفق على شيء ما، أو لأنه رأى من تمام الرجولة ألا يزعج أحداً منذ اليوم الأول من عمله، لكنه لم ينمْ طول الليل. وكلما تململتْ زوجته لتوقظه خشية أن يستغرقه النوم فلا يستيقظ في الوقت المناسب، وجدتْه مستيقظاً... حياة المعمل بالنسبة له صفحة جديدة تُطوَى وأخرى تبدأ، حقاً ليس أجمل من أن يشعر المرء بأنه أصبح مجدياً منتجاً، لكن تهيباً كبيراً ما زال يملؤه، وخشيةُ ألا يتوفق. وتناول تمْرتين من يد زوجته، وأخذ يتجرع الشاي على مهل متناوباً بين جرعاته وقضمات من خبز الذرة. كان جالساً القرفصاء والشمعة من بعيد في الركن ترسل ضوءاً واهناً إلا أن ذلك لم يكن المانع الوحيد في تجنبه أن تلتقي نظراته بنظرات زوجته. كان في أعماقه يشعر بانكسار. فمنذ أكثر من سنتيْن كان يمانع كل الممانعة في أن ينخرط في سلك العمال، بل كان مجرد تمثل هذه الفكرة يبدو سخافة. وإلى آخر لحظة، ربما إلى البارحة، كان ينتظر شيئاً غامضاً يمكن أن يحدث فيحول بينه وبين حياة المعمل، ولعل ذلك الانتظار الغامض لم يبرحه إلى الآن، وهو يبدو كمن كف عن كل استجابة، وترك التيارات تفعل به ما تشاء. في

جلسته هذه للإفطار، يشعر بالتهدم والانكسار، ويشعر بالضيق من هذا البنطلون الذي ارتداه، والذي يضحكه من نفسه بمرارة. لقد لملم، تحت البنطلون قميصه الطويل إلى القدمين عادة في وضع غير مريح حول حزامه وعجيزته. وعندما خطا أول خطوة خارج الزقاق، في طريقه إلى المعمل، نزع جلابته كأنما هو يمرّن نفسه على السير بلباسه الجديد، فقد كان متأكداً من أن سيْره لن يكون عادياً به أمام الأنظار لأول مرة، ولا يحتمل على الأخص أن ينظر إليه أحد معارفه في هذا اللباس...

أيقظه من شروده وخواطره، نفير المعمل إيذاناً بالدخول، فلكزه كبور بمرفقه لكزة خفيفة مقدماً له بقية قهوة تركها في كأسه، وملحاً عليه في أن يتجرعها، ثم سارا جنباً إلى جنب ليغيبا في ازدحام العمال عند الباب الخارجي للمعمل، وعندما تجاوزا الفسحة الداخلية ودلفا إلى الأضواء والضجيج، جذبه كبور وانحرف به عند رئيس الورشة، وهو فرنسي ؛ حادثه كبور برطانة تختلط فيها العربية بكلمات أجنبية، ورنا الرئيس إلى العامل الجديد متأملا بنيته بتمهل مصعداً ومنحدراً بنظرته إلى قامته، وقد تأبط العربي الحمدوني جلابته ليظهر في القميص والبنطلون مستعداً للعمل. واختلط في سمع الحمدوني أزيز الآلات في المعمل الفسيح الأرجاء بضجة (رحبة البقر) في سوق القرية، ويد عارفة ماهرة لجزار ترتدّ عن شاكلة ثور وعيناه تتصيدان العيوب، تخلقها ولسان ذلق :

- ساس زين، ولكن برّاني.

وتوجه رئيس الورشة للعربي بلغة ركيكة، وسؤال لا معنى له إلا أن يكون فاتحة الحديث :

- تبغي تخدم ؟

ويمد ذراعه القصير ليضع يده على كتف كبور كأنه يهزه. ويحلف بائع الثور مستنكراً رأي المشتري في بضاعته.

- براني ؟ تبارك الله. يا سيدي هذا ولد البلد. باقي فرخ... لحمه مسك.

ويهز الحمدوني رأسه إيجاباً... (يبغي يخدم) وهل جاء لغير ذلك ؟ إنه

يموت رغبة في أن يشتغل ويكون منتجاً وإنه والله يصلح، إلا أن تتصيَّد العين الحاذقة فيه عيباً وهمياً لا صلاح له.

ويعود المشتري الجزار بعد دورة في السوق، لم يفتر فيها عن مراقبة الثور العتيد، وإن كان قد نفض عنه يده بإهمال ظاهر، في حركة محترف يعود إلى صاحب البضاعة، فيجر الثور من ذيله بقوة إلى الوراء، وعلائم الاشتمئزاز وعدم الرضى ظاهرة عليه، لقد قدر وزن الثور بالتقريب، وجرت في ذهنه عمليات حسابية سريعة جمعاً وطرحاً، ليقول لصاحب الثور في هيئه من يعد نفسه لسماع أمر غريب ؟

ـ يا الله. قل لنا... الثمن ؟

وما يكاد صاحب الثور يتلفظ بالثمن، حتى يخطو المشتري كالهارب من هول ما يسمع، ولكنه لا ينصرف وإنما يتلفظ بأدنى مبلغ ممكن... وترتفع من أرجاء المعمل نغمة ضجيج جديدة يظهر أنها لآلة تدار اللحظة، وترتفع حول الثور مناقصات ومزايدات، ويتدخل الوسطاء عاملين لصالح كل طرف، ضاغطين بكل الوسائل على كل طرف، وترتدُّ يد رئيس الورشة عن كتف الحمدوني لتتوقف نظرته المركزة على لحيته الكثة، لتبدو عليه علائم الموافقة...

... وتحسم ضجة المساومات حول الثور بكف تضرب على كف، وصوت يعلو :

ـ الله يربّحك. سق...

ويصفر رئيس الورشة، ليُقبل على الإثر أحد المكلفين ويأمره قائلا :

ـ خذ بو لحية عندك.

ورنت عبارة بو لحية رنيناً غريباً في سمع الحمدوني، وهو يسير وراء الرجل.

* * *

12

لا يتذكر العربي الحمدوني أي طريق رمى به إلى هذا المكان كل ما هو متأكد منه جيدا أنه رنا إليه ببصره من بعيد، من زقاقه بالكريان. وهفا إليه قلبه في غموض ولم يكن وحيداً في هذا الشعور، بل إن كثيراً من الناس غيره، عانوا منه إلا أنه قد يكون الوحيد أو من ضمن القلائل الذين تحققتْ لهم زيارته على نحو ما. وبعد، فأين هو ؟ وما هذا المكان ؛ وكيف وصل إليه وليست له به سابق معرفة ؟ من المؤكد أنه لو توافر الآن على قُدرة الاختيار لاختار أن يتراجع... ولو خفّتْ ركبتاه للتقهقر لطار عائداً من حيث إتى إلى الكريان، أو إلى أي مكان آخر وفي أي اتجاه بعيداً عن هذا المكان. ولو استطاع أن يلتفت مجرد التفات، لتأكد على الأقل إن كانت زوجته أو أسرته كلها تصحبه وراءه، أم أنه وحده بدون أنيس... ؟ شعور غامض رهيب يملؤه، ويصور له أن الكل يتابعه يحيط به مؤازراً ومعضداً، وفي نفس الآن يملؤه شعور مناقض بأنه وحيد منعزل في تجربة، لا يدري كيف رمى بنفسه أو رمت به الأقدار إليها. وتساءل مراراً بينه وبين نفسه، إن كان قد ركبه جنون أم ما يزال متوفراً على قوة التمييز. وكلما مرتْ به برهة تكاثف حوله الغموض. وقد يكون المكان في روعة تشييده وجمال قبابه وأغاريد طيره، وعابق عطره ؛ وفي ظلاله وتنوع أزهاره، قصراً في جِنان الخُلْد، وقد يكون بما يبعث من رهبة في زائر، وما يثير من خوف وبرودة وارتجاف قَبْواً من أجنحة أرواح الأبالسة، عميقاً مظلماً في أسفل سافل الأرض... وكان الحمدوني على يقين بأنه قطع طريقاً طويلا قبل أن يصل هذه البقعة من أقصى الكريان، عابراً المدينة الحديثة من أحد مركزيها الأوربي أو الأهلي، ومع ذلك فهو بما يغشى رؤيته وقدرته على التمييز من تشوّش، لا يدري إن كانت البقعة في أقصى أطراف المدينة أو في أعمق أعماقها. وملْءُ سمعه وإدراكه ضجّة كأنها تتناهى من مركز الحركة في المدينة، وصمت هائل لا تتخلّله نأْمة كأنه في جزيرة ميتة معزولة.

كان واقفاً في بهو فسيح، تُحيط به أعمدة وأقواس، وفي أقصى نقطة أمامه بمواجهة موقفه مباشرة، على بعد عشرات الأمتار ينفتح باب عريض مقوّس على صدر قبة، توحي بمظهرها وبرائحة البخور المتصاعد أنها ضريح أحد كبار الأولياء. وبذلك زالت عنه بعض رهبة. أحس برجليه تتقدمان وإن كانت رؤيته ما تزال مغلّفة بالغموض والضباب. وتبدَّى له في صدر القبة وهو يقترب بعضَ الشيء في حذر، أشخاص يجلسون إلى بعضهم قد يكونون جماعة كبيرة أو صغيرة، إلا أنه لم يتبين منهم من موقفه ذلك... إلا ما يسمح برؤيته شعاع الباب المفتوح. وهم ثلاثة : اِثنان كانا متقابلين، أما الثالث وقد يكون معه غيره ممن لا يراهم العربي من موقفه ذاك، فيبدو أنه كان على مبعدة منهما مائلا عن مجلسهما، ويدل على وجوده حركة المتقابلين عندما كانا يلتفتان إليه أو يخاطبانه بين الحين والحين. على أن يد الشخص الثالث كانت تظهر عندما يدخل طرفها في شعاع الباب المفتوح، منحسرةً عن كم فضفاض أبيض، مشيرة أو متحركة لحظة بعد أخرى، أما أحد المتقابلين وقد كان وجهه إلى الباب يحجب العربي عن رؤيته هيكل ضخم لِمُقابله، فلا يراه إلا بقدر ما يتحرك الهيكل الضخم إلى اليمين أو الشمال، بحركة ثقيلة لا تدوم طويلا يعود بعدها إلى استقراره المكين. وكلما حدثتْ هذه الحركة بدتْ ملامح الشخص للعربي، تجللها أمارات علَّة بادية كأنه خارج لتوه من قبر أو عائد إليه. أما صاحب الجثة الضخمة والذي كان ظهره إلى الحمدوني، فكل ما كان يَلمح منه، جلدةَ قفاه الغليظة ملتوية بين رأسه وكتفيه، وصفحة وجهه المتغضن كلما تحرك أو التفت. وكان لباس الرجلين غريباً تتداخل فيه الرقع والألوان أقرب ما يكون إلى لباس الدراويش وما شابههم من أصحاب الطوائف، وكأن أمارات الاهتمام البادية عليهما تنبىء بجدية ما يشتغل فيه جمع القبة المختفي عن نظرة العربي... وحين استطاع الحمدوني أن يقتلع رجليه ليخطو بحذره المعهود بضع خطوات إلى الأمام، تبين أن الأيدي والأبصار في صدر القبة مركّزة على بقعة في مركز الجلسة تمتد كجسد محنَّط، أو تابوت كالمعهود في الأضرحة. وكانوا كأنهم يدلكون الجسد الممتد بينهم كما يفعل ذوو البركة بذي علة مزمنة ينبطح بينهم... وتجمدتْ أنفاس

العربي وعرته قشعريرة، حين حدَّق وتبيّن أن شدقي أحد الرجلين المتقابلين، أو هما معا، ممتلئان ويلوكان ما تتناوله يداهما من الجثة المنبطحة بين الجمع ينهش منها بعضهم بين الحين والحين. حاول أن يتراجع حين وقع عليه بصر الشخص المقابل ذي العلة البادية، فتوقف شدقاه عن المضغ، وركّز نظرة حادة في الوافد الغريب، وحين تنبَه ضَخم الجثة أيضاً، فالتفتَ خلفه وحدَّق في العربي بدا شدقاه ممتلئان وخيوط دم تنساب على حافتي فمه وتلطّخ أصابعه... رباه أأوقعه سوء الحظ والخطو بين جماعة من (حمادشة) وهم في حالة وجْد ينهشون ضحيتهم نيئة ؟ وقاوم يجاهد جذباً سحرياً يجرّه إلى الأمام نحو الجماعة. وفي الحال غلّف صدرَ القبة أو رؤيته، فهو لا يعي شيئاً، غمام كثيف وخُيل إليه أن ضخم الجثة، ومقابلَه بدا يتحركان نحوه، ويشيران بأصابع دامية نحوه ليقرانه، حين عنَّ في القبة ضياء كاشف ارتفع تدريجياً من ركن من القبة، ثم تركز في نقطة التابوت أو الجثة، وظل يرتفع ليستوي صاحبه موهوب في صدر القبة منبعثاً من جوف الجثة المنهوشة التي لم تعد سوى نقطة ضياء باهر، ويقول لهم مشيراً إلى العربي الحمدوني :

ـ أغيثوا الرجل، ارحموه، ألم تعرفوه بعد ؟؟

وانحنى نحو مكان الجثة، وتناول شيئاً يبدو أنه مما كان بعض الجمع ينهشون، ومد يده نحو العربي الذي لم يعد تفصله عنه مسافة، لكن العربي تبيَّن في يد موهوب ثمرة تين ناضجة أو ما يشبهها، وحينئذ انتبه إلى حيث هو، فتبين له كأنه في ظل كرمة التين العتيدة في بيت موهوب... ليفيق من حلمه مذعوراً يمسح العرق المتصبِّب من جبينه.

تابع صوت المُشط في يد زوجته، تعمله في ألياف صوف كان أخوها سعيد قد أحضرها لها عندما رأى مسيس حاجتها إلى عباءة لم تف بنسجها خيوط عباءة قديمة متهرئة. لم يكن للعربي شيء يشغل به نفسه إذ ذاك وقبل انخراطه في العمل، لذلك نزع عنه الغطاء بعض الشيء، وظل متمدداً يتابع حركاتِ امرأته النشيطة في صباح يوم باكر من أيام عطلته الطويلة. وظل متمدداً يتابع خواطر متفرقة مخلوطة ببقايا حلم مزعج رآه في

نومه، أو في مشاهد الخصاصة التي أجهدت الناس، وذهبتْ بما تبقى لدى أكثرهم من مروءة وكرامة.

وضغطت ظروف الحرب على البوادي مضافة إلى موسم جفاف متصل، ودأبت سلطة الحماية على سد حاجيات الحرب من التموين والتجنيد. ففقد الفلاحون جل ما يملكون من دواب ودواجن وحبوب، وغاب أكثر أبنائهم في عملية التجنيد. وعلى هذا النحو اشتدتْ الهجرة نحو المدن من جديد، وتكاثرت صفوف المتسولين... وسعيد أخو صفية بين هذا كله، كأنه الوحيد الذي انفتحت الدنيا له، وابتسمت في وجهه. وقدرته عجيبة على إحضار أي شيء، في ظروف انعدم فيها كل شيء، ولم تزدهر إلا أثمان السوق السوداء، وجثث الموتى والمحتضَرين يحصدهم الموت جماعات، جماعات. حتى توزيع المؤن بالبطاقات الرسمية بدأ يتلكأ ويتلوى وتطول المسافة بين دوراته، فلا يعود إلا بعد اليأس منه، شيء واحد مؤكّد، ومناقض عجيب للأحوال، وهو توافر كل شيء في السوق السوداء. ولكن كيف تناله طاقة البشر ؟ وتعلَّم الناس كيف يستغنون عن السكر ليشربوا شاياً غير محلى، أو على الأصح ليحلوا أفواههم بين كل جرعة وجرعة بقضمة صغيرة من تمرة. ولكن التمر بدوره بدأ يعرف نفس الارتفاع كما عرفته أقراص السكارين وأشياء أخرى، ابتدعها الناس أو اهتدوا إليها ليتجاوزوا بها الأزمة. في هذه الظروف الكالحة لم يكن للعربي أمل في أن يجد كيفية يصبح بها مُجدياً لنفسه وأسرته، سوى أن ينخرط في بعض المعامل التي ما تزال بها بعض حركة في هذه الظروف... لقد كان من قبل يرفض فكرة العمل هذه، منذ سنتين وأكثر، عندما كان الحصول على شغل في الإمكان، أما الآن، فما أكثر الطلب وأندر المطلوب، وجموع الناس مكدَّسة في كل مكان بلا عطاء ولا طعام. عليه إذن أن ينتظر بقلق فرصة يتصيّدها له ابن العم : كبور، ليدمجه في معمل السكر... إن أتيح له ذلك، لينصهر كغيره في حرارة الأفران، وإلا لينصهر وأسرته في فراغ الجوع، وليذهب وأسرته في الصفوف الطويلة المتراصة، منتظرة نصف الخبزة، منذ الفجر إلى حلول المغرب حيث يعود أكثرها بلا شيء، وحيث يحل أجل كثير من الناس في صفوف الانتظار...

كان ذات يوم في صف الانتظار أمامه المئات وخلفه المئات تنتظر، وقد مضّى أغلبهم الليل في مكانه... وارتفع الضحى فبدأ الصف يتحرك باكراً على غير العادة باعثاً في النفوس بعض البِشر والأمل، وبدأتْ عدوى الحركة تسري في الخلائق المصطفة من بعض إلى بعض ؛ وحين اقتربتْ، من العربي الحمدوني تهيأ لها لكن جاره الذي يسبقه في الصف ظل جامداً في جلسته على قطعة من ورق المقوى في رقدة أبدية، وجده عليها العربي منذ حوالي الفجر دون أن ينتبه إلى أنه فارق الحياة... يالله، كيف يحل الموت بهذه السهولة بلا معاناة، فلا تصْدُر عن المحتضَر نأمة تدل على ألم أو مقاومة ؟ أهي موتة السعداء الأبرار بلا غصة ولا ألم ؟ مشهد واحد ظل العربي الحمدوني يذكره منذ اليوم : أسراب القمل فوق جلباب الرجل مضطربة ذهاباً وإياباً كخطوط النمل، باحثة دون شك عن مهرب من رائحة الموت... مشهد ثابت في ذاكرة العربي لا يفارقه ولا تجدي فيه مقاومة ؛ وكلما انبعث أثار في الأعماق قشعريرة باردة وتقززاً. تأنّى الحمدوني كثيراً في تناول حساء من سحيق الجلبان هذا الصباح، فليس من داع للعجلة والوقت أرخص بضاعة في هذه الظروف. وتابع حركات يد ابنته تنتقل سريعاً بين الزلافة وبين فمها، أما بنت سويعد فكانت منهمكة في حلْج قطعة صوف، منتظرة إنهاءها لتشارك في الإفطار بعد ذلك. ونهر العربي الحمدوني ابنته بلهجة خالية من كل أمر عن هذه السرعة المتلهفة. فانتبهت لنفسها ولم تزد على أن تمتمت :

- الجلبانة حلوة.

ومسح لحيته وهو ينهي الحساء، ثم تراجع ليتكيء على الجدار القصديري، باحثاً في أعماق شكارته عن بعض أعقاب سجاير متنافرة ما لبث أن خلط تبغها في كفه، ولف منها سجارة وأشعلها بعود محترق من تحت القدر، وجذب منها نفساً بلعه حتى أعمق أعماقه. العجيب أن الرجل لم يكن من المدخنين المدمنين عندما كانت الظروف تسمح بذلك، وهو اليوم كغيره من الناس، يتهافت على أعقاب السجاير يجمعها، وما أقلّها وما أعلى ثمنها في السوق. ولم يحفل بالرد على زوجته عندما نبهته لهذا

التناقض الغريب، ولكنه سرح في مشهد صاحب الحلقة وبدا له على حق فيما قال ذات يوم... كان صاحب الحلقة قد تصبَّب عرَقا، وبُحَّ صوته دون أن تأتي الفاتحة بشيء. كان الناس حوله في جمود كتماثيل مدينة النحاس... لا ترفّ لهم عيون، ولا تتحرك أيديهم حتى لحك جنوبهم... وعندما أدركه اليأس من إثارة عواطفهم شرع يجمع أدواته قائلا : (الجوع ما هو في قلة الخبز، ولا في قلة السكر أو الفلوس... الجوع في القلوب ياعباد الله... سيروا للجوامع واطلبوا الله يشبّع قلوبنا)...

* * *

بين الحين والحين كان ينبعث من المرسى عن يمينه نفير عميق لباخرة، كأنه صوت استغاثة ؛ وترك ضريح سيدي بليوط خلفه، بعد أن قبَّله ومسح عليه جبهته متبركاً. وسار في اتجاه بقعة أثيرة عليه. وتعرجتْ به أزقة ملتوية ميّتة حتى انتهى إلى الساحة العتيدة حيث دار موهوب. الباب ما يزال قويّا كالمعهود. ولكنه مغلق بالغبار وخيوط العناكب. وحام العربي حول السور الخارجي الذي تهدم واستوى مع الأرض في عدة مواضع، ودلف العربي إلى الداخل من أحدها فارتاعت لخطوة حشرات زاحفة سمع خشخشتها بين الأعشاب الجافة في الحديقة... لا شيء ينبىء بحركة أو حياة غير ذلك، كأن الدار لم تكن في يوم من الأيام محط عزاء، وموطن الأمل لكثير من البائسين... بدا الباب الداخلي للدار مكسور الزجاج ينبيء عن أحداث عبثث بداخله وأحالت بهجته لوحة أثرية بالغة الحزن والكآبة... وخطا في الممرات الفسيفسائية التي كانت تتخلل أركان الحديقة وقد طغت عليها الأعشاب والأزبال فغطت أديمها. شجرة التين وحدها تبدو صامدة تتحدى، مخضرة، تجود بظلها الوارف على الراغب، لكن من يرغب في الظل ؟ وبدا مشهد موهوب في لباسه الخفيف على كرسي تحت الكرمة الضخمة، أمامه طاولة صغيرة عليها أوراق، وهو يرشف من قهوته ويقول للعربي :

- الدنيا كلها باقي لها رمشة عين... قضيتك فيْ الحقيقة أصبحت صغيرة...

ويتحدث موهوب عن بلاد واسعة فسيحة لها قضية واحدة شاملة، أعمق من قضية الأرض الجزئية الصغيرة المحدودة، ويسترسل في أشياء كثيرة، لم يتابعها العربي الحمدوني في حينها ولم يفقه معناها، وما يكاد المحامي يتوقف حتى يبادر العربي فيلقي عليه سؤاله المعهود المحدود، عن قضيته ومآلها، ولكن المحامي يقاطعه قبل أن يتم ذلك قائلا في ابتسامة غامضة :

- لا، لابد إن شاء الله ترجع لبلدك وأرضك...

عاد العربي إلى نفسه : الذكريات وكرمة التين هما كل ما تبقى من ماضي الآمال والعزاء... هما كل ما يحافظ على ازدهاره في خضم الحزن واليأس وطرق الفاقة والاحتضار. ويبدو ثانية وجه موهوب مشرقاً متهللا رغم العفونة واللباس الرث وهيئة الدراويش، ويشير نحو العربي قائلا :

- ألم تعرفوه ؟ ارحموا الرجل...

ويناوله فاكهة التين أو ما يشبهها. نفس الكرمة، نفس الظل الذي كان تحته في بقعة الحلم الرهيب... ويرنو العربي إلى أعالي الأغصان فتبدو له محمّلة ببراعم غلة وفيرة لم تتفتح بعد... إنها ما تزال محتفظة على العهد، ملتزمة بالعطاء، رغم اليأس والخراب، وقد انبعثت في دائرة واسعة حول جذورها أفنان صغيرة بدأت تستقيم على وجه الأرض... خلف كريم لأصل أكرم... وانحنى العربي على أحدها ينبش عن جوانبه الأرض ألم يعطه الرجل في المنام فاكهة تين في رهبه الحلم، ورجفة القلب ؟ واستعان على النبش بقطعة معدن صدئة بين الأعشاب، حتى إذا اتسعت دائرة الحفر حول جذر النبتة بسمل وأدخل يديه، وسلّ النبتة محاولا ألا يقطع جذورها الصغيرة وأن يحتفظ بما يحيط بها من تربة ثم لفّها في أعشاب جافة... قال لزوجته وهو يدلك التراب حول النبتة التي غرسها في صحن المسكن، قرب ركن بين البراكين :

- عطية صاحبنا... الله يذكره بالخير.

وناولته آنية ماء يسقي بها النبتة وردت :

- آمين إن كان مازال بالحياة.

رش الماء على جوانب النبتة وهو يتمتم :

ـ بالحياة أو بالممات، الله يجازيه بالخير.

* * *

لئن تضايق العربي الحمدوني في البداية من البنطلون والصندلة، ولئن خفض من بصره شاعراً بالحرج أثناء خطواته الأولى وراء المكلف، لئن أحس بالحسرة وهو ينسلخ من جلابته الفضفاضة ويلملم فرجيته الطويلة ليدخل في حزام البنطلون، لئن عانى من ذلك بعض المرارة، فليعانِ اليوم أمرَّ من ذلك وهو أن ينسلخ عن كل ثيابه، ويتركها في مستودع الملابس ليربط حول وسطه قطعة خيش، ويسير عارياً إلا منها وراء المكلف كأنه يخطو في قاعة حمام. ويدفع المكلف مصراعي باب مرن ليلج ورشة الأفران، فتغيب بذلك ضجة الأوراش الأخرى كما لو كانت تتناهى من أطراف عالمٍ آخر، ويملأ السمع أزيز ثقيل يصدر عن زفير النيران داخل الأفران... الأجساد تنصهر هنا في صمت على سمفونية أزيز رتيب. كل ما يستطيع المرء أن يتبينه هنا عضلات مشدودة متوردة ترشح عرقاً يسيل خطوطاً ويتجمع حبيبات على الجباه والأكتاف، يكسب الأجساد لمعاناً تنعكس به صور بعضهم على أجساد بعض، على ضوء المصابيح القوية. وكلما انفتح باب السعير كلما دفع عاملان إلى جوفه عربة من عربات القوالب السكرية، تسير بها في أتونه سكة آلية متحركة تخرج بها في الجانب الآخر، حيث تتلقاها فئة أخرى من ذوي الأجساد العارية، وقد أضافوا إلى قطع الخيش التي تلف أوساطهم قطعاً أخرى، لفوها على أيديهم لتقيهم حرارة العربات الكاوية عندما يدفعونها حال خروجها من الأتون ليسيروا بها إلى سلسلة أخرى، للتبريد، وفصل القوالب المعدنية عن محتوياتها... ويقضي نظام العمل في الأفران بتعاون كل اثنين على دفع عربة واحدة من هذا الجانب أو ذاك. وأشار المكلف نحو عربة يدفعها عامل واحد، فاندفع العربي يقلد العامل في طريقة الدفع بأنْ أوْلى العربة ظهره، ولامسها بصفحة كتفيه ضاغطاً عليها بكل ثقله بجانب العامل الآخر... لم يكلم أحدهما الآخر، حتى وهما يعودان إلى عربة أخرى، بعد

أن دفعا بالأولى إلى فوهة الفرن وانغلق عليها بابه. كان العامل الآخر أطول من العربي وأخف وأصغر سناً، لكنه بادي القوة والبأس، ومضت ساعات روتينية أحس العربي بعدها بألم في أضلاعه وأسفل بطنه وقد تقاطر عرقاً... كان يدفع مع صاحبه إحدى العربات نحو الفرن حين بادره الآخر وقد بدا مهتماً بحاله لأول مرة :

- سر، اشرب... واياك تكثر.

وتنبه العربي بالفعل إلى أن حلقه قد جف، فاتجه إلى ركن في الورشة على بعد أمتار وشرب جرعتين فتحتا فيه شهية للارتواء، إلا أنه قاومها وعاد إلى جانب صاحبه. كان صوت المكلف يعلو حيناً بعد حين، ناهراً أو مرشداً بحماسة، وكان أحياناً يساعد في دفع بعض العربات، إلا أنه كان حراً في التنقل هنا وهناك، وقد يتجول في ورشة مجاورة لمراقبة العمل. كانت ورشة الأفران تقع مباشرة تحت إشراف مكتب ذي واجهة زجاجية يطل عليها، ومعزولة في نفس الوقت عن جوها اللاهب. وكان الجالسون منه يراقبون بكل تفصيل ما يجري حول الأفران من عمل، ويصدرون الأوامر إلى المكلف أو يصيحون بها مباشرة من نافذة صغيرة تنفتح على الأفران. كان المراقبون في المكتب كلهم من الأوربيين، فرنسيين أو غيرهم ؛ وكلما أصدر المراقب أمراً من النافذة عاد إلى الكتابة أو محادثة زملائه، وكانت أمارات السعادة بادية على حركاتهم عندما يتحدثون، وأحياناً يعمهم الجد، إلا أنهم دائماً يدخنون ويشربون. وحين رف جرس ضعيف وبدا التساؤل على وجه الحمدوني، قال له صاحبه وقد عرف العربي أنه يسمى التدلاوي :

- هذا وقت فطورهم.

وبصق حوله، كأنه يشعر بمرارة أو حقد. ورنا العربي إلى أعلى، حيث المكتب الزجاجي المشرف. فرأى جماعة من الأوربيين، أو رؤساء أو كتاب ؛ أتوا من أوراش أخرى، وقد ألفوا أن يفطروا سوياً ويتمازحون. أخرجوا لفائف وزجاجات وكؤوس وبدأوا يأكلون ويشربون، حينما فتح أحدهم النافذة الصغيرة ونادى :

- أميد (أحمد)

وتمتم التدلاوي دون أن يرفع رأسه :

- الله لا يريك وجهه، قصير اللسان والإيمان.

أما المكلف فقد أجاب عن النداء :

- وي مسيو...

وقفز إثر ذلك مغادراً الورشة من باب الدخول ليظهر بعد لحظة في الشرفة.

ورد التدلاوي بحنق :

- الكلب... عاملين منه قرد يضحكهم.

وظل العربي صامتاً وإن أحس بتجاوب غامض مع صاحبه. لكن ما شأنه به وهو في يومه الأول، وعليه أن يكون حذراً محايداً. ورنا خِلسة إلى الشرفة الزجاجية، حيث كان المكلف قد دخل بين الجماعة، وإذا بهم يتضاحكون ويتجاذبونه من أطرافه، وهو يحتمي منهم في غير غضب... وبدا أنهم يحاولون أن ينزعوا عنه ثيابه وهو يمانع، ويحاول أن يهرب أو يتظاهر بذلك، فلا يجد مخرجاً بعد أن أرتجُوا عليه الباب...

وعلّق التدلاوي :

- كل يوم هكذا... يأكلوا ويشطحوه...

ولم تمض مدة، حتى كانت الدائرة قد ضاقت حول المكلف، وسط هزْج القوم ودعابتهم، إذ تحلقوا حوله وظهورهم إلى الواجهة الزجاجية وقد انحَنوا عليه كأنهم يتفحصون شيئاً.

وعلّق التدلاوي بغضب، وكيانه يضغط على عربة القوالب :

- خنزير، ممسوخ... تفو.

وانفرجت الحلقة عن المكلف أخيراً، فظهر وهم حوله يتضاحكون، ثم ناوله أحدهم كأسا وقطعة. وتتابعت على لسان التدلاوي سلسلة شتائم في

حق الرجولة المهدورة والإذلال. وعندما رنا العربي مرة أخرى إلى الشرفة كان المكلف قد غادرها، كما غادرتها الجماعة ؛ ولم يبق هناك إلا اثنان كانا يراقبانه هو بالذات... ويبدو أنهما يتحدثان في شأنه فخفض العربي بصره، تحت شعور غامض بعدم الارتياح من ذلك التحديق الغريب.

ـ اسمك ؟

وأجاب العربي عن سؤال صاحبه التدلاوي. مقدّماً نفسه ذاكراً اسمه ونسبه.

لم يعلق التدلاوي على ذلك بشيء لكنه قال بعد لحظة :

ـ عمري... عمري ما رضيت نكون ضحكة للكلاب الخنازير...

وانطلقت منه عدة شتائم أخرى. لم يعلق عليها العربي بشيء، ولكنها تركت في نفسه أثراً بأن صاحبه متضايق من كل شيء حوله.

13

كان التدلاوي على حق فيما أخبر به الحمدوني فمشهد الإضحاك والترفيه عن الرؤساء والمراقبين في الشرفة، يتكرر كل يوم، وأحياناً يتكرر مرات في اليوم الواحد، وكان من الواضح أن المكلف يجد في ذلك بعض الامتياز. فقد كان يلبي النداء منشرحاً، ويعود منشرحاً كذلك. ولعله كان يدرك نظرات استصغار من بعض عمال الأفران ومن أحدهم على الأقل، وهو التدلاوي، فكان يردد على السامع بين الحين والحين، وهو يضرب يداً بيد في حركة تشبه التصفيق :

ـ در مع الزمان بدورته، واشطح للقرد في مدته.

لم يكن ذلك يثير تعليقاً. ففيما عدا التدلاوي، كان الآخرون لا يظهرون شيئاً مما يخالجهم تجاه سلوك المكلف، بل إن بعضهم كانوا يتقربون إليه عن طريق امتداحه فيما يقوم به عسى أن يعمل على نقلهم إلي ورشة أخرى أقل مشقة. ومع مشهد الترفيه المألوف كان يتكرر مشهد اخر في الشرفة الزجاجية وهو العينان البراقتان وراء النظارتين اللتين كانتا باستمرار تحدّقان في الحمدوني بشكل غريب، لم يكن يثير فيه اطمئناناً. كانت عينا أحد رؤساء الأوراش الأخرى، من هذه المجموعة المشغوفة بمشهد الترفيه ورغم أن هذه المجموعة كانت تتغير باستمرار في حضورها أوقات الفطور، تارة يزيد عددها وتارة ينقص، إلا أن صاحب العينين البرّاقتين لم يتخلف مرة واحدة. كان العربي الحمدوني يخطف نظرة إلى الشرفة لحظة بعد أخرى، كلما دفع مع صاحبه بعربتيهما إلى الفرن، وعادا أدراجهما لدفع عربة أخرى، وتأكد الحمدوني من صحة ملاحظته عندما علّق التدلاوي ذات يوم من تلقاء نفسه :

ـ كن على بال من شوفة الخنزير.

ولم يزد ذلك على أن أكد مخاوف العربي : من يدري فقد تكون طريقته في الشغل غير مرضية، ولعل صاحب الشرفة وهو من ورشة

أخرى، قد أدرك ذلك ونبَّه إليه. واجتهد الحمدوني بعد ذلك، ألا يرفع بصره إلى الشرفة مطلقاً، وفي أن يحسن دفع العربة بكل قوته، وأن يتجنب التوجه إلى أنبوب الماء على بعد خطوات.

وذات يوم أقبل المكلف من المشهد المألوف، من الشرفة الزجاجية وهو يصفق بيديه كالعادة، لكنه بدلا من أن يكرر على المسامع حكمته المعهودة، نادى الحمدوني قائلا :

- أنت عندك الزهر... فكك الله من الفرارن.

وعندما بدا التساؤل على محيا الحمدوني وهو يمسح عرقه المتصبب، أردف المكلف مفسراً :

- مسيو أرنو طلبك تخدم عنده.

والغريب أن العربي لم يبتهج في باطنه للخبر، رغم أن أي واحد آخر غيره من عمال الأفران كان حرياً أن يبتهج له، ذلك أن المعمل على ما في كل أوراشه من مشقة، إلا أن ورشتين أو ثلاثاً بصفة خاصة، تعتبر أشق ما فيه، وعلى رأسها ورشة الأفران هذه، التي تعتبر جحيماً، ثم ورشة (الحفرة) التي في المرحلة النهائية من صناعة قوالب السكر، حيث ترمى هذه القوالب من قناطر آلية مرتفعة بعد الشيء على مستوى حفر يوجد في كل منها عامل، عليه أن يتلقف القوالب بسرعة فائقة ويضعها بنفس السرعة على حزام متحرك إلى جانبه يتجه بها إلى ورشة التلفيف، وكل إهمال أو تراخ من العامل يعرضه للإصابة، وعدا هذا فإن قطع الخيش الملفوف على اليدين المتلقفتين للقوالب كثيراً ما كانت تنتزع في نهاية كل يوم ملتصقة بالجلد المسلوخ، وأحياناً تنبجس منها بقع الدم، وتنال بياض السكر الناصع قبل أن يلف في الورق، ولا يكاد يوجد عامل هنا لم يعمل في بدء اشتغاله بإحدى هذه الأوراش الشاقة، أو بها جميعاً قبل أن يستقر في مكان آخر. وعلى ذلك كان العمل بها يمثل اختباراً وعقاباً في نفس الوقت. والانتقال منها بعد ذلك نوع من المكافأة، إلا ورشة مسيو أرنو فهي أيسر عملا من حيث المشقة، وإن كانت تحتاج إلى مهارة خاصة، فهي ورشة

التلفيف وحزم القوالب بخيوط القنب... وعندما أقبل العربي الحمدوني عليها، يسير أمامه ذلك الشاب الوسيم الذي طالما حدّق إليه من شرفة الأفران، خُيل إليه أنه يدخل قرية خاصة بالأطفال... فكل عمل هذه الورشة يمارسه الأطفال بخفة البرق، وعلى الحمدوني أن يحلم بأن تتوصل يداه يوماً إلى أن تلفّا بمثل هذه الخفة، لو أن عيني أرنو كانتا رحيمتين به، فقد كان يقف إلى جانبه، ويُريه طريقة العمل :

ـ شف بولحية... شف يدي. اعمل هكذا...

كانت عربيته ركيكة ذات عجمة لكنها مفهومة، وبعد فترة من تمرين بولحية... كان أرنو يلتفت إلى أحد أطفال الورشة ويوجه إليه شتيمة فاحشة، يرد عليها الطفل بأفحش منها متضاحكاً، كما يضحك أرنو. ثم يترك العربي في عمله ويمر خلف الطفل ويصفعه على عجيزته، ويستمر الترامي بينهما بالفحش والخلاعة، يشارك فيه الجميع ويتبارون. كان أرنو حقاً نموذجاً آخر من هؤلاء (النصارى)، فبدل الترفع والتعالي المألوف منهم، يظهر أرنو محطّماً لكل كلفة بينه وبين أطفاله، وإن كان لا موضوع للحديث بينهم إلا الفكاهة الفاحشة، التي كان أرنو قد أجاد تعابيرها العربية... وكلما مر أرنو بجنب أحدهم صاح به :

ـ أخدم يا ولد الـ...

ويرد أي طفل منهم :

ـ أمك هي الـ... ياولد...

ويقهقه أرنو قبل أن يطلق شتيمة داعرة أخرى، ثم يدور حول الورشة، ويتوقّف قرب العدّاد يراقبه بجد، مسجّلا الرقم في دفتر صغير في جيب صدره، ثم يأمر أحدهم بجانبه في هيئة جد أقرب إلى الغضب :

ـ شف اشحال ؟

ويرد الطفل وقد رمى نظره إلى لوحة العداد :

ـ خمسمائة في...

ويتضاحك أرنو وهو ينتقل إلى آخر...

وتظل المشاهد تتكرر طول اليوم، وقد أحس العربي بخجل مما سمع، ولم يستطع أن يطمئن لنفسه في ورشة كلها أطفال رغم الجو المرح، ويعود أرنو بعد دورة في الورشة بجانب العربي، محاولا تمرينه على العمل ثم يخاطبه متودداً :

- شف بو لحية، اخدم معايا مزيان، وأنا نخدم معاك مزيان...

ويجيب العربي وعينا أرنو ما تنفكان تحدقان فيه، وقد زايلهما البزيق المعهود ويرد العربي :

- وي مسيو.

ويبدأ أرنو دورة جديدة عابثاً مع أطفال الورشة.

كان يحلو لأرنو فيما يبدو أن يتجول في الورشة أحياناً وهو يقضم من شطيرة ملفوفة، وفي يده الأخرى كأس خمر أو كأس قهوة ساخن يصبه من الترموس، وكانت تلك هي فترته الوحيدة التي يكف فيها عن دعابته، وفكّر العربي بأنه لابد أن يكون من أسرة غنية مترفة، يدل على ذلك وسامته، وأناقته وعطره الفواح حتى من بذلته الزرقاء الخاصة بالشغل، ولابد أن تكون به بعض بلاهة تفسر سلوكه، وإن كان يبدو جاداً غاية الجد عندما يريد، وخاصة عندما يزور الورشة أحد رؤسائه الكبار. ووجهه دائم التورد ربما لإفراطه في تناول الخمر، أو بفعل عناية مبالغ فيها... كان يتناول شطيرته ذات يوم عندما توقف بجانب العربي... فأحس هذا بقوة التحديق، حتى اضطربت أصابعه في عملية اللف، وإذا بأرنو يمد له كأسا به خمر، وجزءاً من شطيرته. تردد العربي في القبول، بل نظر إلى أرنو نظرة الرفض، وصاح طفل من الطرف الآخر :

- اعطني أنا.

حينئذ أبرز أرنو أصبعه الوسطى، نحو الطفل في حركة لها معنى قائلا :

- هاك.

ورد الطفل :

ـ اعطه لامك...

ـ اسكت ياولد الـ...

وعاد أرنو يمد الكأس وجزء الشطيرة إلى العربي، الذي أحس بقوة الأمر في هذه الدعوة. حينئذ تناول الكأس فوضعه بجانبه على مائدة التلفيف وقضم جزءاً من الشطيرة، وفي لمح البصر ارتمى طفل على الكأس وأفرغه في جوفه دفعة واحدة، وهو يتلمظ، ويقبل على التلفيف بحماسة، كمن أنهى مغامرة. وانفجر في الحين أرنو بالشتائم الفاحشة على الطفل، قبل أن ينفجر مقهقهاً ويتحرك في دورة جديدة.

غمز الطفل بعينه للعربي وهو يقول بمكر غامض :

ـ بولحية، هذا عينه فيك.

وتضاحك حوله الأطفال في الورشة مُدركين حقيقة الموقف وهو يرتعد ولحيته ترقص ارتجافاً. ولأول مرة يقف أرنو بسِمَة جدّ حقيقي. ويذوب تورًّد وجنتيه في صفرة... ليجد الحمدوني نفسه مباشرة في عطلة إجبارية لمدة أسبوع.

ويضحك كبور للحكاية، ويقهقه حتى تغرورق عيناه، والعربي يتميَّز غيظاً ويلعن :

ـ يلعن بوها خدمة.

ويرد كبور وقد عاد إلى الجد :

ـ الخدمة هي هذه، تلاقيك بالمليح والقبيح.

ويوصيه بالصبر حتى يتدبَّر الأمر بعد مضي أسبوع العقوبة... ويسفر الأسبوع التالي على العربي الحمدوني في ورشة الميكانيك، يزيت ويمسح قطع الآلات المفكَّكة.

* * *

بدأت أخبار الحرب تتغير مع ما يخالطها من مبالغات في الرواية والتصديق. فقد بدا كأن من الصعب أن يصدق الناس أن المعجزة الألمانية، وما أحاط بها من خوارق الانتصارات والبطولات يمكن أن تتراجع... ورغم كراهية النازية فقد كان في باطن عامة الناس شعور متناقض، تمثل هذه الكراهية واجهة منه، ويمثل الإعجاب واجهة أخرى. إعجاب بهذا الواحد الذي تكاد تتجمعُ ضده كل قوى العالم. ولعل مما دعا إلى عدم الإفراط في تصديق التراجع الألماني أن الأخبار طيلة سنوات كانت تنقل الأمل في اندحار الألمان، بل وتؤكد تراجعهم في عدة واجهات، دون أن ينعكس شيء من ذلك على واقع الأحوال. ورسائل بعض المجنّدين في بقاع أوربا، تأتي فلا تكاد تحمل إلا أنباء المعطوبين والأموات، فأين الأمل والاندحار المزعوم ؟ على أن بعض الانفراج يظهر على الأسواق خصوصاً، لا بتراجع الأثمان، ولكن بتوافر بعض ما كان عزيزاً من بضائع. ولا سيما الأثواب والتبغ وبعض المعلبات. وانفتحت آذان الناس لأخبار أسواق أمريكية مملوءة بما يروّجه جنودها من هذه البضائع بعد نزولهم بالبلد، في أقصى ضواحي المدينة غرباً، وشمالا في المطارات والقواعد.

... وكانت أسراب الطائرات التي تخترق السماء مرات في اليوم، والبضائع الجديدة التي تغزو الأسواق ليلا، تدل على حدوث تقلب ما في الأحوال. لكن ما يهم الناس مباشرة هو أحوال عيشهم. ولم يكن بميسور أغلبيتهم الساحقة أن تكتشف مكان هذه الأسواق الغامضة التي يبدو أن طبقة المغامرين وحدها كانت تعرف الطرق إليها.

أما في الكريان سنطرال، فأهم ما تميزت به الحال عدا ما تقدم، أن معسكرات الجنود الإفريقيين التي كانت تحيط به، قد أصبحت شبه خالية بعد ترحيل الجميع إلى المعارك الحاسمة في إيطاليا، إن صح ما تسامع به الناس... وقد أثر هذا الترحيل في بعض أنواع النشاط الذي كان قد ولده في الحي، فهبط مردود أوكار النساء، وبدا زقاق عائشة العرجاء يشهد بعض الحوادث التي تغيّر من رتابة الحياة فيه. فقد بادرت المرأة ذات مساء إلى

إعلان توبتها بطرد جميع النساء طرداً عنيفاً، بل إنها كانت تجرهن جراً إلى خارج مسكنها، فما تكاد الواحدة منهن تفلت من يدها، حتى تهرول مسرعة لا تلوي على شيء مغطية وجهها بكفيها، اتقاء العيون التي أطلت، أو تسمر أصحابها أمام البراريك يتابعون المشهد في شيء من غبطة باطنية، والعرجاء تنط بين الزقاق والمسكن، وقد تهدل شعرها ولسانها يردد :

ـ خرجوا علي. بعّدو مني. خربتو ديني. الله ينعلكم وينعل اللي رباكم. يا بنات الكلبات، كلتوا ديالي وبيدتوني...

وردد التهامي المفضل وهو يدخل براكته :

ـ لعنك الله أنت وياهم. دابا ما بقا عندك بهم غرض يا بنت الحرام.

إلا أن أخطر ما مر بالزقاق أثناء هذه العملية. كان ينحصر فيها بين مسكن العرجاء وأقصى طرفه، حيث براكة حدوم زوجة بنصغير. فقد كان في جملة من جرّتهم العرجاء إلى خارج مسكنها إحدى بناتها. ويظهر أن البنت لم تقدر على الجري في الزقاق ومواجهة أعين الجيران المتربّصة المتفرجة. فظلت تتشبث ببراكة العرجاء، حتى أصيبت فيما يظهر، بقطعة قصدير في مكان ما من جسدها جعل الدماء تقطر في أرض الزقاق. وكانت حدوم قبل ذلك تشاهد عمل العرجاء من مكانها أمام مسكنها دون أن تتدخل. ولعلها لم تكن تنتظر أن تكون ابنتها من بين المطرودات على هذا النحو، على أمل أن العرجاء لا يمكن أن تعرّضها لمثل هذه الفضيحة، ولكن صدى العرجاء تردد أخيراً في الزقاق وهي تجرُّ بنت حدوم :

ـ خرجي عليّ ينعل والديك، ووالدين اللي ربوك يا بنت... يا...

حينئذ تحركت حدوم ووراءها بنصغير الذي خرج لأول مرة منذ سنوات عن حياده وتفاديه لأنظار الجيران. ونشبت معركة حقيقية تناثرت فيها الشعور، وتمزّق بعض ما ستر الأجساد، وغابت العرجاء بين أسرة

بنصغير، لا تعرف مصدر اللكم والضرب. فعلا صياحها مستغيثة بالجيران، وبالحسيني الذي ادخرته لمثل هذا الموقف بلاشك.

وتدخل بعض الجيران، لكن العرجاء كانت قد طُرحت أرضاً كالغائبة عن وعيها، دون أن يظهر زوجها الحسيني لنجدتها. وحينئذ أدخلوها إلى مسكنها ورشُّوا عليها بعض الماء وتركوها لحالها.

لاشك أن سكان الزقاق قد كرروا وأعادوا ما جرى داخل أكواخهم ليلة اليوم، ولعلهم لأول مرة تأخروا في نومهم أو وجدوا موضوعاً جديداً للحديث. كانوا في أغلبيتهم ضد العرجاء حتى الذين كان ينالهم إحسانها. لكنهم كانوا جميعاً ضد أسرة بنصغير، وقد ابتهجوا حقاً لما أصابها من فضيحة، ولعل النوم أخذ بأجفان سكان الزقاق حوالي منتصف الليل، حين لعلعتْ في الفضاء ولولة العرجاء، منذرة بحدوث مصيبة كبرى. وردَّد التهامي المفضل وهو ينهى زوجته عن الخروج لاستطلاع ما حدث.

ـ مالنا ومالها، ها الحسيني ديالها كمل عليها، سرقها وهرب.

ولعل زوجة الرجل رددت في سرها مراراً :

ـ يا رب تسترنا.

* * *

يوم نهاية الأسبوع له طعم خاص في حياة العمال والعاملات، وفي حياة أصحاب الحوانيت أيضاً، ففيه تدفع أقساط الديون المترتبة، وتتغير وجبات الطعام، فتعرف بعض التحسن، وقد يُنفح الأطفال فيه بضعة قروش، يشترون بها ما يلذ لهم من أنواع هذه الحلويات المتّسخة القذرة ذات الألوان الزاهية، والأشكال المغرية.

وقد أصبحت زوجة الحمدوني هذا اليوم، نشيطة مبتهجة الكيان، كمن تتفتح عيناها لأول مرة على عالم جديد... وتلك كانت عادة مشاعرها بين الحين والحين، تمر بها بضعة أيام أو أسابيع متسلسلة لا تكاد تحس بوجود، لا مبالية، كأنها أيام غيرها لا تستحق اهتماماً، أو أنها غائبة أو

مشدوهة أُثناءها ؛ ثم يحل بعد ذلك يوم ما، فإذا مشاعرُها تتفتح، كأنها خلْق جديد... وانعكست بهجة يوم آخر الأسبوع على رغبة عارمة مرضية في أن تقيم حَماماً. وقليلا ما هي المرات التي فكرت بأن تقيم حماماً ؛ أما أن تقيمه حقاً فذلك ما لم يتم...

... إن إقامة حمام هي دعوة مباشرة لبعض الجارات، وقد حضرتْ صفية عدة مرات دعوات عندهن من هذا النوع، ولاسيما عند عائشة العرجاء التي لم تكن قد استردت بعد مكانتها في الزقاق، رغم كل شيء...

ما كاد الضحى يرتفع حتى كانت بنت سويعد قد نصبت في الفناء قَرب مغرس الكرمة الصغيرة، أعواداً يابسة من القصب على شكل دائرة ربطت أطرافها العليا إلى بعضها، مكوِّنة شبه مخروط، ثم غطت ذلك بعباءتين إحداهما فوق الأخرى لتستوي غرفة الاستحمام لا ينقصها إلا الجمر والماء الساخن... وبالفعل كانت البنت عند عتبة الباب الخارجي في الزقاق تعمل المنفاخ في كومة فحم ملتهب، مجمع في قطعة قصدير عريضة ثُنيت جوانبها، لتصير إلى ما يشبه المجمر، يوحي وضعه في الزقاق على هذا النحو بأن المقصود به هو أن تساهم هبَّات النسيم في إذكاء الجمر، وإن كان المراد به في الواقع، الإعلان عن إقامة حمام. وما مضت ساعة حتى كانت صفحة الجمر المتلهب قد نشرت حرارتها تحت العباءتين، وكانت بنت سويعد قد دعت بعض من يشاركنها فأقبلن مرددات تحايا وتهانيء :

ـ مبارك مسعود.

ـ بالصحة والراحة.

وحملت كل منهن شيئاً يمكن أن يساعد على إقامة حفلة شاي صغيرة، بُعيْد الحمام مباشرة، حتى إذا استحممن وثرثرن وهن يتناولن الشاي، وقد مضى أهم النهار، وجدت بنت سويعد نفسها من جديد وجهاً لوجه أمام انشراحها بهذا اليوم، وتفتح مشاعرها، اتجهت نحو صندوقها الخاص في أقصى البراكة، بعد أن أصدرت إلى ابنتها داخل الحمام، أمراً بالإسراع في غسل أخيها. تناولت بنت سويعد قطعة سواك في فمها وثبتت أمامها مراة

صغيرة وأخذت تداعب عينيها بمرود الكحل... لقد بدت مزدهرة الكيان، بتورد الوجه وإشراقه، وتغيير ملابسها والمنديل الأصفر ذي الفتائل المدلاة على جوانب رأسها. خالجتها انتكاسة خاطفة أحست بها كطعنة خنجر في أحد جنبيها. ارتعد لها المرود في يدها وكادت تؤذي عينها، فوضعت المرآة جانباً ومسدت جنبها وهي تردد التعاويذ، قبل أن تعود لانشراحها وإتمام زينتها. سيكون العربي الحمدوني شاكراً مسروراً، هذا المساء. وقد تيسرت حالهم عن ذي قبل... والبارحة فقط حدثها عن أمان جديدة وآمال انبعثت فيه من جديد، بعد أن كمنت طيلة سنوات تحت ظروف سيئة... وأطلّ من الباب الخارجي رأس عائشة العرجاء، وهي قادمة لتوها من إحدى جولاتها مبكرة، وقد اشتمت في الزقاق رائحة الحمام تفوح وقالت بصوت عال مهنئة :

- بصحتك وراحتك يا بنيتي.

وردت صفية بالشكر والامتنان، وأضافت إلى ذلك دعوة مجاملة :

- ادخلي سخني عظامك.

وكررت العرجاء شكرها على كرم الدعوة، معتذرة بالتعب، وكررت دعاءها بالخير، وتراجعت تنط نحو مسكنها.

* * *

طُرق الباب، ودلف كبور إلى الداخل دون أن ينتظر من يفتح له. كانت صفية بعد حوالي ساعة من خروج النساء من مسكنها تجمع العباءتين من أعواد الحمام، فأجفلت لدخول كبور المفاجيء في وقت غير معهود للزيارة، وبنظرات زائغة ملهوفة كأنها تبحث عن شيء ما. واضطربت صفية في موقفها تحت وقع نظراته الحادة المحيرة، على نحو جعل الدماء تتصاعد إلى وجهها من كيانها الساخن. حمام وكحل وسواك كأنه يفاجئها عارية. وازداد ارتباكها والعهد به محتشم حيي، أو على الأقل أنه في موقف يتطلب ذلك : في حرم ابن عمه، واضطرابها ظاهر، أفلا يقلع عن تحديقه فيها. وماذا يريد ؟ وتمتمتْ أخيراً :

ـ مرحبا. ادخل.

لكنه لم يتحرك، حتى الطفلين تجمدا كأنهما بحاسة غريبة اشتما رائحة موقف غير مألوف. وظل كبور في نظرته الغريبة إليها، وحين لم تجد بداً من أن تنظر إليه، خيل إليها أنها التقت بعيني كبش ذبيح... أي خواء في هذه النظرة ؟ وحاولت أن تتمتم بشيء ما، وقد تراجعتْ عن موقفها تاركة طرف العباءة يسقط من يدها على الأرض، بينما الطرف الآخر ما يزال ملتصقاً بأعواد الحمام... وأخيراً تمتم كبور بتردد وشفتاه ترتعشان :

ـ العربي...

ولعلعتْ خارج الزقاق زغرودة صاخبة... شيء ما قد وقع في براكة العرجاء... وشيء في باطن كبور لم يفصح عنه بعد. واتسعت عيناها وهي تتساءل :

ـ العربي ؟ ماله ؟.. مالك ؟

وأمْعن فيها النظر والتحديق الغريب، ثم تحركتْ شفتاه متمتمتان، وهو ينحرف بنظرته الخاوية لأول مرة منذ بداية الموقف، وينتحب كطفل :

ـ الله يرحمه... العربي مات.

... تجمدتْ كأنها سمعت لغة لا تفهمها، وظلت برهة تحدق فيه، تتفرج على مشهد بكائه وانتحابه... وارتفع نواح الطفلين وبكاؤهما :

ـ بونا مات... بونا...

وتحركت أخيراً، تحركت يداها لتصفعا صفحتي وجهها، وتَنطلق عنها صيحات الرعب، كأنها تصدر عن مارد تقمصها. وارتمى عليها ليمسكها بقوة ويسيطر عليها، لكن الطبيعة كانت قد انفلتت من عقالها. فارتمى منديل الرأس، وتشتت الشعر المبتل، وتلطخ الوجه وحَلاً وتراباً كأنه يكفّر عما جنى من زينة. وفي برهة وجيزة، كان المسكن والزقاق أمامه قد امتلأ بالمستطلعين وانخطرت النسوة تلقائياً في البكاء والنحيب، بينما تجمع الرجال يستفسرون عن تفاصيل الوفاة المفاجئة، ثم يستغفرون

ويسترحمون ويتساءل البعض عما ترك المرحوم، فيجيبه البعض :

ـ ولد وبنت.

ويعلق الآخر :

ـ حمل خفيف.

ويرد :

ـ حتى شيء ما هو خفيف على امرأة مسكينة.

ـ عندك الحق... كل شيء صعب.

سؤال التركة هذا مألوف في مثل هذا الموقف، لكنه لا يعني عندهم مطلقاً تركة مال، بل عدد من يتركهم الهالك لرحمة الأقدار. وكان كبور كمصدر وحيد للخبر يذكر ويعيد حادث الوفاة. ولا ينسى أن يكرر أن هذا السبت مشؤوم. فقد أطبقت منذ الصباح الباكر آلة ضغط القوالب على كف التدلاوي المسكين، وظل محصوراً بين فكيْها مغمى عليه قرابة ساعة قبل أن يتمكنوا من تفكيكها، لإخراج يد بتر نصفها، وها هي ذي أخبار السوء تتتابع...

الموت... الموت هول رهيب... ويرد صوت مستغفر :

ـ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

* * *

لاشك أن العربي الحمدوني اعتبر محظوظاً بالانتقال إلى ورشة الميكانيك، وقد ظل مدة بعد الالتحاق بها يطن في أذنه ضجيج الآلات والمحرّكات، كأنه رواسب تخلفتْ عن اشتغاله في الأوراش التي مرّ بها، قبل أن يعتاد هدوء الورشة الجديدة التي تقع بعيداً عن كل ضجيج، إلا من طرقات بين الحين والآخر أو ما ينشأ عن تشغيل بعض آلات الخرْط والقطع... أو ما يصدر عن بعض المحركات عند اختبارها بعد الإصلاح أو أثناء البحث عن مصدر العطب فيها... وكل ذلك ضجيج محتمل وقصير المدى، لا يقاس بضجة سائر الأوراش، وفي استطاعة عامل

ورشة الميكانيك في كثير من الأحيان أن يشرد مع خواطره، أو يتسمع نبضات الحياة في كيانه، وهو يمسح القطع أو يزيتها، إن شاء ذلك. وكان ابتهاج الرجل عظيماً بابتعاده عن وجوه ومضايقات ما تزال ذكراها في نفسه، باعثة فيه الاشمئزاز والغثيان. وأكبر همه الآن أن يستمر أطول مدة في هذه الورشة، أو إلى الأبد، لو كان له الخيار. وأعظم صعوبة تواجهه في عمله الجديد هي (الدوخة) أو الدوار الذي تثيره فيه روائح البنزين والمازوت والشحوم وزيوت المحركات، وهو يغمس فيها الخرق ويمارس بها عمله... إلا أنه بمضي الأسابيع الأولى، بدأ يألف ويتغلب على ضعفه. أما رئيسه الجديد في الورشة وهو (نصراني) فكان بديناً طويل القامة نافر الحاجبين كثَّهما كأنه مارد من جان. وكان إلى ذلك على طبع عدواني صارخ، قاسياً متسلطاً في إصدار أقل الأوامر، لا يتورع عن الشتم والضرب أحياناً، إلا أنه مع ذلك في نظر العربي على الأقل، كان ذا رجولة، ولا يضايق أحداً بحركات أو نظرات مُريبة... لذلك فإن قسوته كانت أهون على الرجل من عبث الشرفة الزجاجية في ورشة الأفران، أو إهدار الرجولة في ورشة التلفيف. ولئن أخذه الإعجاب بشيء. فقد أعجب بالعمال الميكانكيين من أبناء جلدته الذين كانوا يبدون في مهارة (النصارى) في معالجة الآلات وفكها إلى أصغر جزء وتعديلها وإصلاحها، وتشغيل عدة أجهزة أخرى بدتْ له في غاية التعقيد والغرابة. كانوا بالنسبة إليه ضرباً من السحرة أو الشياطين مادامت عقولهم تستوعب هذه الدقائق العجيبة. ولعله تساءل مراراً في سره وفي شيء من التهكم إن كان سيصبح يوماً ما مثل هؤلاء ؟ كانوا أشرف فريق يمكن أن يحتويه المعمل. ولاشك أن أجرهم أرفع، وباستطاعة الواحد منهم أن يقضي فترة طويلة من يومه يتحرك هنا وهناك أمام آلات الخرط والقطع... يتوقف ويسرع ويتحدث أثناء ذلك، ويتناول أكله أو يشرب الشاي وهو يعمل. أوساخ الشحم عالقة بأيديهم إلى المرفقين وتنال أحياناً وجوههم ورؤوسهم فلا يعبأون بإزالتها عندما تستولي عليهم حمى الشغل، كأنها شارة النصر تزينهم، أو هكذا كان الرجل يتصور. وكانت علامات التفكير التي ترتسم على محيًا الواحد منهم عندما يحتار في تعديل أو تركيب قطعة في مكانها، تستأثر بلب العربي، فيظل

يتأملهم مأخوذاً، ويده في التزييت كما لو كان يراقب أطفالا في لعبة طريفة... ونبهه من خواطره صفير ينطلق من حلق رئيس الورشة. ونداء ناهر :

- هيـ... هيـ... بولحية.

لقد اعتاد هذه التسمية، فسار مهرولا نحو مصدر النداء، في أقصى ركن الورشة حيث كان حوالي عشرة من العمال والميكانيكيين يحيطون بآلة ضخمة، انتظموا حولها، يعملون في زحزحتها لتحريكها إلى حيث تُفكّك أو تصلح. وكان (رئيس الورشة العملاق) حولهم يدير العملية مشيراً إلى دور كل واحد... وكانت عملية تتطلب وضع قضيبين فولاذيين اسطوانيين تحت قاعدتها الثقيلة الضخمة من طرفيها، ثم دفعها بقوة الجميع المتوازنة لتتحرك كتلتها الجبارة شبراً أو شبرين، يخرج بعدها قضيب الطرف المتأخر عن القاعدة، ويقف الآخر في منتصفها. هنا تضغط الأقدام والأجسام على الكتلة إلى الوراء، ليحدث انفراج بين مقدم القاعدة والإسفلت الصلد، مقداراً يسمح بحشر القضيب تحت مقدمتها وهكذا تظل تتكرر.

أخذ الحمدوني مكانه حيث عيّنه (جاني)، وضغط بثقله مع الرجال وتنادوا :

- يا جاه النبي...

وتزحزحت الكتلة مقدارها المعلوم، مزعزعة أعماق الأرض تحتها، ثم توقفت وعادت تتزحزح على نداءات :

- يا الله يا رجال... يا جاه النبي...

وأحس الحمدوني ببرودة الفولاذ تسري في صفحة وجهه، والشحم اللزج يختلط بلحيته، وهو يعانق الآلة من مكانه المعين ليضغط عليها بكل ثقله. كانت ثمة نتوءات في الإسفلت تعترض أحياناً مقدمة القاعدة، فتعوقها عن إتمام المقدار المعلوم من حركتها في كل جولة.

- يا الله يا رجال.

ويعترضها نتوء جديد، ويعلو صوت جاني ناهراً شاتماً.

- حمير... بغال.

ويزحزحونها قليلا إلى الوراء، ثم إلى الأمام محاولين أن ينحرفوا بها على النتوء قليلا أو يدفعونها بقوة تكفي. ولم يشعر العربي الحمدوني أثناء هذه العملية إلا ويد جاني ترتدُّ عن وجهه بعد أن كاد يصفعه، وشتم ينصبُّ عليه. لقد أخطأ ولاشك في الدفع، ولعل خطأه أدى إلى أن يتزحزح الهيكل الضخم أكثر من اللازم، بما لا يناسب المقدار المطلوب، وهو سبب كاف جداً لكي ينال جزاءه من يد جاني القوية، إلا أن الصفعة تجمدت لأمر ما، فلم تنل وجه الحمدوني... لكن رشاش الغضب المتطاير والشتم، أصاب العربي في الصميم وأربكه... فالتقت عيونهما محدِّقة تتبادل شرر الغضب وحيرة الارتباك....

... من يدري ؟ لعل العالم كله كان سيتهدم أو يتوقف عن الدوران نتيجة الخطأ المجهول الذي ارتكبه ولم يتبين طبيعته إلى الآن، ولا كيف ارتكبه، وإلا فما الداعي إلى كل هذا الغضب، وحركة الصفعة المرتدة، ورشاش الشتم ؟ وأحس العربي أن عينيه كانتا تقدحان شيئاً في عيني جاني الهادر. أكانتا تقدحان غضباً مماثلا أم استعطافاً واسترحاماً أم هي الحيرة والارتباك والشعور بالعجز والقصور ؟ لا يدري الرجل. ولو لم يأخذه الموقف على غِرّة لما استطاع أن يقابل غضب جاني بذلك التحديق. وخُيّل إليه أنه من خلال شرر الغضب في عيني صاحبه، يستشف رؤية عميقة غريبة لا معنى لها، ولا يمكن التعبير عنها... رؤية شبيهة بمن فتح عينيه على هوة أمامه عميقة القرار، تنفرج فجأة، وقد أوشك أن يرتمي فيها... شيء غامض مبهم عميق تجلى عندما التقت عيناه بعيني جاني ؛ ارتدَّتْ له اليد، لينوب عنها اللسان، وانتهت لهجة اللسان رغم كل شيء إلى هدوء لا ينسجم مع حرارة الموقف في البداية :

- الحلوف... الـ...

والتهبت لحية العربي للكلمة الأخيرة. كانت من قاموس أرنو أو شبيهة

به، جعلت ذكريات مؤلمة تتداعى في خاطره، تقويها ضحكات مكتومة ساخرة التقطها سمعه المهزوز في هذا الموقف ولم يتبين لها مصدراً حوله، واعتراه خجل قوي، وأحس بالدماء تفور في خدَّيه، كأنه أمام نزوة متلهفة طائشة من نزوات أرنو، أو يقف عارياً في الشرفة الزجاجية تعبث الأعين والأيدي برجولته. ونحَّاه جاني عن مكانه، وحل محله واضعاً يديه على بعض المحاور البارزة من الآلة، متكئاً بجانبه وتنادى الرجال :

ـ يا جاه النبي...

وتزحزح الهيكل الضخم مقدار شبر أو شبرين، قبل أن يترك جاني مكانه للعربي، في حركات المنتصر بعد أن أعطاه درساً.

ـ يا الله... يا رجال.

وأخذ القضيب مكانه عند حافة مقدِّمة القاعدة، واتكأ الحمدوني بكل ثقله الجانبي ويداه على المحاور البارزة، كما فعل جاني من قبل... وتزحزح الهيكل الفولاذي تهتزُّ له أعماق الأرض ليتوقف ويتمايل... إذن فقد اعترضه نتوء جديد، وتمايل معه كيانه وترنَّح فتمايلت وترنحت معه أشياء كثيرة متداخلة : نظرات حاقدة غاضبة وأخرى مرتبكة وصفير ونداء هيـ هيـ بولحية ويد مرتعشة تلوّح له وهمس متلهف من بين الأكوام في مستودع الورق... وجه ضاحك من خلال شرفة زجاجية وظل شجرة وارفة وأصبع تشير نحوه : ارحموا الرجل ومحيا حبيب يمد نحوه ورقة بيضاء... أرضك... امرأة وأطفال ومعالم وأسراب بشرية في صف طويل لا نهاية له، وصفير ريح ونسيم مبتل يبشر بموسم سعيد وأصوات... أصوات... أصوات تعلو وتختلط، تخفت وتغيب وأشباح كائنات على بعد لا نهائي تتراقص حوله وتدور وتدور، لا يدري لماذا أضحى في لحظة واحدة قطبَها ومحور نشاطها... لم يعد يحس بشيء، حتى ببرودة الفولاذ بعد أن اختلطت بأحشائه، وهي تضغط صدره بالإسفلت في عناق أبدي...

الموت... الموت هول رهيب.

* * *

بدا الجو ثقيلا مملا في الكريان سنطرال في فترة من زوال يوم بين الحار والقائظ. معظم السكان خارج براريكهم في المعامل، أو داخلها بحثاً عن ظل. حتى النهج الرئيسي الذي يخترق الحي مستقيماً من أقصاه إلى أقصاه والذي يتجمع كل مساء سوقاً لا حدود لها، لكل شيء، تختلط فيه الخلائق من مارة وبائعين ومشترين واقفين وقاعدين، كان بدوره خالياً في هذه الفترة الميتة من يومه. وفي الحوانيت المتراصة على طول النهج الذي لا تبدو له نهاية والتي كان أصحابها يغادرونها كل مساء بكثير من بضائعهم ليندمجوا في حركة النهج عندما يطغى عليهم غيرهم من الباعة ؛ في هذه الحوانيت التي كانت بمثابة متاجر رسمية، والتي من المفروض أن تمارس نشاطها نهاراً بكل همة قبل معركة المنافسة في المساء، كانت عيون أصحابها تغفو بين الحين والحين، يداعبها ما بين اليقظة والنوم في فترة راكدة ميتة كهذه. كانت حوانيت يضمها عامل الفقر، يتجاورُ فيها باعة الفحم والأخشاب والخضر والنجارون وخياطو الجلابيب وباعة الأثواب والحدادون وكتاتيب تعليم الأطفال... إلا أن كل شيء غارق في الصمت والسكون، ماعدا جماعات الأطفال التي تجد في هذه الفترة فرصتها الذهبية لممارسة نشاطها في اللعب دون مضايقة من أحد. كانت لعبتهم المفضلة أن يملؤوا خرقة بالية أو جوربا قديماً بما يصادفون من أوراق أو خرق، ليصنعوا منها ما يشبه الكرة، يتقاذفونها بأرجلهم الحافية إلى كل اتجاه مثيرين حولهم سحب الغبار، وكان من المألوف بين الحين والحين أن يقذف أحدهم نتوءاً في الأرض أو حجراً أو تصيبه قطعة زجاج أو معدن، فيسيل دمه ويصرخ ملتاعاً، إلا أن الجماعة لا تتوقف ولا تعبأ بحاله، فلا يسعه إلا أن يلتحق بها بعد أن يهدأ ألمه وقلما ينسحب. كانت حركة الأطفال في اتجاهها إلى كل صوب، وبدون تمييز، تدعو العيون الخابية في الحوانيت إلى أن تنتبه حيناً بعد حين، وتتهددهم بصوت متعب إبعاداً لأذاهم...

في هذه الفترة يحتاج الناس إلى أكثر من دافع قوي ليمارسوا نشاطهم. ولعل هذا ما توافر لرجل واحد في النهج الكبير. كان يدفع نفسه بين

الحوانيت متنقلا من جانب إلى جانب، يتوقف فترة أمام هذا وفترة أمام ذاك. لا يمل ولا يكل، ولا يتجاوز حانوتاً منها، وكان يتوقف متوعداً كلما صادف حانوتاً مغلقاً.

أما فيما عدا هذا، فيبدو أنه لا يفهم علة خمول الناس في هذه الفترة، أو لا يقتنع به ويعتبره جريمة كبرى : ألا يكفيهم أن يناموا الليل بطوله ؟ أليس تهاونهم خديعة وغشاً ؟ كيف يتناومون والبضائع أمامهم وحولهم ؟ ألا يجدون طريقة لتفقدها وترتيبها من جديد ؟ خذ بائع الخضر، إن قِطَع البطاطا عنده في حاجة إلى غسل، فلم يترك التراب عالقاً بها، وينزوي متناوماً في الركن ؟ والخياط متى سينتهي من الجلابة أو البرنوس الأسود الذي طال بصاحبه الانتظار ؟ أو ليس من الأربح أن ينتهي من ذلك ويشرع في غيره ؟ حقاً إنهم أوباش مخادعون وكسلاء لا يكسبون، يتسببون لغيرهم أيضاً في قلة الكسب وهزال الربح، من شركائهم الذين يثقون بهم ويمولونهم برأس المال، وهكذا تضيع مروءة الناس ويبخل كل من له حصة من مال، عن إتاحة فرصة الرزق لهؤلاء الخاملين فيمتنع من تمويل حرفهم وتجاراتهم...

كان الرجل الهُمام يكرر تقريباً نفس الأفكار أمام كل حانوت، وإن كانت لهجته تزداد حدة وغضباً عند البعض، وتقل عن البعض الآخر، ولعل ذلك راجع إلى ما يجده من تهاون يزيد أو ينقص في أماكن عنه في غيرها، أو لأنه يعرف من سوابق لهم ما يضاعف غيظه. لذلك كان يتوعَّد بعض أصحاب الحوانيت بأنه سيعوضهم بغيرهم، منذ الغد أو منذ الشهر القادم أو بمجرد ما يجد خلفاً لهم. وكان يذكر البعض بعدد المخالفات السابقة مبرزاً أوراقاً وسجلات يحملها معه مؤكداً :

- بنو آدم ما فيهم خير... هيه أنت يا ناعس. فق يا ولد الكلب يا الخداع. هذا وقت النعاس ؟ مزيان مزيان.

وتتجمع رغوة بيضاء على جوانب فمه من الانفعال وعنف الحديث، لكن خطابه وغضبه لم يكن يبدو أنه يجد صدى في نفوس القوم، فكانوا يفتحون أعينهم برهة، ليغمضوها دون أن يتحركوا من أماكنهم، كأن الرجل يتحدث

بما لا يفهمون أو قل إنهم تحت تأثير مخدر لا دافع له. بيْد أن همَّة الرجل لم تكن تقف عند حد، لذلك لا تضعف لهجته ولا تلين ولا يخف غضبه. لئن كان يملك كل هذه الحوانيت، فلأمر ما يصبر على أصحابها وهو يشاهد من تهاونهم وغشهم ما يشاهد، بل الأدهى من ذلك أنه يشعر باستخفافهم به، ولعله لأول مرة في جولة من جولاته لتفقد ممتلكاته وشركائه، تلح عليه فكرة استبدالهم جميعاً بدون استثناء، حتى (الشلوح) منهم، وهم الذين كانوا موضع ثقته قبل غيرهم... حتى سي احماد ومحماد ولحسن. كلهم.

ـ حتى أنت. كلكم. غدا ما يبقَى منكم حتى واحد في الحانوت، الناس غيركم كثار... اعطى الله الخير. ناس الجد والمعقول. غدا ان شاء الله... ايه وأنت ؟ هذا وقت النعاس يا لحمار ؟

وبدا أن كلمة الرجل لأول مرة تجد صداها. فقد نهض سي احماد صاحب الحانوت الذي عناه الرجل الهمام، ونفض الكسل والخمول عن نفسه، كان رجلا نحيفاً له هيئة فقيه، ظهرت عليه المسكنة فاعتذر بذلة ظاهرة وخنوع :

ـ سامحني يا سيدي. الحال سخون والدنيا كلها ناعسة في هذا الوقت. سامحني هذه المرة وعمري ما ننسى خيرك.

لكن الرجل الهمام فيما يبدو كان قد بلغ حداً من الغضب لا يجدي فيه لين أو اعتذار، لذلك لم يظهر عليه ما ينبئ عن تسامح، بل سرعان ما تجاوزه إلى غيره مهدّداً :

ـ ما بقيت نسامح حتى واحد. الخدمة هي الخدمة. أنا عييت منكم، عييت. يا لطيف...

كانت جماعة من الأطفال قد توقفت عن فوضاها وعبثها، تعالج ما تصرَّم من الجورب المتكور المحشو، حين قفز أحدهم مهلّلا :

ـ هيه... ها هو. ها هو...

وقفز الجميع وراءه حتى إذا اقتربوا من الرجل الغاضب المتجول بين الحوانيت، تريَّثوا متهيِّبين يتابعون حركاته وعباراته بمرح ظاهر، دون أن

يظهر عليه اهتمام بهم... حتى إذا مال الرجل إلى جدار قصديري وجلس على الأرض يستريح ويلتقط أنفاسه قبل أن يقوم لإتمام جولته، اقترب منه أكبرهم متودداً مردداً :

ـ مال با المذكوري ؟

لم يجب الرجل، فهذه الشؤون أبعد ما تكون عن الأطفال، وكأنما أدرك الطفل أن صمت المذكوري عن سؤاله، لا ينم عن رضى، فقال بلهجة راشد ينصح :

ـ كن منهم على بال، كلهم أولاد الحرام. أنا بعيني حصلت الحسن يسرق لك من الحانوت السلعة ويخزنها حتى للعشية ويبيعها في السوق الآخر. وقلت له : حرام عليك... با المذكوري، مول الشي، عمل فيك الثقة والخير، وأعطاك فلوسه تبيع بهم وتشري وهانتَ تسرق... قال لي : أنا ما نعرف لا مذكوري ولا بعرة...

كان الطفل يؤدي حديثه بلهجة تمثيلية، يغير فيها صوته عند كل مقطع بما يناسبه. وكأنما لقي سلوكه قبولا عند المذكوري فرد عليه بلهجة من يتظاهر باستعادة الهدوء :

ـ أنا عارف... كل شيء عارفه... غدا تتفرج على أولاد الكلبات...

واطمأن الطفل إلى أنه حاز ثقة الرجل فاستأنف نصائحه :

ـ بدّلْهم ما فيهم صلاح.

وأكد الرجل فكرته :

ـ غدا تشوف... غدا.

واقترب الطفل من الرجل أكثر، إذ لم يبق مجال للتردد الآن، وعليه أن يذكر حاجته من هذا التمهيد، بذلك قال برجاء :

ـ بالمذكوري... اعملني أنا في شي حانوت منهم... اعملني في حانوت الخضرة. في نهار واحد نعطيك مربوح شهر والله العظيم...

وبدا أن المذكوري يزن كلام الطفل، فأطال تأمله، وكان الأطفال أيضاً

يتأملون حركات الرجل وكل نأمة تصدر عنه، فلقد أَلِفوا أن يتحدثوا إليه حيناً بعد حين، كلما صادفوه في جولة من جولاته، إلا أنه لم يكن في مثل غضب اليوم، كما أن حديثهم معه لم يسر في هذا الاتجاه أبداً.

وأخيراً أجاب المذكوري عن طلب صاحبهم بالموافقة :

ـ غدا... ان شاء الله.

وبدت معالم الظفر على الطفل وهتف شاكراً :

ـ الله يرحم والديك، الله يكثر خيرك.

وسأل طفل آخر :

ـ وأنا ؟

ودون أن ينظر إليه المذكوري رد :

ـ أنت باقي صغير.

وسأله آخر :

ـ وفين أولادك ؟

ورد الرجل بهدوء :

ـ كل واحد منهم في جهة. حسن مقابل المرسى، والآخر في الفلاحة... وهنا أعلن أحد الأطفال لصاحبه بصوت مسموع كأنه يوفر على الرجل أن يذكر كل ما يملك :

ـ تعرف ؟ با المذكوري عنده البابورات في البحر، والمرسى كله دياله... وعنده الديار والأراضي و... وتوقف ملتفتاً إلى المذكوري كأنه يريد التثبت من بعض المعلومات :

. والطيارات عندكم منها شي حاجة يا با المذكوري ؟

وبدت على الرجل سمة من يتواضع :

ـ الطيارات عندي منها شيء قليل... عشرة أو...

وقاطعه طفل كان متحفزاً طول الوقت :

- والقمل والبرغوث ؟

وطاروا في لمح البصر متراكضين هازئين بينما لمَّ المذكوري أسماله، وقام متوعداً وهو يلتقط ما يصادفه من حجارة :

- أولاد الزنا... أولاد الكلبات.

وتابع رحلته في ملوكته الفسيح، سعته الأرض والسماوات.

القسم الثاني

1

جـراحنـا وبلسـم الجـراح، أحـزاننـا، آلامنا، وترياق الآلام والأحزان؛ السعي والثبات، الذكرى والنسيان، امتلاء الذات وعـدميـة الوجـود؛ الضجـة والهـدوء، والكلم العميق القاتل الخانق الخالق والبهجة والسرور، الزمان.

2

وقفت متهيبة مرتعشة أمام رئيس المعمل (النصراني) وبجانبها ابنتها خدوج كأنها تخفيها، وأزاح الرئيس نظارتيه عن عينيه البالغتي الزرقة وطفق يتفحص المرأة جيداً، مرتاحاً إلى الوراء على ظهر مقعده ويده تداعب قلماً على المكتب وسألها بعربية ركيكة :

ماذا تريد ؟ وانبرى (الغوات) يشرح له أنها جاءت تطلب شغلا، فأطال الرئيس تحديقه، وانتبه إلى كائن يطل من جنب المرأة، وقبل أن يتساءل عنه مرة أخرى، شرح له الغوات أنها ابنتها، ويمكنها أن تشتغل أيضاً بجانب أمها، وأشار الرئيس إلى خدوج المطلة برأسها من وراء جناح أمها. وطلب منها أن تتقدم، فدفعها الغوات إلى الأمام، وأعاد الرئيس نظارتيه وهو يطيل التحديق في الصبية. ولأول مرة لاحظت صفية بنت سويعد أن ابنتها شديدة الاكتناز، قوية البنية، بما يكاد يوحي بسن تزيد بكثير عن عمرها الحقيقي الذي لا يتجاوز الثانية عشرة.

وردد الرئيس :

- بْيان.

لم تفهم المرأة شيئاً من عبارته الغامضة، لكن ابتسامة الغوات طمأنتها. كان الرجل قد قدَّمها، وقدم بها إلى المعمل بتوصية من عائشة العرجاء التي أشفقت على جارتها الأرملة، ونصحتها بأن تشتغل في بعض معامل السمك، لكسب قوت أسرتها الصغيرة. كانت ابتسامة الغوات بشعة في واقع أمرها. ففمُه الخالي من كل سن كان يبدو كغوْر مظلم لا قرار له، يتضافر في رسمه اختلاط لحيته المهملة بما تشعَّث متنافراً من شعر رأس ضخمة على قامة بالغة القِصر والنحافة، وسجَّل الرئيس هُوية المرأة وابنتها، ومنح كلا منهما ورقة خضراء مقواة وانحنَى على مكتبه، بينما انسحبت المرأة وابنتها خلف الغوات، داخل المعمل.

أُحسَّت صفية بأنها تخطو في عالم غريب، رجلاها تكادان تغوصان أو تلتصقان بالأرض الصلدة الرطبة، وضجيج الآلات حولها من كل جانب،

كأرْحية تسحق صماخ أذنها... واعترتها دوخة كادت تتهاوى لها، وخُيل إليها أن عيون العمال والعاملات تحدِّق فيها بشدة، وهي تمر بين الصفوف الواقعة إلى طاولات الشغل. وفقدتْ قدرتها على الإمساك بيد ابنتها التي لم يبْدُ عليها تهيُّب بقدر ما اعتراها من فضول، فكانت تخطو بخفة وراء الغوات، تكاد تقفز. وتوقَّف بهما الرجل، خلْف صفّ من النساء متراصَّات إلى إحدى الطاولات المديدة، ونادى بصوت متعوِّد على أن يعلو فوق الآلات :

- فاطنة، فاطنة...

وظهرت المكلّفة من بين الصفوف، حيث كانت تتجوَّل متفقدة سير العمل. وسلَّمها المرأة وابنتها مُبيناً عن غوْره المظلم بابتسامته المعهودة. ودون أن تنبس فاطنة بشيء، قادت صفية إلى الطرف الأقصَى في الطاولة وناولتها سكيناً قصيراً وأومأت لجارتها أن تعلّمها، ثم سارت بالطفلة إلى عمل آخر.

كان المعمل يضم أنماطاً متنوعة من الشغل، معقدة، تنصبُّ في وحدتها النهائية عندما تلْفَظ علبُ السردين الصفيحية، ساخنة زاهية الألوان متراصَّة بانتظام في صفوف يحركها حزام يدور تحتها بتؤدة، لِتعبَّأ في الصناديق الخشبية، وتحمل في الشاحنات إلى الميناء، ثم إلى حيث لا يدري أحد. وكانت هذه الشاحنات الضخمة، في حركة دائبة، فعدا هاته التي تحمل أكياس العلب الجاهزة، هناك أخرى تُقبل في كل وقت من ليل أو نهار، سواء من المرسى القريب أو من أقصى موانيء الجنوب محمَّلة بأكداس السردين، متراكماً على بعضه، تتخلله طبقات الملح، رشَّت عليه تفادياً لفساده قبل أن يصل المعمل. وما تكاد حمولة السردين تصل في أي وقت من ليل أو نهار، حتى يكون كل شيء معداً لاستقبالها، فطاولات العمل جاهزة نظيفة والعمال والعاملات بالانتظار. ذلك أن الغوات يكون قد سارع بنفيره، قبل حلول الحمولة بفترة كافية، يُعلن وصولها... وتبدأ عملية إفراغ الشاحنات من حمولتها بواسطة صناديق خشبية. وهي عملية لا يراعى فيها اختصاص، بل يشارك فيها الجميع كباراً وصغاراً نساء ورجالا، في

هرج وضجيج وسرعة، تختلط فيها السِّباب بالضحَكات، وارتطام البعض بالآخر، وتعثُّر الأقدام على الإسفلت الرطب بالمياه المتقاطرة من الصناديق والأملاح... حتى إذا انتهى ذلك ساد المعمل شيء من النظام، إذ يقصد كل مكانه، وينصرف إلى أداء دوره، فطائفة تُفرغ الصناديق في صهاريجَ كبيرةٍ ملأى بالمياه المملَّحة، وأخرى تغمس أيديها إلى ما يقارب الإبطين في هذه الصهاريج لغسل السردين، وإزالة قشورهِ الرقيقة، ووضعه في صناديق تحمل إلى الطاولات، حيث تعمل فيه الأيدي مسلحة بسكاكين صغيرةٍ لإزالة الرأس والأحشاء، ليمرَّ من جديد في صهاريج صغيرةٍ أنظف، ومن هناك إلى الفرن، حيث يُسْلق قبل أن يعبَّأ في العلب، ويصبُّ عليه الزيت وتُختم عليه العلب، لتمر في فرن الطبخ الأخير ومن هناك، تُمسح العلب الساخنة بنُشارة الخشب لإزالة ما قد يعلق بجوانبها من الزيت، وتُرتب في صناديق التصدير إلى الشاحنة...

عمليات أساسية متكاملة، تكون في نفس الوقت تصنيفاً لفئات العمال والعاملات من حيث الأقدمية في الشغل، ومقدار الأجرة... وعمليات أخرى تجري في نفس الوقت لتمليح السردين الفائض في صهاريج أكثر تركيزاً بالملح وغيره من المواد المصبِّرة.

وكان الرجال في معامل السردين يمثلون أفضل طبقة، فجُلُّهم يمثل ركائز ثابتة في المعمل، يسيرون الآلات أو يركِّبون الألواح الخشبية الجاهزة لتصبح صناديق أو ما إلى ذلك من أشغال تتسم بنوع من الأهمية، تجعلهم ينظرون إلى النساء بنوع من الاستعلاء والتحكم، ويضحكون ويتغامزون على إحداهن عندما تفقد توازنها وتسقط... على أن ثَمَّ فتراتٍ يزول فيها هذا التميز كما في حالات التفريغ أو عند غسل المعمل وتنظيفه عقب انتهاء كل فترة من فترات الشغل. ولعلّ الامتياز الأساسي لجل الرجال بهذه المعامل، هو أنهم كانوا رسميين أو أشبه شيء بذلك، بحيث لا يسقطون في العطالة مطلقاً أو يسقطون فيها لفترة قصيرة في السنة. فعندما تنتهي مواسم الصيد، يستمرون في أشغال صيانة المعمل والآلات وإعداد الصناديق للموسم القادم...

وكان صنف النساء أيضاً يضم فئات أو طبقات، لعل أرفعها حالا وأجراً، هنَّ فئة من يشتغلن بتعبئة علب السردين بالزيت قبل دفعها إلى الفرن الأخير. فهذه مرحلة تتطلب نظافة في القائمات بها بالإضافة إلى الحذق والمهارة. والمكلفات المشرفات على عمل النساء غالباً ما يكن قبل هذه المهمة، منتميات إلى فئة عاملات الزيت. ولعل أرذل صنف في الرجال والنساء على السواء، هي طبقة المشتغلين في الصهاريج أو قَطْع الرأس والأحشاء.

اضطربت يد صفية كثيراً وهي تمسك السكين، وتضعه على القفا الطرية للسمكة الصغيرة وتضغط عليها مدعمة بإبهامها على الحلقوم، لينفصل الرأس بحركة جاذبة إلى الأسفل نحو بطن السمكة تفصل معه الأحشاء في نفس الوقت... وبدت المرأة المبتدئة في حاجة إلى مران كبير لإتقان هذه الحركة، بحيث لا تفصم السمكات أو تفسدها أو تتركها بأحشائها. ووجدت من العاملة التي بجانبها معلّما صبوراً. على أن رئيس الورشة (النصراني) يجب ألا يلاحظ بعد فترة أن الأمر طال بها دون أن تتعلَّم، كما يجب ألا تلحظ المكلفة ذلك أيضاً. لذلك كانت جارة صفية أو معلمتها تقطع بين الحين والآخر، كومة من السمك لحساب صفية وتضعها أمامها لتظهر في عين المراقب أنها قد تعلّمت، بسرعة. وكانت هذه المرأة تتفضَّل أيضاً بحركتها السريعة، لرمي ما تفسده صفية من سمكات في صندوق الأحشاء، تحت الطاولة. وإذ كانت متأكدة من أن المكلفة أو المراقب أو غيرهما، لابد أن يراجع صندوق الأحشاء والزوائد الخاص بصفية قبل أن يقتنع بأنها تعلمت، فإنها كانت ترمي ما تفسده صفية من سمك في صندوقها الخاص، لأنها كمتمرنة على الشغل ليست معرضة لمراقبة من هذا النوع... ولم تستطع صفية أن تقول شيئاً حتى ولا كلمة شكر على هذا الجميل، والمرأة ما تفتأ ترشدها بين الحين والآخر :

ـ شدي هكذا... واقطعي وأنت هابطة تحت... جهة الكرش. وتحاول بنت سويعد فتفلح مرة وتفشل مراراً. وتعاود معها المرأة محاولاتها :

ـ ثبتي يدك وبلا رعدة.

ولم تكن هذه الملاحظات لتزيد المبتدئة إلا ارتعاداً واضطراباً. وكما يفقد المتعلم الثقة في قدرته على الإتقان، بعد توالي الفشل، كذلك خُيل لصفية أنها لن تتعلم مطلقاً، وأنهم سيطردونها قبل نهاية يومها الأول، وتمنَّتْ لو أنهم أعطوها عملا آخر، مهما يكن مُتعباً على ألا يحتاج إلى مهارة مثل هذه... وفضّلتْ لو تكون مع حاملات الصناديق من الصهاريج إلى هذه الطاولة مع ما في ذلك من تقاطر المياه النتنة المالحة على جنْبيها، فمثل ذلك العمل يمكنها أن تتقنه على أحسن وجه وتتحمله... ولاشك أن وصية جارتها في الزقاق، عائشة العرجاء للغوات، وتوسطه هو الذي جعلها تعيَّن بهذا العمل ما بين الأرفع والأرذل، لكن الأرذل والأشق قد يكون أرفع في نظرها إذا ما كان بسيطاً.

وجاء صوت الجارة المعلمة منذراً لبنت سويعد :

ـ تعلمي وإلا... تمشي للماء والملح...

ورغم أن صفية كانت قد يئست من أن تتعلم، ورغم أن مضمون هذا التهديد في ذاته لا يرعبها ؛ إلا أن نغمته أيقظت عزيمتها، وكأنما بعثتْ فيها شيئاً من التحدي في معركة الوجود، فإذا بحركاتها تنضبط بعض الشيء. أهو الخوف ؟ أم هي نغمة النصح والإرشاد التي اتَّبعتْها المرأة معها منذ البداية لم تثمر في تعليمها، لأنها جعلتْ صاحبتها على قرب عاطفي منها، لم ينفذ معه شيء من تعاليمها بقدر ما صرف اهتمامها إلى مجال آخر، لعله مجال وحدتها واغترابها ؟ كل ذلك ممكن، لكنها لم تنصرف لتحليل شيء منه، بل تتابعت بين يديْها السمكات مقطوعة الرأس والأحشاء سليمة في أكثرها... وصدر صوت معلّمتها مشجعاً :

ـ ها أنت تعلمت... زيدي... هكذا...

قالت المرأة ذلك، وهي تتابع بابتهاج بوادر نجاح تعليمها في يدي صفية كما يتأمل الفنان لوحة من إبداعه.. ووجدت المعلمة الفرصة مواتية لتذكر لصفية، أنها قد علّمت أكثر من نصف العاملات بالمعمل، حتى المكلّفات منهن تعلمن على يديها في البداية، وعلقتْ :

ـ لكن بنو آدم ما فيهم خير !

وطفقتْ تشكو نكران الجميل عند بعضهن من اللواتي بمجرد ما يحظَيْن بالتعلم والأقدمية وينتقلن إلى المسؤولية، يبدأن بالإساءة إلى من علمتهن... لكن ما يعزِّيها أنهن لا يصلن إلى ذلك بأعمالهن... بعرق الجبين كما تفعل هي بل بوسائل مختلفة، دنيئة، بمضاحكة الرجال أو... وهمست في أذن صفية بما هو أكثر من المضاحكة، وعلقت باشمئزاز :

ـ الكلبات ضحكة الرجال...

لم تنبس صفية بعد بشيء. وبدا أنها تغالب شيئاً لعلها غالبته منذ ساعات حتى تركز الآن، فبدأتْ تترنح تحت ضغطه، وانتبَهتْ جارتها إلى حالها، وأدركت معناها بسرعة مما عرى صفية من اصفرار شديد وارتعاش الشفتين. فمسحتْ الجارة يديها في مئزرها، وحلت عقدة في أطراف ثوبها، لتخرج منها حبات قرنفل سوداء دفعتْها في فم صفية وأمرتْها بأن تلوكها :

ـ امضغي... امضغي...

وطفقتْ تكرِّر أمرها وأسنان صفية تضغط على الحبات، وما لبث أن ظهر عليها بعض انتعاش مما اعتراها من غثيان وموجة عارمة في القيء، ولَّدتْها فيها نتانة السمك ولزوجة الأحشاء السوداء، والقشور الدقيقة مختلطة بالدماء القانية المتجمدة، في نفس لم تتشبعْ بعدُ بها.

وأكدت المرأة لصفية مطمئنة :

ـ كلّنا جرى لنا هذا الشيء في الأول... وكل شيء يفوت.

وتمنتْ صفية من كل قلبها أن تجتاز هذه المرحلة بسرعة. فقد بدتْ فوق كل محنة. ولئن نجحتْ لسعات القرنفل ورائحته في دفع موجة القيء الآن، فإنها تتهيبُ عودته بمثل هذه القوة أو أشد، ولا تدري كيف تدفعه، ولأول مرة حركتْ شفتيها بعبارة شكر للمرأة :

ـ الله يجازيك يا ختي.

ونصحتها المرأة وهي تزوِّدها بحبات إضافية :

- دائماً خذي معك القرنفل، والبصلة في الأيام الأولى.

وعوّلتْ صفية على أن تفعل ذلك، وقد أحست الآن بانتعاش كبير. وكانت المكلفة قد نظرت مرات في صندوق صفية الخاص بالأحشاء والزوائد، مخوّضة بيديها لتتحقق من أن المرأة المبتدئة لا تتسبّب في ضياع الأسماك وإفسادها. وبدأت السمكات المجدولة الرأس والأحشاء تتالى، من يدي صفية ببعض السرعة، على السماط المتحرك أمام الطاولة لتغيب في صف طويل يؤدي بها إلى صهريج آخر لغسلها. لقد بدأتْ الآن تجد بين الحين والآخر فرصة ترفع فيها بصرها لترى ما حولها، دون أن يتسببَ ذلك في كبير ارتباك ليديْها. وانتبهتْ إلى أنها طوال هذه المدة قد نسيت ابِنتها خدوج ولم تعرف عنها أي شيء، فالتفتتْ حتى تبينتْها مع بنات أخر يقمن بحمل صناديق الأحشاء من تحت الطاولات، لإفراغها عندما تمتلئ أو تقارب الامتلاء في مكان آخر تعالج فيه هذه البقايا، للاستفادة منها على نحو مخالف.

وسألتها المرأة :

- اسمك ؟

وعرفتها صفية باسمها، وامتد الحديث بينهما في انقطاع واتصال :

- عندك أولاد ؟

وردت بنت سويعد :

- بنت وولد.

عادت تسأل :

- ورجلك ؟

وأجابت صفية بتنهد أفاد بمقتضى الحال. وتوقفتْ جارتها عن السؤال عند هذه النقطة. هي أيضاً أم أيتام. ولها معالم حكاية مشابهة. ومضتْ فترة طويلة في الصمت والعمل، انتبهتْ بعدها صفية إلى أن ثيابها قد تلطختْ بفضلات السمك، فقد تغفل بعد كل حين عن تنبيه جارتها لها، بأن تبتعد

عن طاولة الشغل، وعوَّلَتْ على أن تتخذ لها منذ الغد مئزراً تلفُّه فوق ثيابها، يتدلى من محزمها إلى أسفل الركبتين كما تفعل جارتها والأخريات. وجرَّها ذلك إلى أن تفكر بأجرتها وبدأت تجمع الفرنكات في ذهنها عبر أيام الأسبوع المقبلة، أو تتطلع إلى المواسم الجيدة، حيث يرتفع المجموع إلى ثلاثين ريالا، والمواسم السيئة حيث يهبط إلى ما دون العشرة في الأسبوع، يضاف إلى ذلك أجرة البنت، وتذكرتْ في نفس الوقت ابنها الصغير، لقد وضعت له خطة يومه. فهل يتبعها ؟ خططتْ له أن يقضي صباحه إلى الزوال في المسيد، فإذا غادره في هذه الفترة فإنه يتوجه إلى المسكن، وقد تركتْ له الباب الخارجي مفتوحاً إلا من (ساقطة) خشبية عليه أن يدخل يده من فُرْج في المصراع ليحركها فتنحرف وينفتح الباب. أما البراكتان فمفتاحاهما معها ولا حاجة به إلى فتحهما. كان ما عليه أن يقضي ساعتين في الصحن حيث يجد غداءه في ركن معلوم : كسرة خبز أحيانا يمكنه أن يجد كأس شاي في البراد بجانب الخبز... وقبيل العصر عليه أن يعود إلى المسيد وإذا ما غادره عند الغروب ـ على أن يعيد إغلاق الباب الخارجي كما دخل منه ـ فالأمر واضح إذا كانت صفية قد عادت من الشغل، وإلا فأمامه (أمه) عائشة، يقضي عندها المساء وكل الليل إذا لزم الأمر، ولن ينقصه عندها شيء... لكن إن لم يحترمْ الصغير هذه الخطة، إن سول له شيطانه مثلا أن يذهب بعيداً مع رفاقه في المسيد، بدَل أن يعود إلى المسكن عند الزوال، إن فعل ذلك فستكون بنت سويعد بائسة إلى أقصى حد، وستنزل بها كارثة عظمى... ترى أين هو الآن ؟ ولا تملك إلا أن تُعوّل على أن تسأله كل يوم عندما تلتقي به عند العودة : أين قضى يومه وكيف ؟ ولا بأس من أن تعوّل على أن تضربه لفائدة الشك، فذلك أدْعَى إلى الاحتياط وإلى زرْع الخوف في قلبه من أن يحيد يوماً عما ترسم له. وبدا لها وجهه معبساً مقطّباً وهو يستمع إلى وعيدها، ثم وهي تغير من لهجتها وقد حررت أذنه من قبضتها، وهي تُهديه شيئاً حلواً محبباً إليه، وتمنّيه بزيادة إن كان عاقلا واستمر في احترام خطتها في غيبتها :

ـ غدا نعطيك أخرى.

ويقضم قطعة السكر متأنياً متلذذاً، دون أن يبدو أنها قد نزعت ما زرعه الوعيد في باطنه من خوف وارتعاب، ولا أزالت ما ارتسم على محياها من تقطيب وعبوس. وتوقفتْ يداها عن العمل فترة لتوعك أصابها بعد أن آلمها القبض المستمر على السكين.. الحق أنها عدا هذا التصلب في أصابع اليد، كانت تشعر بوجع في العمود الفقري، وتخشب في الساقين بعد ساعات طويلة من الوقوف المستمر على وضع واحد... ويقولون إن التعب يتجمع بقوة عند التوقف، وعند استئناف العمل كل يوم طيلة الأسابيع الأولى، قبل أن يصبح عادة... ووطّنتْ نفسها على أن تتحمّل كل تعب، شريطة ألا يعاودها الغثيان الخبيث وما يصاحبه من دُوار.

وزعق في المعمل نفير مؤذناً بتوقف العمل لفترة الغداء حوالي الواحدة زوالا ولمدة نصف ساعة. وتوجهتْ النساء لغسل أطرافهن بسرعة، ليمرْن بعملية التفتيش في الباب الخارجي، ثم يتفرقن إلى جماعات، يتناولن ما حملن من أكل بسيط أو يبتعن بعضه من الدكان الوحيد القريب في هذه المنطقة أو من بعض العربات اليدوية لباعة الفواكه الموسمية...

أرسلت صفية ابنتها إلى الدكان لابتياع بعض الخبز، ثم انعزلتا وجلستا معاً إلى حائط المعمل تتناولانه في انتظار نفير الدخول.

أضحت صفية بنت سويعد وابنتها الآن، ممن يضمهن سرب الرائحين والغادين في الطريق المستقيم من حي العمال بالكريان سنطرال في أقصى الشرق، إلى حي معامل تصبير السمك على حدود البحر غرباً. وانضمتْ بذلك أربعة قباقب خشبية إلى الأقدام الراكضة طوال السنة في غُدُوّ ورواح، في ليل ونهار.

* * *

3

انفض الأطفال عن المسيد كالنحل الهائج عند الزوال في وقتهم المعتاد لا في الوقت المعقول. فقد كان الفقيه حريصاً على أن يمسكهم إلى وقت متأخر من نهار أو مساء، وكانت حميته في التدريس تزداد بقدر ما يتكاثر عدد الرسل من جانب أسر بعض الأطفال يطلبونهم للغداء، وعندما يكون الرسل من الرجال والراشدين، فإن الفقيه يجلسهم عند باب البراكة الوحيدة التي يتكون منها المسيد والتي تنفتح على الزقاق مباشرة كأي دكان، أو يدعو بعضهم إلى الدخول ويجلسه إلى جانبه إذا كان من المرغوب فيهم، بينما هو مستمر في مهمته، كأنه يشهدهم بذلك على أنه يستميت في تعليم أبنائهم، أما عندما يكون الرسل من إخوة التلاميذ، فإنه يكتفي بنهرهم ليعودوا سريعاً من حيث أتَوا، محمَّلين برسائل الذعر التي يترجمها الأولياء على أحسن وجه لصالح الفقيه المخلص. وكان كبار التلاميذ على علم بخطته، يتحدثون عنها فيما بينهم، فيفهم عنهم الصغار بكثير من الغموض، والمُنقذ الوحيد الذي كانوا ينتظرونه ليخلّصهم من وقت متأخر في الخروج هو قدوم زبون في آخر لحظة، يُفضّل أن يكون امرأة تطلب الاستشفاء ببركة يد الفقيه، أو استطلاع الغيب بخطه الزناتي أو غير ذلك، مما يُتقنه الفقيه أو يدَّعيه. وهنا كانت حركة التلاميذ تضايق الفقيه، أو بالأحرى ضجَّتهم ؛ فكان يكثر من نهْرهم ليُخفضوا أصواتهم أو ليصمتوا ؛ أما إذا كانت الحصة في منتهاها، وهو ما يتمناه التلاميذ، فإنه يُحرِّرهم في الحين متنازلاً عن حقه في تأخيرهم...

وإذْ كانت أحاديثُ الكبار من التلاميذ على كثير من الغموض وإذْ كان بعض الصغار يحيا في العادة تحت رقابة شديدة، بحيث تغدو به وتروح أمه أو أخته أو أحد من أسرته ؛ وإذْ كان هذا البعض قد حررته ظروف موسم السمك من هذه الرقابة، لتغيُّب من يعنيهم أمره في أشغال أخرى خارج المسكن... لكل ذلك ولغير ذلك ؛ فإن بعض هذه الطائفة وجدتْ متعةً في أن تظل بجانب الكبار تستمتِع بما يتحدثون به من غرائب المغامرات، وما يأتون من حركات. سمعوا أحاديث «البلاية» البعيدة،

وشاهدوا حركات تمثّل القفز في الماء يتبارى أصحابها في إتقانها، وبعضهم يذكر غرائب ما وقع له أو ما يتخيَّل أنه وقع عندما اشتد به الجوع ذات يوم في «البلاية»، فسرق خبزاً وبطيخاً أو على الأصح اختطف ذلك وفرّ، والقوم يتراكضون خلفه... لم يُنجِه منهم إلا أنه مغامر كبير. وعلّق آخر على مغامرة له مع فتاة رسمها رسماً غامضاً... وتتابعت الحكايات... وبحث أحدهم عن ثِقاب يشعل به عقب سيجارة مما تعود أن يَلتقطه فيبيع بعضه ويستهلك بعضه... وتنوعتْ أحاديث المغامرات، حتى أهاجت في كبار التلاميذ شهية إلى مغامرة جماعية، فطردوا جماعة الصغار باحتقار، وانصرفوا يتداولون في شؤونهم. وثاب الصغار إلى أنفسهم، وقد تهيأتْ أذهانهم الصغيرة لفعل شيء لم يعبّروا عنه. وانبرى أحدهم يقترح لعبة القفز، بعضهم على ظهور البعض ؛ إلا أن حماسَتهم لها خمدتْ بعد الدورة الأولى. واقترح آخر، لعبة الاختفاء وغيرها دون أن تستقر حماسَتُهم على شيء. كانت بذور مغامرة صغيرة تنمو في أذهانهم لكنها غير محدَّدة، ولم تجذ بعْدُ جريئاً يجاهر بها. ودون تمهيد أو ارتباط بما سبق من اقتراحات، أو تخطيط ؛ صاح أحدهم :

ـ يا الله للسوق.

وكأنما فاجأهم باقتراحه، فالسوق ليس لعبة، ولكنه كفيل بأن يطفيء جذوة ظمئهم لفعل شيء، وأن يمتصً حماستهم. ودون تفكير طويل وافقوا :

ـ يا الله.

وبعد جولات في زحام الواقفين والقاعدين من البائعين والمشترين والمتفرجين والنّشالين خرجوا بحصيلة لابأس بها : بعض ثمار من فواكه الموسم، وبعض الطماطم، وقطع الملفوف والكوكو، وقطعة تكاد تكون كاملة من السمك المقلي... وخليط أشياء أغلبها كان مرمياً مهملاً، لكن من أتوا بها ذكروا العجب من مغامراتهم للحصول عليها... إلا أن من هذا الخليط ما كان جديراً بأن يُسجَّل ويثير الانتباه والتنويه : أثر لكمة قوية على عين أحدهم، أعطت مفعولها بسرعة في زرقة بدأت تحيط بناظره، وثلاثة قروش في يد آخر، بدأ حكاية الحصول عليها صادقاً فيما يبدو،

ذاكراً أنه سأل رجلا أن يتصدق عليه بها، لكنه ما لبث أن لمح نظرات من أقرانه لم يرتخ لها، فانحرف بالحكاية إلى نحو آخر :

- لا لا، كذبت عليكم، خطفتها والله العظيم، خطفتها لواحد أعمى.

وإذْ كان الجوع قد أخذ ببطونهم، وفات أوان الغداء في منازلهم، بالإضافة إلى أن خليطهم لا يحتوي على خبز، فإنهم وافقوا بسرعة على اقتراح أحدهم :

- تعالوا عندي... براكتنا خاوية وعندي الخبز...

وتنادوا :

- يا الله.

وفي صحن المسكن الذي ضمهم اتجه صاحبهم إلى ركن سحب منه مدخر يومه من الخبز، وصبَّ لهم كأس الشاي من البراد، تناوبوا جرعاته وأكلوا ما جلبوا من خليط السوق، قسموه بينهم بالمساواة، وذهبوا إلى حد الغناء بعد انتهائهم من الأكل، فقد كانوا يشعرون بأنهم حققوا بالفعل مغامرة كبيرة. فهم لأول مرة يتناولون غداءهم خارج منازلهم ويكسبون بمهارتهم، ولأول مرة لم ينتبهوا إلى أن العصر قد مضى، وبذلك فاتهم وقت الرجوع إلى المسيد بساعات، على أن منهم من ذهبت به الحماسة إلى أن يؤكد أنها ليست مغامرته الأولى، وذكر أن له مغامرات متنوعة سابقة مثل هذه وأكبر منها، وذكر على سبيل المثال مغامرة له مع «بنت !» لم يرسمها خيالة بشيء من الغموض بل بكثير من الوضوح والتجسيد، ولعل تحدي رفيقه الآخر الذي استكثر عليه هذه المغامرة، هو الذي دفعه إلى مثل هذا الوضوح عندما اعترضه :

- هها... بنت ؟ كذاب.

ولم يستطع صاحب المغامرة أن يتراجع فأكد :

- والله ما كذبت... وحق ستين حزب... حتى مشيت مع بنت.

ولكن المعترض لا يرجم

ـ اسكت. اسكت.

ولكنه لم يسكت بل حمل ذهنه الصغير بغاية السرعة ليفحم خصمه أو يقنعه ولكن كيف ؟ وقال :

ـ والله العظيم... بنت وأنت تعرفها.

ـ اسمها ؟ قل.

ـ أختك.

وعم صمت مفاجيء من وقع الكلمة، وتشرب الجو بالتوجس، وانقدح عن الأعين البريئة بريق مكر يغرى...

ـ اختي ؟..

كانت لهجته استنكاراً واستشهاداً للحاضرين على ما لحقه من إهانة أكثر مما كانت سؤالا ؛ ولم يرد المتهجم ولكن حركة شفتيه المزمومتين في إصرار وتركيز نظرته، كانا بحيث يعلنان بأن البادئ أظلم، أكثر مما يعلنان صدق الحكاية، وتردد في الحين صدى صفعة على وجه أحدهما، وتلاها اشتباك وعراك أفسح له الآخرون حلقة الصراع، وكان لابد أن يتدحرج شيء على الأرض، فغرق الصحن بماء الخابية المتكسرة كما انكفأ البراد، وخرط رأس قصدير ناتيء أو مسمار ذراع أحدهما، فسال دمه دون أن يبكي... وأخيراً هبَّت إحدى الجارات على أصوات العراك والهرج، ففرَّ الجميع كفراخ أزعجها خطر مُداهم، ولم يبق إلا صاحب الدار الصغير، ودموعه تنساب أمام وعيد الجارة بأنَها ستذكر كل شيء لوالدته.

ولاشك أن الفقيه توعَّد كثيراً هؤلاء المتمردين الصغار، وثلة من أوليائهم تنتظر وتستفسر عن غيابهم، وتعلن قلقها عن مصيرهم ؛ ولاشك أن بعض هؤلاء الأولياء ذهبوا في كل اتجاه يبحثون ويفتشون دون جدوى.. ولئن كان لأحد أن يبتهج بما حدث، فهم فرقة الكبار من تلاميذ المسيد، الذين منَّوْا أنفسهم بمشهد لم تتح لهم قط فرصة مثله، عندما يتعرض الصغار جميعاً للعقاب، بيْد أن ذلك ربما كان أهون أمام ما يمكن أن يلقاه أحدهم من والدته.

4

كوَّن نزول الأمريكان لعدة سنوات معسكرات قارة، تركزت في أقصر ضواحي المدينة بالمطار وحواليه، ورمت تجمعاتُهم بنفاياتها على مقربة منه، على مساحة شاسعة كوَّنتْ مزبلة ضخمة تختلط فيها سوائل الزيوت المحروقة بالخرق البالية وعلب الصفيح، والورق، وأعقاب السجاير وقطع الغيار الفاسدة وشفرات الحلاقة الصدئة... ونالت المزبلة شهرة فائقة، وأصبحت بذلك مقصد طائفة من خلائق تقضي يومها منحنية تنبش بين النفايات، باحثة عن كل شيء يمكن أن يصلح أو تجعله يصلح لأمر من أمور حياة فقدت كثيراً من إنسانيتها. ولعل هذه الخلائق احتارتْ في أول أمرها فيما يمكن أن تفعل بكثير مما تجده كما احتارت في تصنيفه، ولعل كثيراً مما وجدتْه لم تستطع أن تفعل به شيئاً لانعدام المشتري، وعدم تصور صلاحيته... بيد أن ذلك لم يطل، فسرعان ما اشتهرت في عدة نقط من المدينة مراكز لرجال يشترون كل شيء، أياً كان، ولا يدري أحد من هذه الخلائق، كيف كان هؤلاء الرجال قادرين على تصريف ما يبتاعون من أبخس الأشياء بأبخس أثمان ! وكانت إحدى هذه النقط في ساحة فضاء بطرف المدينة الأهلية، على مقربة من بناية أحد السجون. ففي هذه النقطة كان كل ما تلتقطه خلائق هذه المزابل، يتراكم ويتسع مُلْتهماً كل يوم مقداراً من مساحة الأرض الفضاء المهجورة. وفي مركز هذا الركام، يقوم شبه دكان مبني بالآجر تُعرَض فيه معلّقة وموضوعة بعض البضائع في حالة ممتازة بالنسبة لبضاعة تلك البقعة، وعلى باب الدكان يجلس رجل مهيب، لا يُفرِّط في أناقته البلدية : سعيد، يعينه في ترتيب البضاعة ويتسلمها، أعوان لا يترفعون عن أي نوع من شغل، وحين يتغيب صاحب المحل لبعض شؤونه، كان أحد الأعوان ينوب عنه في التسيير.

الواقع أن المحل لم يكن يثير جاذبية كبيرة، فزبناؤه قلة وهم غالباً لا يحملون معهم أي شيء من بضاعة عندما ينصرفون، باستثناء بعض عربات الكارو التي تحمل بين الحين والحين بعض قطع الصفيح التي

عملت أيدي الأعوان فيها، فقطعتْها وسوَّتها بعد أن كانت في شتى الأشكال والأحجام من أسطوانية أو مكعبة، فاستقامت لتصبح صالحة لأغراض أخرى من أهمها إقامة البراريك، كما كانت هذه العربات تحمل في فترات معلومة من كل أسبوع، ما يتجمَّع من القناني وقطع الزجاج لتصرفها للتذويب في معمل خاص قديم... فيما عدا هذا، كان كثير من الزبناء يقضون ساعات مع صاحب المحل في التهامس والحديث الخاص، تتخللها كؤوس الشاي التي لا يخل بها سعيد، ثم ينصرف الزبون مطمئناً بعد أن يؤدي حصة من مطلوبه، على أن يتم الباقي عند تسلم البضاعة وجُلّ هؤلاء الزبناء من ذوي النعمة والأعمال والمستورين، وكان أهم ما يطلبون : أكياس الإسمنت وقضبان حديد البناء، وعلب الصباغة والأثواب... وكلها نادرة وغير معروضة في أي مكان.

أما خطة التصريف، فكانت تقضي بأن يتحمل الزبون جزءاً من أخطارها، فصاحب المحل يتكفَّل بتجهيز عربة كارو بالمطلوب مع تغطيتها بالتبن أو ما شابهه تمويهاً، وتربُض في مكان يحدِّده سعيد، وعلى الزبون أن يأتي للموعد المضروب، أو يرسل من ينوب عنه ليقود إليه العربة ببضاعتها، ويعود بها بعد ذلك فارغة إلى محل سعيد. وإذا كان من الصعب أن يتبين المرء مصدر تموين سعيد وأمثاله بمثل هذه البضائع ولا كيفية الحصول عليها، فإن بضائع أخرى من نوع أخفّ كانت معروفة المصدر، ذلك أن محل سعيد ما لبث أن أصبح مقصداً لزبناء من نوع آخر، وهم الجنود الأمريكان، وغيرهم من الأجانب الذين كانوا يأتون في الظاهر لاقتناء ما قد يكون بحوزته من الطُرَف وكانوا يبيعونه التبغ والخمور والألبسة وغيرها. وكان بدوره يتحمل في كثير من الأحيان أخطار عملية التسلُّم. وما كان على زبنائه من جنود أو حراس في المطار، أو المعسكرات، إلا أن يرموا خارج السياج بالبضائع ملفوفة أو مدفونة. ليلتقطها أعوانه ويوصلوها بطرقهم الخاصة...

كان سعيد في نهاية أحد أيامه وقد هدأ كل شيء حوله، وساد الظلام بقعته منذ أكثر من ساعة، ولم يبق من أعوانه إلا المكلف بالحراسة

المستمرة للمكان... لقد بدا قلقاً وهو يتطلَّع لعربة تأخرتْ في عودتها، حين برز من الظلام على مقربة منه شريكه وصديقه العتيد الحاج موسى، في نحافته وطول قامته وبادره سعيد مستطلعاً متلهفاً :

- ما لك ؟

رد موسى وهو ينفض يديه أسفاً :

- ضيعنا وضيع رأسه فيها ذاك الحمار، البوليس وقفوه وبقي قدامهم يتفتف ما عرف ما يقول ولا ما يعمل، بقيت مقابلهم من البعد حتى شدوه وشدوا الكارو معه.

وضرب سعيد الأرض برجله غضباً وهو يقول :

- حمير. خاطري علمني عليها من قبل... حمير.

وتوقف مفكراً. فهمُه أن يحصل على ما تبقى من نصف ثمن البضاعة، والمشتري يجب أن يتحمَّل مسؤوليته كما يقضي بذلك الاتفاق ؛ أما عربة الكارو فهي غير واردة فيه، وضياعه فيها محتمل، وإن كان قادراً على استردادها بطريقته الخاصة، لكنه إذا استمر على هذه الحال، فستبتزُّ أمواله في محاولات الاسترداد من مثل هذا النوع... وهكذا قرر خطة جديدة صارح بها شريكه في الحين :

- اسمع، من هنا للقدام، حتى واحد ما باقية السلعة تمشي له حتى يدفع ثمنها كله، وثمن الكارو معها...

* * *

5

كان يوماً من تلك الأيام التي تتوالى مؤذنة بقرب انتهاء موسم الأسماك، عندما تصبح فترات الشغل في المعمل أقصر وأكثر تباعداً وأبعث على الارتباك في حياة الناس : بضع ساعات شغل تبدأ بعد منتصف الليل لتنتهي قبيل الفجر، وتبدأ بعد ذلك عند الظهر أو المغرب مع قدوم إحدى الشاحنات بحمولة جديدة... يوم من تلك الأيام التي تجد فيها تلك الأجسام المتوترة على الدوام راحة ثقيلة لم تتعوذ عليها. في مثل هذه الفترة يُسرَّح كثير من العمال والعاملات غير الرسميين، أو ممن لا تدعو قلة الشغل إليهم من معامل السردين، ولا يُحتفظ إلا بأقل عدد منهم تدعو إليه الحاجة. ويعمل المسرَّحون على تجنُّب هذه العطالة بالانخراط في معامل ذات نشاط موسمي من نوع آخر، كتلفيف الخضر والفواكه وتصبيرها...

هكذا دقّت القباقب الخشبية مصعدة نحو الكريان سنطرال حوالي العصر، في صفاء نهار هادىء معتدل، كفيل بأن يوحي لكثير من الناس بأفكار جميلة... ولعل صفية وهي تصعد عائدة مع الرجال والنساء في طريقها المألوف، كانت تتابع مثل هذه الخواطر، لذلك لم تكن تعي كثيراً مما يدور حولها في الطريق من أحاديث العمال والعاملات، ولعل خواطرها هذه كانت تنقطع بين الحين والآخر، لتُجيب عن سؤال أو لتتابع طيشاً صبيانياً لا يناسب أعمار العمال الذين يتحرش بعضهم ببعض أثناء الطريق، لينشب بينهم مزاح خشن وعراك وسباب... أكانوا في أعماقهم مجرد أطفال سعداء ؟ أم هم يفرِّجون عن طاقة فيهم لم تجدْ لها منصرفاً ؟ أم يقصدون فقط إلى مزيد من إثارة انتباه النساء والفتيات ممن يسايرنهم في الطريق ؟ كل ذلك محتمل، إلا أنه لا يتبلور في جواب محدَّد، ربما لأنه لم يُصَغْ في أذهانهم سؤالا.

تنقلتْ صفية في أرجاء خواطرها، يملؤها شعور بالرضى والاطمئنان، فقد وُفقتْ منذ أسابيع إلى توقيف ابنتها خدوج عن العمل في المصنع، لتوكلها إلى من يعلِّمها الخياطة، ولتسهر في نفس الوقت على أخيها في غياب أمهما، فقد تبينتْ أن سلوك ابنها غير مُرْضٍ في غيبتها، وأحست

صفية بالامتنان الشديد لهذا الكنز المتحرك من القيم الإنسانية، الذي يطلق عليه في زقاقهم عائشة أو العرجاء، فكم أسدتْ إليها من خدمات.

- كيف حالك ياصفية ؟

وهل تخفي سحنتُها معالم حزن بالغ كالذي يجتاحها، وتجيب صفية في لهجة من تتجلَّد في تكلف لا يخفى على مثل عائشة.

- هذا الشيء كثير علي يا اختي... كثير فوق الحد...

إنها عاجزة عن أن توفق بين مسؤوليتها لتأمين عيش ثلاثة أفراد، في وقت يجب أن تظل فيه عيناً ساهرة على طفل طائش وفتاة رعناء، وإذا كان ثَمَّ من يتأثر لمثل هذه المواقف فهي عائشة التي سارعت تتطوع بتغيير برنامج يومها كله، لفائدة صاحبتها، فيما يتعلق برعاية الطفل على الأقل :

- من اليوم عوّلي علي...

والتفتت عائشة إلى الزاوية متوعدة الطفل المنطوي على رأسه في نظرة استرحام واعتراف بالجرم وقالت له مهددة :

- من الغد أنا لك... ما عندي عليك جرية ولا شغل... من الجامع لعندي ومن عندي للجامع، بالليل وبالنهار...

ولم يكن لأي طفل في الحي كله أن يرتعب من وعيد أمه عائشة، وهو يعرف من ضميرها أكثر مما تعرف هي نفسها... وقد قضى الطفل لديها أماسي وليالي لم تكن إلا فيض حنان، وتلذذاً بأحلى المأكول. ووفتْ عائشة بما وعدت، وكان يكفي أن تخصص حصة من يومها منتصف النهار، تعود فيها إلى مسكنها عندما يغادر الأطفال المسيد. ثم تغادره حوالي العصر بعد عودتهم إليه.

- يكثر خيرك ياأختي، يا أمي عيشة.

لكن لهجة الشكر والامتنان الصادرة عن صفية لم تمْحُ آثار الحزن المتبقية على وجهها. وهل يخفى ذلك على مثل عائشة.

- باقي عندك شيء ؟ قولي.

ـ قلت لك عوّلي علي من الغد... الطفل هنيتك منه.

وبدت صفية في موقفها المعتاد على طاولة الشغل، مهارة يديها الآن تمكنها من الإنجاز السريع، فيما عيناها تتجولان فيما حولها، دون أي ارتباك، وهذا امتياز لا يقدره حق قدره إلا المبتدئون. في البدء تجد أن يديك لا تطاوعانك في غفلة عن رقابة عينيك. فأنت تمسك الشيء بكيانك كله، وعليك انتظار خبرة طويلة حتى تصل إلى هذا المستوى، الذي تكاد تستقل فيه حواسك وأطرافك بعضها عن بعض... وتعلمتْ صفية أن تتحدَّثَ وهي منهمكة في الشغل، ولعلَّها نسيتْ بزرة القرنفل المعقودة في طرف ما من ثوبها، بعد أن تشبَّعت نفسها بروائح السمك ولزوجة بقاياه، ولم يعُدْ يثير ذلك فيها غثياناً ولا دواراً... وفي تتبّعها لما يجري حولها، كانت عيناها تلحظ أحياناً حركات عابثة من بعض الرجال لنساء أو فتيات... فتعتريها شبه لذة يتغلب عليها التخوف والخجل... ولا تدري لماذا وجدت عينيها تتابعان حركات ابنتها خدوج. كانت البنت إذ ذاك تقوم بإفراغ أحد صناديق الفضلات، عندما اشتبكتْ مع أحدهم في حديث هادىء. كان أحدهم هذا يحمل مكنسة، ولعل الداعي إلى الحديث أن الفتاة لم تفرغ الصندوق بالعناية اللازمة، مما جعل بعض محتواه ينتثر على الأرض، وعليها أن تلتقطه ولأحدهم هذا أن يثور ويغضب على الفتاة وينهرها لأنها متهاونة أولا، ولأن تهاونها هذا يضاعف مهمته ثانياً... كل هذه اقتراحات جالت بخاطر صفية وهي تتابع الموقف من مكانها. ولعل يديها لأول مرة منذ مدة توقفتا عن مهارتهما فلم تشتغلا في غيبة عن رقابة العينين... ولم يبد على أحدهم هذا، غضب أو انتهار للفتاة، كما قدرتْ صفية، بل استمر الحديث بينهما مسترسلا، والطفلة تحرك رجليها كأنها تتلوى، وهو يبتسم، وصفية تتحرك على مبعدة من الموقف دون أن تعرف محتوى الحديث، ويده تمتد لتجني من خد الفتاة قرصة بالسبابة والإبهام، فتدور الفتاة على نفسها، وتنصرف بالصندوق الفارغ دون غضب أو ثورة. أما هو، فينحني على ما تناثر من فضلات على الأرض يكنسه بهدوء، كل شيء هادئ إلا أعماق صفية بنت سويعد، ولعلها لم تر المشهد وحدها، فهذه فاطنة جارتها ومعلمتها القديمة تهمس في أذنها :

- ردي بالك للبنت !

منذ متى وكيف وأين... والبنت ترضَى بمثل هذه المداعبات ؟ وكيف غفلتْ أمها عن ذلك ؟ وارتجف كيانها كله لخواطر سوداء تتابعت في مخيلتها. ولم تردّ بشيء على تنبيه جارتها.

- قولي. باقي عندك شيء مصدعك ؟

وردت صفية على سؤال عائشة العرجاء باقتضاب :

- البنت حتى هي، فضيحتي معها فضيحة !

وأدركتْ عائشة معالم عُمق المأساة التي تتخبّط فيها صفية، ولم يكن من السهل عليها في هذه الحال أن تجد مخرجاً ؛ لكن، مَنْ غيرُها يجد حلا للمشاكل ؟ وفكرتْ عائشة ملياً قبل أن تجيب :

- البنت ؟ حتى هي خليها لي نعلمها الصنعة.

ونظرتْ صفية إلى جارتها غير متبينة قصدَها، فلم تزد عائشة على أن أكدت :

- الصنعة أحسن لها... خليني نعلمها الخياطة.

وعجزتْ بنت سويعد عن أن تجد كلمات تعبر بها عن امتنانها وشكرها لملاك الرحمة : عائشة التي ستكون مضطرة إلى تغيير آخر أعمق في برنامج يومها. عليها أن تحرك من جديد آلة الخياطة الصدئة في مسكنها، وأن تعمل على أن تجمع ما يمكن جمعه من خرق أو أثواب من الجارات أو من تجار السوق تخيط منها ما يلبس ويباع، وتقتصر في جولتها المعتادة على فترات غير منتظمة.

وتعلّق عائشة على شكر صفية لها :

- ياأختي أنا ما عندي ولد ولا بنت، وكل ما عملته في سبيل الله.

وسُري عن صفية بهذا الحل، وغابتْ عن وجهها آثار الحزن والحيرة، بما جعلها تنهر ابنها المتكور في الركن، وتبعثه لشراء نعناع تصنع به شاياً لجارتها المحسنة.

6

كان الولد يلعب لعباً مهذباً في صحن المسكن مثيراً في نفس والدته الرضى والطمأنينة منذ عادت من المعمل نهار اليوم، فوجدته هادئاً مستكيناً في مسكن عائشة، حيث كانت أخته خدوج تعالج قميصاً بآلة خياطة أمها ومعلمتها عائشة المتغيبة في إحدى جولات يومها. وسُرّتْ بنت سويعد بما رأت. وتساءلت : لم لا يكون الولد هادئاً دائماً ولم لا تكون البنت باستمرار على مثل هذه الجدية ؟ وأحستْ بأنها تخففت من كثير مما أزعجها من شقاوة الولد منذ شهور... كان هادئاً جداً في لعبه، بل لم يكن يلعب وإنما كان يتظاهر بِذلك، بيْد أنه كان يبدو متلذذاً متنعماً بهدوئه. وخُيل إليها أنه يسحب من جيبه شيئاً يرميه في فمه. حركة هادئة، لكنه التفت حوله كالمختلس لتلتقي عيناه بعيني أمه. نظرتُه توحي بالإجرام أو التخوف والاختلاس تلتقي بنظرتها البريئة المستطلعة لتبعث فيها شعوراً بعدم الارتياح. وفي حركة صبيانية كأنه يريد أن يمحو بها فعلته أو ما يخيل إليه أنه فعلة، ينزع بيسراه من فمه ما وضعته يمناه، ولا يرميه وإنما يعود ليدسه في جيبه، وعيناه لا تفارقان عيني أمه. اتجهت نحوه مستطلعة فقام مذعوراً متهيئاً للفرار :

- تعال.

صدر أمرها ناهراً متسائلا ونظرتها إليه ثاقبة كأنها تعزم النفاذ إلى أحشائه. لم يتحرك ولكنه كان دائماً متهيئاً للفرار.

- تعال.

وارتمت عليه عندما تقلصت المسافة بينهما دون أن يستطيع حراكاً. واضطرب كعصفور ويدها تخرج من جيبه ما كان قد انتزع من فمه. قطعة حلوى ماتزال مبتلة بريقه... وكان من الممكن أن يكون الحادث عابراً، حتى مع اضطرابه وسلوكه المحيِّر، لو أنه ادعى، أن (أمه عائشة)

منحتْه حبة الحلوى تلك، ولكنه ازداد اضطراباً ولم يُبن، وهي تصر على أن تفهم...

ـ قل. سرقتها ؟

ـ لا. والله العظيم.

لكن ذعره الشديد ويده الضاغطة على جيبه الآخر، دعتها إلى تحسس جيوبه فإذا حفنة من حبات الحلوى، يتعذر الحصول عليها بسهولة، فزادت من تضييقها عليه ليتوسل إليها بقول الحق :

ـ اعطاها لي... بابا علي الخضار.

ولم يكن باباه علي... ليسترعي انتباه صفية، أو تتذكره بسهولة، فعلاقتها بسكان الحي ضعيفة، لانهماكها في أمور حياتها، ولكن المحير هو سبب هذا الكرم... وأضاف الطفل مرتبكاً وفي غير ربط :

ـ .. خفت منك...

ونهرتْه فأطلق جماع ما عنده... في جملة واحدة :

ـ خدوج رسلتني عنده، وهو أعطاني هذا الشيء. .

ولبثتْ برهة تتبع أبعاد ما تسمع، ثم امتلكتْ أنفاسها أخيراً، وحاولت أن تبتسم لتشجعه على مزيد من المعلومات، لكن الطفل فيما يبدو، استمر في الإخبار رهبة لا إغراء.

ـ قل ياوليدي... خدوج أختك عمرها مشت عند باباك علي ؟

ورد بسرعة :

ـ لا، جاء هو عندنا في براكة أمي عائشة.

واستمرت في تظاهرها بالهدوء :

ـ وأمك عائشة كانت حاضرة معكم ؟

ـ كانت... وخرجت.

ـ وانت بقيت مع أختك وباباك علي ؟

ـ اعطوني الحلوى... وخرجت حتى أنا !

لتحلّ اللعنة على هذا الكون. لِتنقلبْ أرضُه والسماء. ليعمَّه الطوفان أو أي شيء يذهب به مرةً واحدة أخضر ويابساً. العرجاء الفاسقة الداعرة... وخرجت صفية بنت سويعد لا تلوي على شيء، على نحو فاجأ الطفل الذي لم يكن ينتظر أن يطلق سراحه بهذه السهولة.

ودفعت باب العرجاء. لم يكن هناك غير خدوج أمام آلة الخياطة، ودون كلمة وضعت صفية يديها على رأس ابنتها، وجرَّتْها وراءها جراً عنيفاً من ضفيرتها إلى مسكنها، حيث أغلقتْ دونهما الباب.

* * *

7

خبطت من جديد منحدرة في طريقها المعهود صوب البحر لكن وجهتها لم تكن معامل السردين بل صوبَ قرية السكر عند كبور. ولم تنتبهْ إلى أنها كانت الوحيدة المنحدرة في اتجاه مخالف لحركة العمال والعاملات... الحق أنها لم تنتبه لشيء عدا أمواج خواطرها الثائرة المتضاربة. وهي ليستْ متأكدة من أنها تركت ابنتها خدوج على قيد الحياة، بعدما صبّتْ عليها من جام الغيظ والغضب. ولم تكن مرتاحة إلى أن ذلك كان خير علاج يمكن أن يمنع حوادث مماثلة في المستقبل. كل ما حدث منها كان رد فعل مؤقتاً ومعقولا أو غير معقول. ولكن كيف تواجه إنذارات المستقبل ؟ وبدا أنها كانت مُحقة كل الحق في شكواها ذات يوم لجارتها على طاولة الشغل :

- كثير علي ياأختي. كثير...

العرجاء الفاسقة الداعرة.. كيف أوْلتْها ثقتها ؟ كيف كانت مغفلةً إلى هذا الحد فسلمتْها ابنتها اللعينةَ ؟ وكيف نسيتْ أن العرجاء حاولت معها هي أيضا شيئاً أو لمحتْ إليه، فلما لم تجد تشجيعاً على مسعاها ارتدت عنه ؟ وبدتْ لها العرجاء في رؤية غامضة، وقد أقبلتْ نحوها تنِط متسائلة عن سبب ثورة صفية التي تكتفي بالصمت، الصمت المنذر المحمَّل بعناصر زوبعة يجب أن تنفجر، ولكن العليمة بأسرار النفوس، لا تتأثر لذلك، بل تبتسم ابتسامتها تلك لتقول :

- وبابا علي ما له ؟ غريب أو... عيب ؟ رجل بصحته وقدره وقامته...

الداعرة الفاجرة. وهل ثَمَّ عيب أكثر مما وقع ؟ وهل تجد العرجاء حداً تقف عنده لتسميه عيباً ؟ لو انتظرت صفية حتى تجد يوماً ما بطن ابنتها منتفخاً موسوماً بجريمة لاشك فيها ولا مراء ؛ لما رأت العرجاء في ذلك منتهى العيب، بل لوجدتْ منافذ أخرى، تواجه منها انتحاب صفية قائلة :

ـ المكتوب يا أختي يا صفية، ما منه هروب.

الفاسقة... ولقامت تبحث عن طريقة تدبِّر بها الأمر لتزَوِّج البنت بأول سقاء أو متسول يظهر في الزقاق... أو لعملت على إفساد الحمل المتضخم !

كانت صفية تهذي في خواطرها دون شك، سائرة في عالم لم تعد تشعر به. وكل صورة من واقع أو خيال تمر في ذهنها تزيدها تشاؤماً وارتباكاً... وها هي ذي العرجاء تهدئ من روعها، مرة أخرى :

ـ الله يهديك على نفسك... قتلت البنت بلا فائدة...

ويرد لسان حال صفية ؛ إنها لو وجدت القدرة لقتلت ابنتها فعلا، إذ بأية نظرة يمكن أن تواجه قريبها كبور أو أخاها سعيد وسائر الأهل، عندما يتسامعون بالنبإ ؟ كيف يمكنها أن تفسر رفضها لعرض تقدم به البعض إليها عقب وفاة زوجها ؟ لاشك أنها في نظرهم ستكون قد فضلتْ أن تبقى حرة تمارس الفسق والفجور، وتنشيء ابنتها عليه. وتبدو لها عائشة تعلّق على ذلك :

ـ كبّرت الحزمة يا أختي وزدتِ فيها. حتى شيء ما وقع دابا. بنتك هاهي عندك... والرجل راح في حاله.

ويثير صفية هذا الربط بين ابنتها والرجل، في عبارة صاحبتها كأنه أمر عابر وعادي. على أن ما أهم صفية هو خوفها على ابنتها، أما الجانب الآخر، الرجل، فلم تفكر به لحظة في خضم الحادث.

وتضيف عائشة كمن خاب أمله :

ـ بابا علي، عاقل ونيته صالحة... وكل امرأة سهمها رجل.

هكذا تزين الفاجرة كل شيء، وتجد لكل سقطة لفظة وتبريراً.

وما من حق الرجل أن يدخل من غير الباب الطبيعي ! وما من حق الرجل الصالح للفتاة غير أحد أهلها ! وهل من زواج مشروع يتم بلقاء بين

رجل وفتاة في خلوة مرة أو مرات ؟ ولا يُعلن صمتُ بنت سويعد لصاحبتها أي تساهل أو تفهم، فتتبدل لهجة العرجاء، لتكتسي لا مبالاة ظاهرة :

- وحتى أنت برأسك، فكري في نفسك... الزواج ما فيه عيب.

ها. كيف خفي عليها مرمى العرجاء منذ أول اليوم لولا أنها لم تجد منها حسن قبول ؟!

الحق أن صفية كانت كفيلة في ثورتها هذه، بأن ترى كل شيء في الناس والأشياء بمنظار السوء. ولعل رؤيتها، وهي تنحدر نحو قرية السكر تشكو حالها، كانت علي كثير من الاختلاط. ولعلها لَوْ تفحصتْ خواطرها بدقة لما انتهت إلى التأكد، كل التأكد من أن جارتها عائشة، قد حاولتْ معها فعلا مثل ما تتوهم، أو خططتْ عن قصد، لكل ما ترميها به.

* * *

18

هدرت الأفران كعادتها في معمل السكر، وانعكست ألسنة اللهيب من جوفها على الأجساد العارية الندية لأشباح متشابهة تضطرب أمامها، وكان كبور في أقصى الطرف من آخر مرحلة تمر بها قوالب السكر بعد الأفران، قبل أن تلف في الورق وتحزمها خيوط القنب، لترتب في التبن والأكياس. كان كبور يشرف في ورشته هذه، على فريق من العمال يُعتبر وجودهم فيها امتيازاً لم يحصلوا عليه إلا بعد سنوات طوال أمام الأفران، وتحت وطأة كل ما هو ثقيل شاق، ذلك أن العُرف جار لا يتبدل، في أن كل مبتدئ يجب أن يمارس أقسى ما يوجد من عمل في سنواته الأولى، كأنما يختبر بذلك صبره واحتماله، أو تستنفذ طاقته الخام أوّلا... ولم يكن من العجب على من قُدر له أن يتبع كبور أثناء تنقله بين العمال، أن يلاحظ أن هذا التنقل لم يكن مراقبة صرفة، عادية بقدر ما كانت أحاديث متنوعة، يبدو أنها تكون أحياناً بالغة الأهمية، كما تشير إلى ذلك ملامح المحدّث والمتحدَّث إليه معاً. كانت يد كبور أمام القوالب التي تمر مصطفة على الحزام المتحرك، تلمس الواحد بعد الآخر، دون أن ترفعه أو تضعه بينما هو مستغرق مع زميل له في الحديث من ذلك النوع الهامّ... وفي الحين سمع صوتاً يرطن باسمه يتلوه صفير :

- كابوغ (كبور).

والتفت كبور نحو الصوت، ليتبينَ رئيس الورشة المسيو ساميد يشير إليه من بعيد بما يدل على أنهم يطلبونه. وعمَّتْ كبور رعدة لهذه الإشارة بالسّبابة المعقوفة. فهكذا وقع لغيره منذ قريب... نفس الإشارة... ثم لم يعودوا بعدها ! ورنا إلى زميله أحمد المزابي على نحو له معنى، فبدا أنه يعاني من نفس الخواطر، أهي ساعة كبور دقّتْ ؟ وربَت على كتف صاحبه وانصرف صوب مصدر الإشارة، دون كلمة ولا التفاتة. وكان واثقاً من أن عيوناً كثيرة تتابعه خِفية، وأعناقاً تتطلّع من بعيد، حتى إذا اختفى

عن العمال وتجاوز الأوراش، تخيَّلَ تلك الأنظار المتطلعة قد عادت إلى نفوسها، والتقى بعضها ببعض في تساؤل مكتوم.

أصبح كبور في الساحة العارية الكبرى، التي تفصل أوراش المعمل عن بناية الإدارة ومرافقها، فاتجه صوب البناية محاولا ما أمكن أن يضبط أعصابه، وأن يكون هادئاً، لكن الحارس، حارس الباب الخارجي للمعمل أشار إليه، فاتجه نحوه، ليجد أمام المعمل، امرأة تنتظره : زوجة المرحوم ابن عمه، صفية بنت سويعد... لم تتمالك نفسها، فأجهشتْ بالبكاء بمجرد رؤيته، كأنما انقضتْ في نفسها فترة الانضباط والتأثر الجاف وجاء دور الغيث... وربت على كتفها، يحاول ما أمكنه أن يضبط أعصابه التي كانت مهيَّأة لغير هذا الموقف، وأن يستطلع الخبرَ من خلال إجهاشها.

- مالك ؟... خير إن شاء الله... قولي.

ولم تُبن إلا بعد لأي، ولم يفهم إلا إجمالا أنها في محنة تحتاج إلى العون، ودفع طاقيته إلى الوراء، ليمسح جبينه بطرف كمّ قميصه الأزرق، وهو يجلس على صخرة ناتئة قرب حائط المعمل، ويدعوها إلى الجلوس بجانبه. وحين أمكنها أن تروي له ببعض التفصيل مصدر شكواها شجّعها مطمئناً :

- عملت الخير بالمجيء... غادي نشوف.

ووعدها بأن يزورها منذ الغد لإيجاد خطة، وطلب منها أن تعود إليه مؤمّلا أن تهدئ زوجته الغالية من روعها باستقبالها وضيافتها. أما هي فلم تجب. وإن عمّها بعض ارتياح لمجرد أنها أفرغَتْ بعض ما يثقلها على كاهل شريك لها في أعبائها... وعندما أشعل كبور سيجارة وهو يعود صوب المعمل، كانت قد أخذت طريقها، لا صوب مسكن كبور في قرية السكر، ولا صوب مسكنها في الكريان سنطرال، بل صوب المدينة، إذ ثمَّ أيضاً من يجب أن يتحمل معها جانباً من مسؤولية، تود لو تحمَّلها معها العالم أجمع.

وطافت بها أمواج الخواطر في طريقها نحو مسكن أخيها سعيد، خواطر

أقل عنفاً، تخيلتْ فيها لقاءها الوشيك بزوجته كلثوم، ومن ثم عادتْ بها الخواطر إلى بيت الغالية زوجة كبور، كأنما من مهمَّتها أن تقارن بين حال المرأتين. توقفتْ عندما سمعتْه من الغالية منذ ساعة عندما زارتها قبل أن تتوجه إلي كبور في المعمل، حديثاً لا يخلو من غرابة، كانت مُعوِّلة على أن ترى أثره في سحنة كبور وسلوكه، ولكن انفعالها عند رؤية الرجل واضطرابها طيلة لقائه، لم يُتح لها فرصة ملاحظة شيء ؛ ولعلّها لم ترفعْ بصرها إلى وجه الرجل مطلقاً.

رحَّبتْ بها الغالية في حرارة أذكاها طول العهد، إذ لم تلتقيا منذ مدة طويلة، ولأول مرة أحستْ صفية بأن هذه المرأة يمكن أن تحبها. ولم تُلح الغالية في الاستفسار عن حال صاحبتها، وإنما اكتفتْ باستنتاج ما هي عليه، وهي ترى عينيها الزائغتين كغمامة تُنذر بالمطر، فتخيلتها على وشك أن تجهش بالبكاء، فقامت تعد لها قهوة...

ورثَتْ بنت سويعد إلى مظهر الحياة المنتظمة على بيت صاحبتها فأحستْ كأنها المظلومة الوحيدة في هذا الكون، بينما أمور سائر الخلق تسير في طريق ميسور. ولو لم تقدِّر زوجة كبور شعور زائرتها، وهي تستمع إلي ما تقص عليها لدافعتْ بعض الشيء عن سلوك عائشة العرجاء أو على الأقل، لشكَّكتْ صاحبتها فيما تصدر من أحكام، ولطيبتْ خاطر المرأة عن ابنتها. لكن لهفة صفية على لقاء كبور بالذات، جعلتْها تساير وتجيبها مباشرة بأنه في المعمل، ولن يغادره قبل السادة مساء. وبدت الساعات الفاصلة بين المساء طويلة لا يتسع لها انتظار صفية، وكأنها تنتظر من الرجل حلا سحرياً لمشاكلها يتم لحظة لقائه ! وتعلن زوجة كبور أنه لن يرجع إلى البيت مباشرة بعد خروجه من المعمل. ومتى يرجع ؟

- بعض المرات ما يرجع حتى لآخر الليل... مشغول !

وتبدو علامات الحيرة على صفية... لو أن الغالية ذكرت ذلك في لهجة تشكّي من زوجها أو ارتياب فيه لفهمتْ عنها ؛ أما أن تذكر ذلك بعبارة عادية باردة فشيء لا يفهم. وبدا أن الغالية تقدر حيرة زائرتها، إلا أنها

كالمترددة في أن تخبرها بحقيقة الأمر، أو هي تبحث عن كلمات مناسبة. وأخيراً قالت كأنها تمهد لما تريد أن تقول :

ـ صفية سمعيني وخلي كلامنا بيني وبينك...

إذن ستفضي لها بِسر : سر النساء أم سر الرجال ؟

واستأنفت الغالية باقتضاب :

ـ الليلة عندهم اجتماع.

وطنت كلمة اجتماع غريبة في سمع صفية، يتضافر معها في الغرابة والغموض ضمير «هم»، ولم تستطع صفية أن تصوغ سؤالا جديداً يعتمل في داخلها، كأنها بذلك تبالغ في كتمان السر الذي لم ينْجل لها بعْدُ. وتابعتْ الغالية تشرح لها في شبه همس :

ـ اجتماعات الوطنيين وأصحاب السانتيكا[1]. ولئن لم تفهمْ صفية كل شيء، فإن لفظة «السانتيكا» لم تكن غريبة عليها كل الغرابة، وبدا لها كذكرى باهتة أنها ترددتْ في أذنها كثيراً في المعمل، وأنها ربما رددتها على لسانها مراراً بينها وبين نفسها، ثم نسيتها. تذكر أن حديثاً تردد في المعمل يروي أن أصحاب السانتيكا يطلبون أشياء كثيرة بدتْ لها غامضة، ولكنها تذكر ما قيل من أنهم يطلبون فيما يطلبون رفع أجور العمال والعاملات. ولعلّها تذكر أنها إذذاك أعْجبت بالفكرة، وإنْ استبعدتْ تحقيقها، أو أنها لم تكن تشعر بضرورة رفع الأجور تخوفاً من شيء ما... المهم أنها كانت إذذاك تشتغل وابنتها... وكل ما تذكر من أثر لتلك الأحداث في نفسها، أنها شعرت بمذاق ممتع لمقاطع كلمة سانتيكا، فظلتْ تتلمظ بها مراراً. ولكن الكلمة اختفتْ بعد فترة قصيرة من ذلك، أو أصبحت عملة نادرة. وسمعت من يقول :

ـ فسدوها علينا أصحاب السانتيكا.

سمعتْ أيضاً :

---

(1) السانديكا، النقابة.

- الله يخزيها، ويخزي مواليها سانتيكا.

وتابعتْ بعض ما رافق ذلكِ من حركات حول عاملين اثنين أحدهما كان كهربائيا، والثاني من فريق الصندوق، كانا فيما يبدو قطب الأحداث. وسمعتْ بعدَ ذلك من يقول :

- صافي... أصحاب السانتيكا خرّجوهم.

وقع ذلك في عهدها الأول بالشغل، وفي بدء اكتسابها لمهارة العمل عندما أصبح بإمكانها أن تتجول بعينها دون أن تتوقف يداها عن العمل، ثم لم تعد تسمع شيئاً بعد ذلك عن هذه اللفظة الغريبة. وتساءلتْ صفية : أينتظر كبور أن يطردوه أيضاً ؟ وإذ لم تجد جواباً في ذلك فإنها عادت لأمرها، وطفقتْ تهيء نفسها للقاء أخيها.

لئن غلَب على مشاعرها طابع الهدوء والاستكانة، هذا المساء فإن غيمة حُزن ظلَّت تراودها بين الحين والآخر ؛ أو أنها ظلت بساطاً أصيلا يمتد تحت الخواطر والأفكار الهنيئة هذا المساء، تطفو عليه حيناً ويطفو عليها أحياناً. كل شيء يبعث على ذكرى أليمة عميقة، ويبعث من أعماق الصدر تنهداتِها حارةً مكتومة ؛ وكل شيء أيضاً يدعو إلى أمل وعزاء وإلى تفتح النفس إن لم يكن على حب الحياة، فعلى تقبُّلها.

* * *

يمتزج كالعادة في الحي خليط الروائح المتصاعدة من كل كوخ، من نشق أبخرة رخيصة في فترة ما بين المغرب والعشاء، بريح سفافيد جد دسمة يسيل شحمها على جمرات فحم ملتهب ؛ ونتن مألوف لا ينقطع من جدول المياه الآسنة والغسالة، وما يجد كل لحظة من سائل الفضلات... خليط كون منسجم في تنافره، متنافر في انسجامه، يعلن استمرار الحياة، متحدياً دولة الأوبئة والجراثيم. ويرتفع من مسكن صفية بخار قِدْر أسود يغلي جوفه ويضطرب. بينما ترتفع على هامته هالة بيضاء من الكسكسو الناصع، كل شيء كالمعهود، كذكرى ليلة ما، من العمر الطويل القصير. وتكاد تنبعث من أحد كوخي صفية دندنات عود مرح حزين، يوقّع لحن البلد والغربة لولا أنها ليلة ينقصها الكثير : العود نفسه وعباس والجليد و...

العربي المرحوم... فلا تنبعث إذن إلا ذكرى مرة أليمة... ومع ذلك فما قدوم كبور وزوجته وسعيد وزوجته، إلا لأنها طلبتهم، وإلا لأنهم منها، وإلا لأنها ليست وحيدة معزولة في هذا العالم. أربعة قلوب تنبض لها، جاءتْ لتشاركها همَّها، أفلا تخامرها درجة من شعور بتقبل الحياة ؟ ولعلها ضحكتْ هذا المساء مجاراة وتصنعاً لبعض ما تحكي المرأتان : الغالية وكلثوم، ولما تحكي هي أيضاً. وتحركتْ صفية بمرح زائد تلبية لطلب أختها أو ابن عم زوجها. ولعلها كستْ صوتَها حناناً بالغاً وهي توجّه ابنتها أو ابنها لفعل هذا وذاك... لئن فعلتْ ذلك كلّه بغير صدق أصيل، فإن في أعماقها رغبة الانعتاق من أسر كآبتها. ومهما تكن جراحها الدفينة فثمّ ارتياح يسري في كيانها أو يجب أن يسري. كانت صفية قد افترشت حصيراً في صحن الكوخين مع ضيفتيها كلثوم والغالية، على مقربة من القِدر تسهر على ناره خدوج. وفي الداخل كان سعيد وكبور يصنعان الشاي، وإلى جانبها الولد يمدهما بين الحين والحين بما يلزم لذلك... كان جمْعاً لم تشهده الأسرة منذ سنوات، منذ وفاة العربي الحمدوني.

وتساءل سعيد :

- والحالة عندكم، كيف هي ؟

كان يبدو عليه تطلع غريب لمعرفة ما تجري عليه الأمور داخل المعمل، وقد استراح في جلسته واضعاً عمامته إلى جانبه، فظهرتْ رأسه الضخمة اللامعة، وبنيته القوية غارقة في أناقة الجلباب البني، تبدو تحته معالم صدرية موشاة بتعاريج برشمانية وطوق قميص أبيض نظيف. سرتْ في الجو حول الجمع بعض حرارة وكبور ببذلة العمل، نفس القميص الأزرق الذي كان يرتديه عندما زارته صفية منذ يومين، وكان الطفل بالقرب منهما في قعوة كلب شديد الحساسية.

ورد كبور على تساؤل سعيد :

- كل شيء ماشي... الخدمة هي هي..

جواب بخيل بما عنده أو محتاط في حركات هادئة متأنية ؛ وبرصانة لا تكسبها الصدفة لدرجة ربما أدهشت صاحبه.

- يعني ؟

- يعني يعني.. !

وسد كبور بذلك باب حديث لم يكن طبيعياً بينهما منذ الجولة الأولى. وساد بعض الصمت، قطعته قهقهة خفيفة لسعيد بدون مبرر، إلا أن يكون قصده فتح باب الحديث من جديد موضحاً بالتفصيل نقط استفساره : كيف مرَّتْ الأحداث في المعمل بعد أن نقص إنتاج السكر وعلى الأصح بعد أن عمد العمال إلى جعله ينقص ؟ وما حكاية المطرودين من (أصحاب الوطنية) ؟ وهل يمارس النقابيون نشاطاً في المعمل ؟ وجرائد أو منشورات يقال إن بعض العمال يقرؤونها على بعض خفية في فترات ما قبل الدخول أو بعده، وفي تجمعات سرية، وأشياء كثيرة مختلفة متداخلة في ذهن سعيد، أو هكذا يظهر، وبوده أن يعرف عنها وجه الحقيقة، وأن يفهم منها ما خفى عليه... ولكن كيف يصوغ سعيد سؤاله المحدَّد المطلوب المؤدي إلى هذا الغرض لرجل يتعمد صمتاً مقصوداً، لأنه يتهم أكثر مما ينبغي، أو لأنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق.

وردَّ كبور على نفس الوتيرة :

- هذا الشيء، حتى أنا سمعت به. كأنما شجع الجواب صاحبه ليسأل :

- والحقيقة ؟

- قلت لك سمعت !

قالها كبور في لهجة تنصُّل كامل، وبدا على سعيد بعض استنكار !

- غريب هذا الشيء. أنت وسط الناس في الخدمة، وتقول لي سمعت !

وبلا مبالاة، عاد كبور يقفل باب الحديث من جديد :

- إييه، هذا ما كان ياأخي.

وحينئذ كان لابد لسعيد أن يدخل الموضوع مباشرة. إنه لا يعرف بالضبط ما يجري، أو هو قد سمع من بعيد أو قريب ؛ لكن قربه ليس كقرب كبور. كبور «وسط الناس في الخدمة» في قلب المعركة التي تدور به أو تدور حوله، وإذا كان كبور لا يتبين أبعادها، فَدَوْرُ سعيد أن يُبين له

ذلك حسب فهمه ومعرفته للأشياء والناس. ثمَّ حركة صبيانية هو جاء نتائجها الأولى أن يفقد بعض الناس أعمالهم ومراكزهم، أما نتائجها البعيدة، فأن يعيش أبناؤهم يتامى ونساؤهم أرامل. ولئن كان بعض الناس، وربما ما يزالون ـ كما يقدر سعيد ويذكر ـ قد كذبوا على أنفسهم فترة طويلة، حتى صدقوا الآمال الواهمة بأن أراضيهم ستعود إليهم في يوم من الأيام، فأضاعوا أموالهم ووجودهم كله، فكذلك يكذب البعض اليوم على أنفسهم وعلى الناس، على مدى أوسع، ليخسروا كل شيء، وليجرف تيار الخسارة غيرهم كما جرفهم...

وخفض سعيد صوته، وهو يلكز كبور بمرفقة كأنه يهمس له :

ـ شف وخمم : صاحبنا المرحوم ضيّع فلوسه بقلة عقله، ومات. وها امرأته وأولاده في حالة... كل شيء ضاع بلا فائدة : البلد والفلوس.. وغيره كثار.. وصاحبه المذكوري ها هو في الزناقي لا مال، لا أولاد، لا عقل لا بلاد، الناس مجمعة عليه وهو ـ الله يستر ـ هذي بلادي ... هذه داري هذه امراتي... السماء لي... البحر لي...

انتهى صوته الهامس إلى أن يرتفع، وتحمَّس في لهجة ناصحة غاضبة :

ـ اسمعني آكبور : الواحد يكون عاقل.

كان كبور يتابعه، كأنه لم يكن ينتظر منه أن يتوقف عند هذا الحد وتساءل :

ـ يعني ؟

ورد سعيد على الفور :

ـ المسألة ظاهرة : تكذب على نفسك اليوم، وعلى الناس غدا ؛ تلعب وفي الأخير تخرج من الخدمة، يطردوك وتمشي للحبس، تحمق وتموت وتبقى لا دنيا لا دين.

بدت على ثغر كبور ابتسامة خفيفة كأنه يؤكد بها هدوءه أمام منطق صاحبه، وتساءل ؟

ـ ولكن هذا الشيء وقع للفرنسيين. الألمان شدوهم في الحبس وقتلوا منهم وطردوهم من الخدمة وفي الأخير...

وقاطعه سعيد :

ـ آه. فرنسا شيء آخر !

واستأنف كبور بنفس الهدوء :

ـ كلنا أولاد تسع شهور، كلنا بنو آدم يا أخي...

وبدا كبور متشبثاً بالمقارنة، ومعلوماته مرتبة في الموضوع. كان يتساءل ويجيب : من الذي طرد الألمان من فرنسا ؟ أهي فرنسا فعلتْ ذلك بقدرتها الذاتية وحدها ؟... والمغاربة بالخصوص ماذا كان دورهم ؟ وخيرات بلادهم أين ذهبت ؟ لقد ماتوا في ساحة الحرب جنوداً، وفي ساحات الجوع والمرض وما زالوا يعانون من ذلك إلى الآن، كل ذلك لماذا وفي سبيل من ؟ في سبيل أن يغدوا أحراراً عقب الحرب، ويتمتعوا بخيرات بلادهم، لا أن يعدهم الاستعمار بذلك عندما يكون في حاجة إليهم ثم يتنكر لهم بعد ذلك ؛ أم كانِ المغاربة إبان الحرب خلقاً وهم بعدها خلق آخر ؟...

ـ هذي هي الحقيقة بلا زواق بلا نفاق... والآن فكر مع راسك وتخير..

كان سعيد بالفعل يفكر فيما يسمع، لكن في اتجاه آخر. من الواضح أنه لم يقتنع، وإذا كان لم يربط في ذهنه بين ما يقدمه كبور من معطيات وقضايا فلأنه لم يرد ذلك، ولم يهتم به ؛ ولكنه قد سمع مثله متفرقاً غير منتظم ؛ وانتظامه في ذهن كبور على هذا النحو لا يُعزى للصدفة.

وبدا للرجلين أن باب الحديث قد انفتح أمامهما على مصراعيه خارجاً عن محاولاتهما الأولى لاقتحامه أو إغلاقه عنوة، ومن ثم، لم يبق بعْدُ مجال لقطع الحديث قبل أن يصل نهايته إن كان له منتهى.

كان الطفل أمامهما يتثاءب حيناً بعد حين، فيما بين اليقظة والنوم، وقد صمت في الصحن صوتِ النسوة، يتابعن حماسة الرجلين عن بعد وحياد... بيْد أن الحوار لم ينته بأحد الطرفين إلى إقناع خصمه، بقدر ما

أكد أنهما على تناقض، وكل متمسك بموقفه، في موضوع كان بالنسبة لهما موضوع الساعة. أو هذا ما بدا منهما وهما ينصرفان عن الموضوع بعد جولات متعددة، إلى ما جاءَا من أجله الليلة، لمساعدة صفية زوجة المرحوم والأمسية توشك أن تبلغ نهايتها.

كان سعيد معتزاً بأن يقدم لأخته مساعدة، ولكن شعوره بمسؤولية المرحوم في تفويت ماله وتضييعه وراء الأوهام، كانت تتغلب عليه حتى ليوشك أن يحمله مسؤولية موته أيضاً... وكانت المرأتان قد انضمتا إلى الرجلين منذ العشاء ومنذ تحول الحديث إلى وجهته الجديدة. وبدا أن سعيد قد رتب كل شيء لصالح أخته ملخصاً رأيه في أن يضم أسرتها إلى أسرته. وهناك لن تعدم عنده شيئاً. فحاله ميسور ـ ولا فخر ـ وربما أمكن لانضمام أسرة أخته لأسرته، أن يؤدي إليه خدمات ليس في غنى عنها، بالإضافة إلى إعفائها من تعب المعامل. هكذا برَّر عرضه، ورحَّبت زوجه كلثوم بالفكرة. وتعلقتْ أبصارُ الجمع بردِّ صفية. كانت خافضة بصرها أثناء ذلك ؛ وعندما فاجأها صمت القوم وانتظارهم لجوابها، رفعتْ رأسها لا تدري ما تقول ؛ ولكن عينيها بدتا مغرورقتين بما هو أبلغ من كل عبارة... ومسح سعيد وجهه ورأسه بيده، ليقول مخاطباً أخته :

ـ على كل حال الخيار لك.

وتدخل كبور بحل وسط :

ـ عندي فكرة أخرى، سعيد يأخذ البنت عنده، والولد يبقى مع أمه ويدخل المدرسة.

ورحبتْ صفية بالفكرة. وبدا الاقتراح مقبولا. إلا أنه لم يكن مفهوماً بما يحمله من عنصر جديد : المدرسة، وانفتح بذلك عالم لا تفهم فيه النسوة شيئاً، فقد بدا الرجلان متفقين على أن يغادر الطفل الكُتّاب، بعدما حصَّل من كتاب الله، ليدرس ما هو مفيد.

وقال سعيد :

ـ عندي واحد نصراني صاحبي... نأخذ منه ورقة يدخل بها الولد للسكويلة.

وأكدت كلثوم موقف زوجها :

ـ أولاد جيراننا كلهم تبارك الله في السكويلة.

ولكن فكرة كبور في الموضوع كانت مخالفة، لذلك علق موضحاً :

ـ مقصودي الولد يدخل مدرسة عربية، يتعلم لغة بلاده، والعلم...

ودخل سعيد وكبور في نقاش جديد لا يخلو من غرابة، ونقطة الخلاف فيه حول أهمية كل من المدرسة العربية أو الفرنسية (السكويلة)، ووجد الرجلان نفسيهما في مثل ما بدآ به أمسيتهما من حديث عن الوطن والاستعمار... ودون أن ينتهي سعيد إلى اقتناع بوجهة نظر كبور، ترك له الأمر ليدبره، مؤكداً على مبدإ الاتفاق بينهما، وهو أن يغادر الطفل الكتاب القرآني، وكان سعيد على وشك أن يعلن استعداده لدفع رسوم الدراسة، حين أنهى كبور الموضوع :

ـ هذي... مدرسة الحي... (أسسناها) كلنا وأنا متكلف بقضيتها.

وخالطتْ صوت كبور نغمة اعتزاز، وهو يؤكد على ضمير المتكلمين «نا»، ولئن لم يفهم الجمع معنى ذلك بالضبط، فإنهم اعتبروا الموضوع منتهياً، رغم أسئلة ظلتْ مكبوتة فيهم : كيف ؟ لماذا ؟ ومتى ؟

9

بدا سعيد مشغول الذهن في وقفته أمام دكان صديقه الجزار كان منذ فترة قريبة، قذ سلم لابنته (ابنة أخته) خدوج قفة الخضر واللحم، ومكث يحادث صاحبه الجزار وأمامه ربطة فجل صغير، يلتقط منها حبة بين الحين والحين. وأمام الدكان شخصان يلعبان الضاما، يشاركهما الجزار بتشجيعه أو ملاحظته من داخل الدكان، كما يفعل سعيد ذلك آونة بعد أخرى. أضيئت مصابيح الأزقة في هذه البقعة المبلطة من فسحة الجزارين، التي تتوسط المدينة الأهلية تطل عليها من كل جانب بنايات أهلية حديثة من طبقتين. وراقب سعيد ساعته كأنه يستعجل الزمان، ثم لاحت له خدوج راجعة صوبه فأخذ ربطة الفجل، واتجه نحوها دون أن يودع صاحبه. وسألها في استنكار خفيف :

- تأخرت ؟

وردت الفتاة :

- أمي كلثوم هي...

ودون أن يستمع لبقية كلامها، وضع يده على كتفها وسار بها إلى جنبه، مقتطفاً بين الحين والآخر حبة فجل يرميها في فمه. كانت الفتاة تنطق بأثر النعمة والنظافة. ترتدي تحتية وردية تزينها خطوط متوازنة متباعدة على طولها بلون أصفر باهت، وتنتعل شربيلا مطرزاً وعلى رأسها منديل أبيض، حتى قوامها ارتشق واستقام وبدت قامتها أطول مما كانت عليه.

تجاوزا منطقة الأضواء من المباني وبدآ يجوسان خلال أرض خالية حين توقف سعيد، وشد على كتف ابنته يكرر عليها تعليماته للمرة الأخيرة. ورغم الظلام كانت تتبين على بعد شبح الصخرة الناتئة التي وصفها لها، وردد عليها أخيراً :

- ياالله. دابا سيري وحدك. وأنا هنا مقابلك.. ردي بالك ولا تنسي.

وأكدت له خدوج أنها تتذكر كل شيء جيداً، وكررت عليه بعض تعليماته، فربت على كتفها راضياً وسألها مشجعاً :

- خائفة ؟

وردت على الفور :

- لا.

وتركها تسير وحدها في الظلام، كان يتابع حركتها من منديلها الأبيض على رأسها، وكل جارحة تتحرك معها. ورغم أن تعليماته كانت تقضي بأن يبقى بعيداً ينتظر عودة البنت، إلا أنه لم يُطق ذلك. وتقدم نحو نقطة الموعد من اتجاه آخر وعلى بعد، ليكون على أقرب مسافة مما قدر، احتياطاً لما قد يقع. وظل يتحرك بحيطة وهو يكاد يلامس الأرض انحناء، وقد ترك ربطة الفجل تسقط من يده، ووضع يده على حزامه يتحسس سلاحه. ورأى البنت تتوقف في المكان المعلوم، وتظل جامدة هناك، ثم يخرج إليها من الظلام شبحان يحادثانها قليلا، ثم تحدث حركة من الأشباح الثلاثة، وإذا الفتاة تستدير عائدة إلى حيث تركته، بينما يغيب الشبحان في الظلام. مشهد لم يدم أكثر من دقائق معدودات ؛ ولكن التوجس الذي ملأ سعيداً كان يقاس بالدهور. ومن الأكيد أنه كان خائفاً على البنت أكثر من خوفه على شيء آخر. ولولا أن هذه العملية عرضت عليه في آخر لحظة من حيث لا يقدِّر، وأعوانه الثِّقات خارج يده، ما عرَّض ابنته لمثل هذا الخطر، ولكنه قرر بأنها المرة الأولى والأخيرة التي يجعلها تقوم بمثل هذا العمل. اخترقت خدوج منطقة الأضواء تنوء بكيس ذي عِدْلين صغيرين، يتدلى كل منهما على جانب من كتفها حين ظهر خالها بجانبها، فنزع عنها الكيس، ووضعه أرضاً وقبلها مراراً، ثم فتح كل عِدْل على حدة متفحصاً محتوياته، وكانت مجموعات من المِفكّات والمفاتيح الميكانيكية جديدة لامعة، وحمل سعيد العدلين على كتفيه والفتاة بيده الأخرى رغم ممانعتها، لكنه سار بها مع ذلك فرحاً بسلامتها ونجاح العملية، حتى إذا أوشكا أن يخوضا في الأزقة المأهولة، وضعها على قدميها، وهو يضمها إليه بيد على كتفها. وكان طوال الطريق يؤكد لها :

ـ أنت أكثر من رجل، رجل ونص.

ويقهقه، ويكرر طلبه بأن تعيد عليه كيف كلمها الرجلان، وكيف حادثتهما، وكيف كان شعورها، فتعيد عليه نفس الحكاية البسيطة بنفس العبارة وباعتزاز :

«وقفت عند الصخرة كما قلت لي : وبقيت واقفة، حتى داروا بي، وقال لي واحد : عندك الأمانة ؟ قلت له : غدا. وفي ذاك الوقت، حط السلعة على كتفي، ومشوْا، ورجعت».

ويعلق خالها مبتهجاً :

ـ عفريتة مع راسك. رجل ونص أنت !

كان سعيد وزوجته كلثوم في واقع الأمر جد سعيدين بانضمام خدوج إليهما، وهما المحرومان من الأولاد. وقد تيسرت حال سعيد كثيراً، وتوقفت كلثوم عن العمل ببيوت الأوروبيين واكتفت بأشغال دارها، بعد أن ضمت إليها بنتاً أخرى تساعدها وتساعد خدوج في أشغال بيت اتسع وكثر زواره. ولم يُعلم سعيد زوجته بما أوْكل إلى خدوج أن تقوم به هذه الليلة، لأنه كان يعلم أنها لن توافق على ذلك خوفاً على البنت، وكان احتياطه في عملية الليلة ضرورياً، حتى لا يستغفله اللصوص كما فعلوا بغيره من أمثاله :

يأتيه بعضهم بالعرض، ويحدد الموعد، وهناك، ينتزع منه المال، وينال الأذى أو الموت...

كان سعيد مع أسرته على المائدة، حين أعلن الخبر مبتهجاً إلى زوجته بطريقته الخاصة :

ـ بنتك الليلة، عملتها كبيرة... وكبيرة...

وتوقف عن الإكل وهو يخرج من جيبه ورقة مائتي ريال ويضعها بين منديل خدوج وجبينها ويعلن لزوجته :

ـ بنتك ربحتها في ليلة واحدة...

وطفق يحكي المغامرة لزوجته، وهي مصعوقة بما تسمع، حتى إذا انتهى حديثه علقت :

ـ والله عمرها ما باقية تخرج معك.

كان متهيئاً لسماع مثل ذلك ومقتنعاً به، فرد عليها في لهجة جد :

ـ كوني هانية، هذي هي الأولى والأخيرة.

وحين قامت خدوج لغسل الأواني، وجدتها كلثوم مناسبة لتسأله عن موضوع يتعلق بالبنت، كان صديقه الحاج موسى قد كلمها في شأنه، ورد عليها سعيد بحزم.

ـ موسى، وولد عمه، وأهله ؛ كلهم شيء واحد، وحتى واحد منهم ما يصلح لنا، خدوج بنتنا وعزيزة، ما نزوجها إن شاء الله إلا لواحد عزيز وصالح بالجد.

* * *

10

لئن كانت عدة نقط في الحي تشهد حركة ونشاطاً كل مساء، فإن فسحته الشمالية، كانت ذات طبيعة متميزة، فهي ليست سوقاً كبيرة ولا صغيرة، وليست منطقة بنايات أو تراكمات سكنية، ولم يأتها التميز من المزبلة الضخمة الفسيحة في شرقها، فلقد كان كل ذلك سبباً عارضاً لتردد الناس عليها، ولكن الناس كانوا يقضون بها الساعات ابتداء مما يلي العصر إلى وقت متأخر بعد الغروب. كانت فضاء فسيحاً لجمهور «الحلايقية». وإذا كان بعض السكيرين يتصيدون الجوانب النائية من هذا الفضاء الرحب، ليمتّعوا أنفسهم بسكرة هادئة ويتفلسفوا في شؤون الكون، فإن أغلب الناس كانوا يقصدونها لمتعة أكثر براءة، يستمتعون بأشعار العنترية، وبطولات السيد علي، ومكر النساء... وألاعيب الحواة والمشعوذين.

كانت جموع الناس تنتقل بين الحلقات بين فترات «الفاتحة»، عندما يقطع صاحب كل حلقة فُرجته ليجمع ما يمكن من الفرنكات، حتى إذا بدأ الجمهور يقلّ حوله، تدارك الموقف، ليستأنف ما قطع، وليعود إليه ما تفرق من جمهوره. والعجب كل العجب في الطريقة التي تُبعث فيها الحلقات من العدم، لتنمو وتتضخم حتى تغدو سوراً بشرياً متراصّاً حول صاحبها، يتعذر اختراقه... والبداية تكاد تكون مشتركة بين أصحاب «الحلاقي». إذ يقف صاحب الحلقة منفرداً أول الأمر، بعد أن يختار المكان المناسب، ثم ما يلبث أن يضرب على البندير، أو يرفع عقيرته بتهريج يلفت إليه الأسماع والأنظار لتتحرك صوبه الأقدام حتى إذا تحلق حوله جمع لا بأس به، دعاهم إلى التكبير والتهليل والصلاة على النبي مراراً جهاراً، فتكون في ذلك أكبر دعوة لمن لم يسمع بعد... في مثل هذه الحال بدأتْ تنمو حلقة على شيء من الغرابة في هذا المحيط.. كان صاحبها هادئاً بلا بندير ولا «قصبة»، لكنه كان يحمل لبدة ومجلداً ضخماً... يفترش اللبدة على قطعة من ورق مقوى تقيها التراب، ويفتح

كتابه ويشرع في القراءة والشرح والحديث... كان نباتاً غريباً دون شك في هذه البقعة، لم يشعر أصحاب الحلقات بمضايقة منه، لكنه ما لبث أن جمع الناس حوله. وكان يخلط حكايات التاريخ بسيرة الرسول والصحابة وبتفسير القرآن وتهذيب الأخلاق... وكان يختلف عن غيره من أصحاب الحلقات في شيء آخر : لم يكن يطلب مالا وإنما كان يردد أن الحديث والسماع لوجه الله، والعلم في سبيل الله... بيْد أنه كان كلما تجمع في حلقته بعض العميان والمقعدين ممن يطوفون في العادة على أصحاب الحلقات يستجْدونهم، أو على الأصح يستجدون جمهور الحلقات بواسطة صاحب الحلقة في فترة من «الفاتحة» يجود عليهم بها لحسابهم، كان الرجل يدعو جمهوره إلى التصدق على هؤلاء المساكين... وكان الرجل يقارب الخمسين أو يجاوزها بقليل، حليق الوجه أبيض مُشْرَباً بحمرة، أنيق الملبس، يبدو في جلابته البيضاء وبلغته الصفراء أشبه ما يكون وأقرب إلى القضاة... وفي هذا أيضاً كان غريباً في هذه البقعة، مخالفاً لغيره من أصحاب الحلقات، الذين كانت تبدو عليهم الخشونة والأوساخ، لا يحفلون بحركاتهم أثناء العمل فيتصببون عرقاً، ويخالط الغبار والأقذار كل بقعة في أجسامهم وملابسهم.

لم تتضخم حلقة الرجل بسرعة كما يتضخم غيرها، ولكن الناس ما كادوا يألفون حديثه، حتى أطلقوا على بقعته «حلقة العالِم» وأصبح لفظ «العالِم» على كل لسان. ولعل حماسة الناس لما يقول لم تكن في بداية الأمر إيماناً به، بقدر ما كانت فضولا إلى أن يسمعوا عنه، وينقلوا كل غريب وعجيب، أو ليس غريباً أن يرمي هذا الرجل إلى خلق الكون من جديد ؟ اسمعوا، الوشْم حرام : «إنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم». واستطلاع الغيب حرام، والسحر كذب وبهتان، ومن علّق تميمة لا تمم الله له. والذبائح على الأضرحة حرام... واتخاذ الشيوخ والأولياء والأوراد واتباع الطريقة حرام في حرام...

لكن حياة الناس تموج بهذه الاعتقادات، فهو إذن يرمي إلى خلق الكون، وعالم القيم من جديد... وكان يجيد في الشرح والتفسير والتبرير

مؤيداً ما يقول بالقرآن والأحاديث والوقائع، متحدياً مستعداً للمناقشة.. ولم تلبث حلقته أن أصبحت فتاوى شرعية وأحاديث في تنظيم حياة الناس.

- ما حكم الله في زيارة القبور ياسيدنا العالم ؟

ويرد بصوت حاسم قاطع مليء بالثقة والإقناع :

- للتدبر والتذكر فقط، فإن قصد بها غير ذلك فهي حرام.

ثم ينتهي صوته إلى هدوء مؤنس، وهو يشرح قوله هذا، بلهجة بسيطة وأمثلة...

- ولعب الكارطة والضامة ياسيدنا العالم ؟

- بدعة وملهاة عن العمل الجاد.

- والتفرج على الأشياخ والشيخات ؟

- ملهاة وبدعة وحرام.

- هذا ياسيدي رجل أو امرأة، يعمل في داره شعبانة كل عام، ويعرض على عيساوه و..

ويرد بصوته القاطع :

- كل ذلك حرام وكفر !

- كانت فتاوى وأحاديث تغوص في حياة الناس إلى الأعماق، وتثير فيهم تفكيراً وحيرة... وعندما يمتد الحديث إلى المغرب ؛ كان العالم يستأذن في التوجه إلى أقرب مسجد طالباً منهم أن يتبعوه، فيصلي معه أكثرهم وهناك يمتد بهم الحديث.. سألوه عن أولاده، فأعلن أن كل المؤمنين أولاده وإخوته وعشيرته، وسألوه عن بيته، فأعلن أن مَنْ كلّ الناس عشيرته لا يحتاج لبيت خاص، وأن بيوت المؤمنين جميعاً له... حتى إذا اطمأن إلى الناس واطمأنوا إليه، أصبح يعرض عليهم نفسه ضيفاً، ويقبل دعواتهم له في بيوتهم وبراريكهم، مصرّا على ألا يتناول عندهم إلا ما يجد، مستنكراً بحزم ما يحاول البعض أن يهيء لمقدمه من مأكل وفراش... فكل تكلف حرام. كانت كلمة «حرام» هي السيف القاطع الذي ينهي به مناقشة الخصم، فيسلم له.

كان تنقله بين مساجد الحي، وما يسير وراءه من المعجبين به والمؤمنين، للسماع والصلاة مدعاة إلى اختلاط الناس ببعضهم، وكان يدعوهم إلى هذا، ويحثّهم عليه عندما يُوقف حديثه أحياناً ويطلب من كل منهم أن يسأل جاره ويتعرف عليه، بل إنه بدأ يدعو القادرين منهم إلى أن يؤدوا صلاة الجمعة في مساجد المدينة البعيدة عن الحي، وكان يضرب معهم المواعيد لذلك، بحيث يعرّفهم بغيرهم من الواردين من نواحٍ أخرى من المدينة وضواحيها. وبدأت صلاة الجمعة تأخذ معنى خاصاً في نفوس الناس وعلاقتهم بالعالِم منذ الأسابيع الأولى لتنظيمها : كان الإمام يلقي كلمة وعظ في أعظم مسجد بالمدينة، ويفسر مفهوم «الإيمان» وما كاد يختم حديثه حتى انبرى «العالِم» يسأل عن علاقة الإيمان بالعمل وعن علامات المنافق... وبدا من اضطراب اعترى الإمام أنه لم يكن ينتظر هذا، أو أنه يفهم منه أكثر مما يفهم الحاضرون ؛ فصاح بالناس أن أخْرِجوا الزنديق من جماعة المؤمنين. وصاح العالِم رادّاً، أن اطْرحوا المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم... واشتبكتْ أيدي المؤمنين وأصواتهم في معركة دافع فيها أصحاب العالم عنه وعن أنفسهم باستماتة، وإن انتهت بهم إلى خارج المسجد. منذ هذه الحادثة عرف أنصار الرجل مرماه البعيد : إثارة عقول الناس من غفوتها، وتوحيد قوتهم لعمل جليل، تنبيههم إلى ما يدور حولهم من تدجيل، وإلى المستغلين والمرتزقين بالدين ومساعدي الاستعمار. منذ ذلك اليوم أصبحت صلاة كل جمعة حدثاً يتردد صداه في المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ولم يعد العالِم هو الذي يثير أسئلته الحرجة المقصودة، بل أصحابه من الأميين وأشباه المتعلمين من العمال والعاطلين، الذين كانوا يتوزعون على المساجد الكبرى في المدينة، يجتهدون بوحي مما يتعلمون منه، ليجدوا مناسبة لإثارة الناس. وكانوا في أسلم الظروف يجدون أنفسهم ملقى بهم خارج المساجد، مشيَّعين بعبارات : الزنادقة والكفار أو بكلمة أخرى بدأت تجد طريقها على الألسنة :

- شيوعيون !

أوشك الغروب أن يحلّ، وأدرك المتحلقون حول العالِم أن حديثه في

الحلقة يشارف نهايته ليُستأنف في جلسة خاصة ببعض مساجد الحي، أو في مساكن بعضهم، بيْد أن صاحبهم بدا في هيئة المُتعَب، هيأة من يتأسف على أن لديه الكثير مما يقول ولكنه وحده عاجز، ويود لو يدخل كل بيت وكل كوخ وكل براكة، أو ليت جميع الناس كانوا متعلمين ليتحرروا من الجهل بأنفسهم ويحرِّروا بعضهم البعض. وتوقف العالم ليعلن إليهم أن رحمة الله يمكن أن تنال بالعلم كل من يطلبه، سيَان في ذلك الشباب والشيوخ، النساء والرجال.

وتلفَّتَ حوله كأنه يبحث عن شيء، حتى توقفت عيناه على شاب، كأنه نبت من الأرض في الحال، وطلب منه أن يتقدم فتقدم هذا متهيباً، كان شبيهاً بالعالِم في أناقته ونظافته، لكن لباسَه كان عصرياً، وكان نحيفاً لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره تختفي شفتاه الدقيقتان تحت شارب كثيف أسود.

وقال العالِم ويده على كتف الشاب في مركز الحلقة :

- ها العلم... ها هو قدامكم، شاب صغير وعالِم... تكلموا معه.

وبدا كأن العالِم فاجأهم، إذ ليس من السهل إقناعهم بأن مثل هذا الفتى، يمكن أن يكون عالما أو يستحق هذا الاسم، وهو لا يرتدي جلابة ولا يحمل لبدة، وبالإجمال لم يكن له سمة العالِم كما هي مرسومة في أذهانهم. ساد الصمت فألح عليهم العالِم أن يسألوا الشاب قائلا :

- يا الله.. تكلموا... ايوه جربوه. حُكُّوه.. العالم كالكامون حكُّوه يعطي ريحته.

لكن أحداً لم يفه بسؤال أو يطلب فتوى، كأنهم استنفدوا رصيدهم من ذلك، أو أشفقوا على أنفسهم أو على الفتى من الإحراج. وحينئذ اتجه العالم إلى الشاب طالباً منه أن يكلم الناس بما عنده.

- كلمهم أنت... قل لهم...

وتنحنح الشاب، ومسح فمه ووجهه بيد معروقة، وبدا أنه يغالب التردد أو لا يعرف مبتدأ الحديث. ثم قال :

ـ عندي سؤال سهل... واحد فيكم يقول اسم بلده.

كان سؤالاً بسيطاً كما ذكر. ولكن بساطة السؤال تبدو كفخ للتعجيز، ومضتْ مدة قبل أن يبادر أحد بالجواب، ربما لأنهم قدروا جيداً أن الفخ منصوب لإظهار جهالتهم. ذلك أن «العلم بحر ما عنده حد» كما يعلمون، وإلا فمن لا يعرف بلده.

قال عباس، وكانت تلك أول مرة يحضر فيها حلقة العالم، بالصدفة بعدما سمع عنها الكثير.

ـ انا من القصبة.

وابتسم الشاب، وهو يتلقى الجواب دون تعليق. لعله استحسنه. وقال علي الجليد وقد شجعه أن الشاب لم يواجه بالقمع سؤال صاحبه عباس الذي حضر معه بالصدفة، بعد أن كانا في فسحة خاصة بهما في الأرض الفضاء :

ـ وأنا من جيران القصبة.. من أولاد قاسم. وتتابعت الأصوات تعلن عن أنسابها من أقصى الجنوب إلى أقصَى الشمال، من البحر إلى الصحراء... لقد ذهب التهيب وانفتح باب الفضول ؛ والشاب يتابع ذلك بصمت أجش ولكنه واضح :

عرفت جوابكم غادي يكون هكذا... أنا سألتكم على بلدكم الحقيقي... على بلدكم الكبير...

وانبرى صوت يقول :

ـ الدار البيضاء هي الكبيرة ومراكش.. و...

واتسعت ابتسامة الشاب وهو يقاطعه :

ـ عندك الحق، ولكن ما أكبر من المدن كلها هو بلدنا كلنا.. بلادنا جميعا وهو «المغرب».. !

وهل قال جديداً ؟ هذا الجواب ربما كان في ذهن بعض المتحلقين، بل ربما كان عند بعضهم جواب أحسن وأكثر «علمية» ووجاهة، ربما كان بإمكان بعضهم أن يقول : بلدنا هو المعموره كلها. أو بلدنا الحقيقي هو

الآخرة، دار الحق، لأن الدنيا زائلة، والمؤمن يجب أن يعمل لآخرته... أو يقول. بلدنا هو التراب فأولنا وآخرنا تراب أو بلدنا هو مكة بلد الإسلام... ! فلمَ إذن يختار هذا الشاب أن يقول : المغرب ؟ إذن فسؤاله كان للتعجيز كما قدروا في أول الأمر.

وكأنما أدرك الشاب ما يجول في أذهانهم، فأعلن أنه لا يريد تعجيزهم، وإنما يريد أن يبدأ معهم في العلم من بدايته. واستأنف :

الآن عرفنا بأن بلادنا هو المغرب. وما هو المغرب ؟ لم يكن من السهل أن ينبرى أحد للجواب بعد الخيبة الأولى. وماذا يقولون : إذا كان بلدنا هو المغرب، فالمغرب هو المغرب...

وتبيَّن الشاب ما يجول في خواطرهم من حيرة فأوضح :

ـ بلدنا هو المغرب : ولكن ما هي حدوده ؟ وما فيه من معادن وجبال ووديان وغابات وصحراء وحيوان وبشر.. وو.. ؟ هذي هي بداية العلم ! وانبرى من الجمع صوت يطلب توضيحاً في لهجة استسلام تخفي تحفظاً. وهنا انطلق الشاب بإسهاب يتحدث عن كل ما ألقى من أسئلة، فكان يعدد مميزات كلّ منطقة في الوطن، ويتحدّث عن عادات أهلها وتقاليدهم وأمجاد تاريخهم.. إلى أن قاطعه العالِم :

ـ الله ينورك ياولدي، ويزيدك...

وتابع وهو يخاطب جمهور الحلقة :

ـ ها هو شاب صغير فتح عليه الله... خذوه عندكم يعلمكم... العلم والتعليم في سبيل الله بلا فرنك بلا ريال.. ها هو طالب عندكم ضيف الله.

وتبارى بعض الناس في دعوته إليهم. ومنذ هذا اليوم أصبحت شخصية سي عبد الفتاح إحدى معالم حي الكريان سنطرال. خاصة وأن ظهوره اقترن باختفاء العالِم الذي شاع بين الناس أنه ذهب للحج.

وكان سي عبد الفتاح نسخة من أستاذه العالِم، لو صح أن العالم أستاذه، لولا أنه لم يكن يتناول موضوعاته من زاوية الدين إلا قليلا. وعند الضرورة. كان في أحاديثه يسلك منهجاً علمياً واقعياً، يتحدث في الاقتصاد

عن الفلاحة والتجارة بالأعداد والأرقام، شغوفاً بأجواء المعامل وما يجري فيها... وكان كسلفه يستنكر ما يصطنع البعض لاستقباله... ولعل الناس كانوا يشفقون عليه لامتزاج ما يبدو عليه من ملامح النعمة، بعلة ملازمة، لا تفارقه، حبوب يدفع بها شدّتها، فكانوا يليّنون له الفراش أو يبالغون في إعداد الأغطية له عند النوم ؛ فكان يرفض طالباً مساواته بهم في كل شيء... في افتراش الحصير وتناول الخبز والشاي... وهكذا ظل ينتقل فترة طويلة بينهم في البيوت والبراريك، إلى أن ضمّه ذات يوم جمْع مع بعضهم في أحد بيوت العمال بقرية السكر، وامتد الحديث بهم عن أهمية العلم وضرورته، وكان محور النقاش مركّزاً حول علم الدين وعلم الدنيا، فانبرى سي عبد الفتاح ينفي كل تناقض بينهما :

ـ العلم واحد. علم الدين وعلم الدنيا واحد...

وتعجّب كبور، وكانوا في بيته وهو في بداية اتصاله بالجماعة :

ـ لكن النصارى عندهم علم في شكل هو علم الدنيا... في السكويلة تلقى الدراري من صغرهم يتعلموه... في الجوامع عندنا علم الدين علم الآخرة... النصارى عندهم علم الصنعة، والمسلمين عندهم القرآن...

وابتسم سي عبد الفتاح وهو يرد :

ـ لا يا أخي كبور.. هذا غلط... هذا الشيء حقيقة موجود الآن.. ولكنه غلط... وهو مقصود...

واستمرَّ يوضح من أمثلة من التاريخ والحضارة ومن أحاديث الرسول الكريم أن علم الدين والدنيا يمكن أن يجتمعا ويكوّنا علماً واحداً : لِمَ لا يجتمع الطب والهندسة والميكانيك مع علوم الشرع والتفسير واللغة العربية.. ؟ وإذا كان التناقض موجوداً الآن، وهو مقصود ـ لم يوضّح كيف ـ فإن بإمكان الناس أن يعيدوا إقامة دعائم العلم الصحيح...

وركّز عبارته الأخيرة قائلا :

ـ جماعتنا هذه يمكن من الآن ؛ تقوم بهذا العمل !

وتساءلوا كيف ذلك. فجاء جوابه مختصراً ؛ كأنه كان مُعداً ينتظر اللحظة المناسبة :

ـ مدرسة ! من الغد يمكن تكون عندنا مدرسة تعلم أولادنا العلم والدين !

وبدا الأمر حلما جميلا رائقاً ؛ أبسط في تحقيقه من إدارة المرء لرأسه أو حكّه لجنبه : منذ الغد يمكن أن ينجز المشروع وذلك باتخاذ دار ما، وجعلها مدرسة. يمكن أن يكتروها جماعة. على أن يتبرع كل منهم آخر الشهر ببضع ريالات من أجرته للمعلم أو المعلمين، وأن يؤدي التلاميذ بعض الريالات شهرياً ممن يستطيعون ذلك... كان بالفعل حلما جميلا. أما الموقع فاختاروا أن يكون وسطاً بين قرية السكر والكريان. حيث تنتثر بعض الدور المتواضعة. لم يكونوا على درجة واحدة من الاقتناع ولكن سهولة الإنجاز التي قدّم بها سي عبد الفتاح مشروعه، كانت كفيلة بإزالة كل تردد... وتكونت في الحال لجان من الجماعة إحداها للدعوة للمشروع والاتصال بالناس في المعامل والمتاجر للمساهمة، وأخرى لاختيار الدار وتجهيزها بما يلزم، وأخرى للتسيير وعلى رأسها سي عبد الفتاح. وارتفعت بعد أيام لوحة تحمل اسم المدرسة على دار متواضعة من ثلاث غرف أرضية. حشرت فيها مقاعد خشبية وأطفال يقوم بتعليمهم ثلاثة معلمين، من بينهم سي عبد الفتاح نفسه، الذي كان في الوقت نفسه مسؤولا مباشراً عن تسييرها أمام اللجنة العامة المؤسِّسة.

* * *

أصبحت المدرسة معْلماً جديداً من معالم الحي.. وبدت منذ أيامها الأولى بمظاهر نشاط ونظام يخلب الألباب : تلاميذها يصطفون أمام الباب قبل كل دخول ليردّدوا الأناشيد، ويفعلون مثل ذلك قُبيْل الخروج، ويطوفون مرات في الأسبوع في الأزقة مثنى مثنى، تحت إشراف معلمهم وهم يرددون أناشيدهم الحماسية الجميلة، فيقف الحي بكامله لمشاهدتهم والسماع لهم... ولم يمض إلا وقت يسير، حتى أصبح تلاميذ المدرسة يُحيون الحفلات في المناسبات المختلفة، ويُدْعَون لقراءة الأناشيد فيها، وإلقاء الخطب وترتيل القرآن، بدَل الأشياخ والشيخات. وكانوا بالإضافة إلى كل ذلك يشخِّصون تمثيليات يتمرنون عليها، لانتقاد جهالة الناس والحث على الأخلاق الفاضلة... هكذا أصبحت المدرسة غُرة بيضاء في

جبين الحي، ومصدراً رئيسياً من مصادر إشعاعه وموطن فخر أهله واعتزازهم.

وإذا كان واضحاً أن لجنة التأسيس، منذ الأيام الأولى لبداية المشروع، وجدت نفسها مضطرة لعقد اجتماعات أسبوعية وأحياناً أياماً متوالية طيلة الأسبوع، فإن هذه الاجتماعات أصبحت تتجاوز نطاق شؤون المدرسة، لِتروج فيها أسئلة وموضوعات أخرى : لم لا يتعلم الكبار أيضاً ؟ وإذا لم يكن من المفيد أن يتعلموا القراءة والكتابة فلْيتعلموا أشياء أخرى : من يستفيد من خيرات بلادهم ؟ ماذا استفادت بلادهم من تضحيات الحرب ؟ ما أهداف الاستعمار ؟ وكيف يمكن محاربته وقهره ؟ ما وسائله وما هي الوسائل المضادة ؟... وأصبح لفظ «الاجتماع» جارياً على كل لسان. وتعددتْ الاجتماعات لا داخل المدرسة فحسب، بل في البيوت والبراريك بالتناوب، يشرف على كل منها أحد أعضاء لجنة المدرسة أو سواهم، ممن تكونت لهم خبرة بمثل هذا العمل. وبدأت الاجتماعات تدور حول موضوعات تثيرها منشروات لم يعرف أحد مصدرها، كان سي عبد الفتاح يقرأها على أصحابه في المدرسة، ويوزعها عليهم لينشروا مضمونها بين الناس في اجتماعاتهم. وكانت بعض الاجتماعات سواء في المدرسة أو البيوت والبراريك، تشهد حضور ضيوف غرباء عن الحي من مختلف الأعمار ؛ يظهرون وسرعان ما يختفون. وباتساع الاتصالات والاجتماعات، ظهرت ضرورة التنظيم التي عبر عنها سي عبد الفتاح ذات ليلة في اجتماع المدرسة قائلا :

ـ الآن. جاء وقت التنظيم والتقسيم. كل واحد منا لازم يتكلف بحومة من الحي، يكوِّن فيها جماعات ويتحمل مسؤوليتها : كبور يتكلف بمعمل السكر، المزابي بناحية الجوطية والتدلاوي بناحية الفران... وعلي... وعباس...

وكان على هؤلاء أن يستعينوا بما يشرحه لهم سي عبد الفتاح من مضمون المنشورات، أو بمن يُمكن أن ينخرط في جماعاتهم ممن يقرأون... وكان لكل منهم أن يضيف ما يشاء إلى تلك المضامين حسب اجتهاده، وحسب ما ينسجم مع الخطوط العامة للحركة الوطنية.

ذات مساء، أنْهى كبور إلى جمع المدرسة خبراً هاماً : فَصَلوه وبضْعَ رفاق له عن العمل. وعليه أن يُخلِي دار الشركة بقرية السكر... استوْلى عليهم الوجوم. لا لأنهم لم يكونوا ينتظرون ذلك، إذ ربما كانوا ينتظرون أكثر منه ؛ ولكن لأن المنتظَر بدوره يُذْهل عندما يحدث... فلقد كانت مبادرة كبور لتأسيس النقابة في المعمل، بادرة شخصية اعترض عليها كثير من رفاقه، وفي مقدمتهم سي عبد الفتاح. كان المعترضون يرون أن عملا مباشراً من هذا النوع في معمل كمعمل السكر، من شأنه أن يلفت الأنظار بحدَّة إلى نشاطهم. بَيْد أن كبور واتته الفرصة ـ حسب رأيه ـ فانتهزها، وهو مقتنع بأنه وضع بذْرة الكفاح النقابي في إبانها ؛ ولعل اقتناعه هذا جاء من ثقته في رفاقه من العمال :

ـ هذا الشيء كان لابد منه... العمال الآن كلهم معنا وعندهم الثقة فينا.

كان كثير من الحاضرين في هذا الجمع من معامل السمك والخضر والأخشاب والسكك الحديدية والكهرباء، تراودهم نفس الفكرة في تأسيس حركة نقابية وطنية بمعاملهم ؛ ولم ينقص من اقتناعهم هذا، ما لقيه رفيقهم كبور جزاء مبادرته ؛ بقدر ما خالطتهم مشاعر متناقضة، لعلها لا تخلو من عامل الغيرة لما حظِيَ به كبور أمامهم كما لو علِّق وساماً، حتى سي عبد الفتاح الذي كان معارضاً لفكرة كبور منذ بضعة أسابيع، قطع حبل الوجوم مخاطباً صاحبه بقوله :

ـ سي كبور...

قد تكون فلتة لسان أو تكون عبارة مقصودة : سي كبور ! ولكنها تدل على المكانة التي احتلها كبور في الحركة منذ اليوم. لقد افتتح لهم الطريق. والمهم أن يكون تفاؤله في محله، وأن يتبعه الآخرون في المعامل الأخرى...

وردد أحد العمال :

ـ المهم هو : العمال يكونوا معنا.

ورد كبور بحزم :

ـ المهم هو نجعلهم يكونوا معنا.

11

صفق الباب الخارجي بعنف، وأوشك الولد المندفع إلى الداخل كالقذيفة أن يصيب الصينية المنصوبة أمام والدته...

فصرخت :

ـ ها.. العفريت جاء.

ويظهر أنه كان في ارتعاب أشد، لا يمكن أن تضيف بلهجتها إليه شيئا، كان يلتقط أنفاسه، وأذنُه إلى الركض المتواصل المتنوع في الزقاق، يخالطه هرج الأطفال مرددين :

المذكوري بودربالة
ما كلتو في الزبالة
والقملة قد النوالة

تترادف خلفهم أحجار ولعنات :

أولاد الكلبات... أولاد الزنى

أما بنت سويعد فقد أمسكت أذن الولد تقرصها بين السبابة والإبهام مستنكرة هذا العبث :

ـ سلم على (عمك) عباس :

وانتبه الولد بالفعل إلى وجود الرجل، فابتسم له عباس، وهو يردع صفية عن عقابه، ويجلسه إلى جانبه ويسأله في مودة.

ـ أيوه كيف أنت مع القراية ؟

ورد الولد بحماس ذهب بما كان من ارتعابه :

ـ عملنا الامتحان. وأنا الرابع فيه. ربحت عشرة في المحفوظات وعشرة في القرآن و...

ـ حافظ الأناشيد ؟

- أييه.

- سمّعني.

واسترد الولد أنفاسه ليتذكر وينطلق مترنماً :

يا علمي...
يا علمي...
يا نسيج الأمهات
في الليالي الحالكات
لبنيهن الأباة
كيف لا نفديك
كل خيط فيك
دمعة من جفنهن
خفقة من صدرهن
يا علم... يا علمي...

كان عباس يهمهم في همس، مردداً لوازم النشيد الذي يعرف لحنه ويجهل كلماته، ولئن كانت حركات الولد تقليداً لما علّمه المعلم، فإن خيال عباس كان يرسم مضمونها بتصورات غامضة لذيذة من إيحائها. هذه ثمرة غرسهم : المدرسة ؛ ورمز وجودهم وتجسيد إرادتهم... وتوقفتْ خواطره فتوقف الإنشاد، فربت على كتف الطفل، ثم جذب من جيب معطفه حزمة أوراق بيضاء بحجم متوسط وضعها جانباً، وقدم للولد ورقة عليها جملة بخط يدوي واضح طلب منه أن يقرأها ؛ حتى إذا فعل الصبي ذلك، وكرره مراراً بتصحيح من عباس الذي كان قد حفظ كلمات الجملة، وإن كان لا يحسن القراءة، طلب منه أن ينسخ الجملة على كل ورقة من مئات الأوراق التي وضعها جانباً. وسأله كأنما يثير أرْيَحته :

- قادر تكتبها ؟

وأجاب الولد :

- قادر...

وشمر عن ساعده ليبدأ النسخ في الحين، ولم ينس عباس أن يقدم له عدة نصائح بتوضيح الخط، والآناة في رسم الحروف، ثم أعطاه بضع فرنكات تشجيعاً له، وظل يتابعه وهو ينسخ النماذج الأولى، وقارنها بالجملة الأصلية، حتى إذا اطمأن إلى سير العمل، انصرف تاركاً أصابع الطفل تنطلق بمرونة في نسخ الجملة السحرية، بعد أن زايله تعثر البداية والشعور بأنه تحت مراقبة عينين حادتين ؛ لقد أصبحت أصابعه تتحرك بعفوية وإتقان بعد أن حفظ الجملة بدوره رأساً على عقب، حفظاً أقرب ما يكون إلى حفظ (عمه) عباس لا يخلو من تحريف ؛ لكن الرسم كان صحيحاً في ذاكرته وعلى الورق ؛ لعله لن ينساه طول عمره : «المغرب لا يكون حليفاً لمن ينكر حقه في الحرية والاستقلال».

* * *

12

لم يمر في تاريخ معمل السكر حدث كهذا الذي أطلق عليه قضية «الكبرانات» أو قضية «الطوناج» كانت في أولها قضية غامضة أو خاصة بفئة معينة من العمال هم هذه الطبقة من المشرفين أو المكلَّفين بمراقبة بعض الأوراش تحت تسيير رؤسائها الحقيقيين الأجانب، فلقد دعت الظروف إلى ترقية كثير من هؤلاء المكلفين المغاربة إلى رتب «كبران»، وقد ترشحوا لذلك بفضل أقدمياتهم ومهارتهم في المعمل، فكان امتيازهم الأساسي أنهم لا يمارسون أشغالا مُتعبة ؛ أما الارتفاع النسبي لأجورهم فكان مرده إلى أقدميتهم في المعمل : أما قضيتهم هذه فقد نشأت مع ظروف الحرب إذ كانت الفرصة مواتية، لتتمتع هذه الطبقة بمسؤولية حقيقية في التسيير، أمام تغيب كثير من الفرنسيين الذين استدعوا للخدمة، وأمام تغيب كثير من العمال المغاربة أيضاً، والذين دُعوا للتجنيد دفاعاً عن الحرية والديمقراطية ضد النازية ؛ وكانت نتيجة ذلك أن الإدارة اعتمدت على الكبرانات المغاربة وخصصتْ لهم تعويضاً خاصاً عن «الطوناج»، وهو مقدار الأطنان المحصّلة زيادة على حد معين... أما الداعي إلى هذا الإغراء بالإضافة إلى ما تقدم، فهو أن جُلّ العمال الذين حلّوا محل المتغيبين كانوا مبتدئين بدون استثناء، ثم كان هناك سوء في المواد الخام، وعدم انتظام وصولها ومقاديرها... وكان تعويض الأطنان هذا، قبل هذه الظروف من نصيب الأوروبيين وحدهم من إداريين ورؤساء أوراش... فلما بدأت بوادر نهاية الحرب تظهر وانتظمت المواد الخام ؛ وبدأ المسيرون الأوربيون يعودون ؛ أو يحل غيرهم محلهم... اختفى تعويض «الأطنان» عن الكبرانات فظهر عليهم التذمر، واشتكوا إلى الإدارة التي لم تستجب لشكواهم. وهنا ظهرت بينهم الدعوة إلى اجتماع يدرسون فيه قضيتهم. وكان أكبر ما يتخوف منه الواحد منهم هو طرده من الشغل لعدم توافر أية ضمانة تسنده. وكان دور كبور هنا حاسماً والفرصة مواتية، لعلاقته بقضية الكبرانات التي تهمه كواحد منهم ؛ ولما في ذهنه من مبادئ

الوطنية الرامية إلى توحيد العمال. وهكذا استعان برفاقه من العمال، في نشر الفكرة التي طرحها في اجتماع الكبرانات، وكانوا حوالي ثلاثين تغيب ما يقرب من نصفهم :

- احنا وحدنا ما عندنا قوة. وما نقدروا نعملوا والو، اشحال أحنا ؟ ثلاثين... أربعين ؟ وفينا اللي خايفين واللي ما عندهم غرض... واشحال كاين ديال الخدامة في المعمل ؟ أكثر من ألفين إذن الواجب علينا نجعلوا الخدامة كلهم معنا في قضية الطوناج... والحقيقة أن الخدامة هم اللي كيعرقوا وينشفو في الطوناج ماشي أحنا الكبرانات وماشي النصارى..

كان جزء من القضية واضحاً مقنعاً فيما يطرح، وهو أن النضال ميؤوس منه إذا ظل على مستوى الكبرانات، أما الجزء الأخير وهو تعميم المطلب، ليعم جميع العمال ومقارنة تعبهم وشقائهم في سبيل رفع الإنتاج، مقابل ما ينعم به الفرنسيون والأوروبيون عامة من راحة أو تمييز.. فلم يكن مقنعاً... وجاء الرد على خطابه فوراً من أحد الكبرانات :

- اللي ما يعطيش الحق لثلاثين أو أربعين، ما يمكن يعطيه لأكثر من ألفين ؟!

كانت لهجة انهزام بادية، ولعل صاحبها لم يكن وحده في هذا التفكير الذي ينتهي إلى إيثار الواقع الراهن على مغامرة تبدو غير معقولة.

واستأنف آخر محاولا التوصل إلى حل وسط :

- في الحقيقة، هذي قضيتنا وحدنا... الطوناج خاص بالكبرانات والخدامة كلهم ما عندنا بهم غرض.

ولكن الإشكال كان قائماً، فيما لو عادت الإدارة ورفضت من جديد مطلبهم أو طردتهم. وهنا لم يكن إلا أحد رأيين :

- فلوس الطوناج ماشي هما اللي غادين يعيشونا. ما خصنا بهذا الصداع كله. بارك علينا خدمتنا بحال الناس.

وجاء الرأي الثاني يقول :

ـ واجب علينا نطالبوا بحقنا في الطوناج، وإلى ردونا بلاش نجروا معنا الخدامة.

ورد كبور بسرعة :

ـ يكون الوقت فات على جران الخدامة ؛ وحتى واحد منهم ما بقا يثق بنا.

وساد الصمت لحظة، ودل على أن الاجتماع يشهد نهايته فاستأنف كبور :

ـ النظر لنا جميعاً. واللي اتفقنا عليه هو اللي يكون. حاجة وحدة بغيت نقولها لكم وهي أن الأرزاق بيد الله، فعلاش الخوف من الطرد.

وتوقف لحظة يرى أثر كلامه فيهم، ثم استأنف :

ـ شئ واحد خصنا نعرفوه ونتأكدوا منه، وهو أننا إلى نجحنا في هذه القضية، غادي نحصلوا على نتائج أخرى... ولهذا ما علينا غير نتحدوا مع الخدامة كلهم...

وتحدث من جديد عن ضرورة رفع أجرة جميع المغاربة بالإضافة إلى تعويض الأطنان، وإلى ضرورة رفع المطالبة بفترة ربع ساعة على الأقل، في كل ثمان أو تسع ساعات، التي تمتد إليها فترة عمل كل فريق بالمعمل لتناول الطعام كما هو الشأن بالنسبة للأوروبيين، وإن كان هؤلاء يجدون من سعة الوقت ما يسمح لهم بتناوله في كل حين... وتحدث عن ضرورة تعويض للسكنى خاص بالذين لا يسكنون قرية السكر... وذكر أشياء كثيرة كانت كأحلام جميلة، ولكنها صعبة التصديق. وأكد على دورالاتحاد ووحدة جميع العمال المغاربة...

وقاطعه صوت :

ـ هذي سياسة...

وأردف آخر :

ـ ايه دخلنا في السياسة... ما بقا عندنا غرض لا بطوناج ولا بغيره...

وبدأوا ينصرفون ويتوجهون نحو باب المعمل الذي لم يكن قد انفتح لهم

بعد ؛ فقد تواعد «الكبرانات» على أن يجتمعوا لتدبير قضيتهم بأكثر من ساعة قبل وقت الدخول في الخلاء الممتد أمام المعمل، لكن كثيراً منهم لم يحضروا، والذين حضروا منهم بدأوا ينصرفون دون أن يقتنعوا بما يريد كبور ورفاقه، أو أنهم اقتنعوا ورفضوا أن يلتزموا بما اقتنعوا به، وأحس كبور بثقل المسؤولية، وخيل إليه أن آماله تنهار، وحكم على نفسه بخطإ التسرع، وبدا له سي عبد الفتاح وسواه ممن كانوا يعارضون فكرته في توحيد العمال، وكأنهم أصبحوا فجأة على حق. ولكن ماذا يشفع له ؟ لا شيء سوى أنه اعتبرها الفرصة الوحيدة الممكنة في هذا المعمل اللعين : معمل السكر. ولو تركها تفلت لندم أشد ندامة. ولكن ها هي الفرصة ستفلت منه ومن رفاقه فما العمل ؟ على كل، فلا مجال للتراجع بعد أن أعلن عن برنامج عمله ؟ ورنا إلى ثلاثة من الكبرانات الذين ما زالوا إلى جانبه بعد أن انصرف سائرهم...

هكذا لم يتقدم الكبرانات بمطالبهم إلى الإدارة، بل لم يعودوا بحاجة إلى ذلك، بعد أن علمت الإدارة بتجمعهم ذاك ؛ وبما انتهى إليه، فسارعت إلى تلبية مطلبهم في التعويض ؛ لكنها أنزلت بعضهم وضمنهم كبور، إلى رتبة عمال عاديين. وكان هذا التدبير في صالح قضيته ؛ إذ أنه كان قد أصبح أقرب ما يكون إلى نفوس العمال، فتوثقت صلته بهم، وبدأ يعمل على توعيتهم... ولم تمض مدة حتى بدأ الإنتاج يهبط حتى بلغ أدنى ما يمكن أن يصل إليه، ولم يعد مبدأ تعويض الأطنان الذي منحته الإدارة للكبرانات بذي جدوى في هذا المستوى من الإنتاج، وكان لابد من رد الفعل، فكان طرد كبور ورفاقه من معمل السكر.

* * *

لم يكن من الصعب على كبور أن يكتري براكة في الكريان سنطرال، لكن همه الرئيسي كان مركّزاً في نتيجة عمله بمعمل السكر، وفي استمرار اتصاله بالعمال. وهكذا وفد عليه في نهاية الأسبوع، وفد من أربعة عمال بمسكنه الجديد، وقدموا له ما يقارب أجرة رفاقهم المفصولين عن العمل، جمعوها تبرعاً من سائر العمال بالمعمل. وعندما سألهم عن سير العمل والتنظيم أجابوه :

ـ الطوناج دائما نازل.

وعلق أحدهم وهو المعطي :

ـ النصارى والكبرانات حمقوا ما عرفوا ما يعملوا.

وكان الأمر بالفعل محيراً في معمل السكر. فالآلات تدور بنفس الوتيرة المعهودة. وأيادي العمال تحت مراقبة لا تنقطع ؛ كل شيء يبدو أنه يعمل بنفس الإتقان والسرعة. ولكن الحصيلة النهائية لا ترتفع... وبدا الأمر محيراً لكبور نفسه. ذلك أنهم عندما مارسوا عملية إنقاص الأطنان، لم يكونوا تحت مثل هذه الرقابة. فكيف يستمر العمال على مثل ذلك تحت المراقبة الشديدة ؟ ولكنهم ذكروا أشياء كثيرة عن أعطاب أصبحت تتعرض لها بعض الآلات وأنابيب السائل الحلو التي تصب أحياناً في صهاريج الماء...

وعلق الجيلالي وهو من نفس ورشة المعطي :

ـ الآن يمكن لكل شيء يتوقف مرة وحدة... حتى الكبرانات... كثير منهم ولّوا معنا.

وبدا وفد العمال شديد الحماسة مرتفع الروح. إن باستطاعتهم أن يوقفوا العمل كله بإشارة واحدة. حتى المترددين أصبحوا معهم بعدما رأوا قدرتهم على إنقاص الإنتاج وعجز الإدارة ؛ بالإضافة إلى ما تركه في نفوسهم فصل إخوانهم عن العمل.

لكن كبور لم يكن بالذي يعطي إشارة الإضراب. لقد تكلم بهدوء لا ينسجم مع درجة حماستهم، هدوء عميق ناجم عن شعور بالمسؤولية. إن الوفد إذن يضع في عنقه رسمياً مسؤولية قيادة المعمل، فهو رمز نضالهم، وعليه أن يحسن التصرف في هذه القيادة حتى لا تجهض المسيرة والطريق طويل. إنه مرتاح لما حدث ويحدث، والآن فقط، يدرك أن حدْسه كان صادقاً عندما وضع بذرة كفاح العمال في إبانها المناسب، فليحافظوا على الشعلة، وليحترسوا من التسرع الحقيقي، وردَّ على اقتراحهم وتساؤلهم :

ـ لا. وقت الإضراب باقي ما وصل. لكن علينا بالتنظيم والاتصال بإخواننا في المعامل الأخرى.

وتساءل المعطي :

- والطوناج

ورد كبور وبحزم :

- خلوه دائما نازل.

واستمر الإنتاج في مستواه المرسوم المتناقص لا يتعداه. بالإضافة إلى إصلاح ما أصبحت تتعرض له الآلات من عطب وما يتطلبه من وقت، وبالإضافة إلى تسرب السائل الحلو من الأنابيب في غير محله قبل تجميده في القوالب ؛ كانت نسبة كبيرة من الإنتاج المحصَّل، عليها مآخذ ولا يصلح تصديرها للزبائن نتيجة تجفيف غير كامل في الأفران، أو شدة ضغط في القوالب الحديدية أو... وطرد عمال آخرون. لكن ذلك لم يُجدِ شيئاً، وظهر عجز الإدارة كاملا عن إيجاد المسؤول الحقيقي الذي يكون طرده سبباً في إعادة الإنتاج إلى الارتفاع والتحسن، كانت التبرعات التي يجمعها العمال لفائدة المطرودين من إخوانهم مشجِّعاً كبيراً على الصمود رغم أنها لم تكن في مستوى الأجرة الحقيقية، خاصة بعد تكاثر، أعداد المفصولين. إلا أن الطرد نفسه أصبح امتيازاً معنوياً في نظر البعض ؛ فلم يعد مرهباً على النحو الذي كان يبدو به في بداية المرحلة. وبدا أن حل المشكل من طرف الإدارة يحتاج إلى إدخال عنصر جديد في المعركة. وهكذا حمل وفد العمال إلى الاجتماع الأسبوعي بمسكن أحدهم، نبأ الدعوة التي وجهتها الإدارة إلى جميع العمال، في تجمع عام بساحة المعمل يوم الأحد، وهو عطلة الأسبوع ؛ ولا أحد يعلم ما تعتزم فعله ولا خطة عندهم لمواجهتها.

وحين رنا كبور إلى وجوههم، تبين معالم الحيرة تخالط تصميمهم على العمل. كانت فكرته في الموضوع واضحة لكنه لن يتحمل مسؤوليتها وحده، ولن تتحملها معه هذه المجموعة المحدودة من ممثلي العمال فحسب.. لذلك لم يزد على أن قال :

- الآن يبدأ عملنا الحقيقي...

وقام بهم لينحدروا جميعا متفرقين بين أزقة البراريك، صوب المباني

المتواضعة التي تحتضن المدرسة. وحيث يجب أن يتم أول لقاء على مستوى واسع بين المسؤولين عن الحركة الوطنية في الحي كله أو في المدينة بأجمعها.

* * *

ضاقت ساحة المعمل على سعتها بمئات العمال... وعلى شرفة بمبنى الإدارة المواجهة، وضعت مقاعد وطاولة عليها مكبر للصوت. كانت تلك أول مرة في تاريخ المعمل يحدث فيها جمع كهذا، ولكنه إذ حدث كان كفيلا بجعل هذه الخلائق المتراصة تعي قوتها، لو كانت على مستوى واحد من الوعي والإدراك لأبعاد الأمور. ومن المؤكد أن كثيراً من هذه الخلائق بعدما تتابع من الحوادث بالمعمل، كان على ثقة من نفسه ومن رفاقه على الصمود، إن لم يكن لنيل مطالبهم أو مطلبهم الأساسي، وهو تحرير بلادهم في الوقت الراهن، فعلى الأقل لحرمان غيرهم من بعض الربح على حسابهم وزعزعة ثقة الإدارة كلها بتخطيطها. ومن كان يتصور أن بالإمكان تخفيض الإنتاج ؟ بل مَنْ كان يهتم قبل هذه الأحداث بفيْض الإنتاج أو تراكمه بفضل طاقته وطاقة غيره من العمال. من منهم كان يناقش في كونه مسخراً لبذل أقصَى ما يطلب منه من طاقة، ولا يعتبر ذلك التسخير مشروعاً ؟ أو لِنقلْ على الأقل، إن ما كان يخامر بعضهم من مثل هذه المناقشات كان غامضاً ومضمراً. الآن قد عرفوا أن بإمكانهم أن يجعلوا الإنتاج يتناقص ويتزايد ويتجمد عند رقم معين بوسائل مختلفة، يمكنهم أن يشعروا ببعض العزاء. لكن كل شيء فيما يبدو أصبح الآن معلقاً بهذا الجمع ولكل مجهول رهبة.

وامتلأت الشرفة دفعة واحدة بعشرات من الأشخاص من الأوروبيين عرف العمال بعضهم في الصف الأخير، وهم جماعة رؤساء الأوراش، بينما في الصف الأمامي تقف هيئة الإدارة يتقدمهم المدير العام بقامته المديدة النحيفة وسيجاره الضخم. تقدم المدير أمام مكبر الصوت ورنا إلى الجموع المتراصة تحت بصره من علو سبعة أمتار. كانت الأكتاف متداخلة لافراغ بينها ؛ ولو قدر له أن يخطو فوقها، لسار على سطحها كما

يشاء دون تعثر ؛ لكن من الجائز أن خواطره لم تسر في هذا الاتجاه، وهكذا لفظ بضع عبارات بصوت صارم قاطع، تلاه صوت أحد رؤساء الأوراش يترجم عبارات المدير العام إلى عربية ركيكة. لحد الآن لم يسمعوا شيئاً جديداً فالسيد المدير يلاحظ هبوط الإنتاج المستمر منذ شهور وتوقفه عند أدنى حد، وهو يطلب من كل من العمال أن يقول ما عنده في هذا الموضوع، أو يتقدم بمطلب إن كان له ذلك.

وساد الصمت. كأن القوم أموات. لكنهم كانوا يتنفسون دون شك ؛ يتنفسون توجساً وتربصاً وينتظرون المجهول. ومرت عينا المدير على الرؤوس والأكتاف تتفحصها من جديد. لو كان في الشرفة أو في أية نافذة أخرى مشرفة على الجمع مدفع رشاش واحد، لأسقطهم جميعاً في لحظات معدودات ؛ ولتكوّن مشهد فريد من نوعه ؛ يُذَكِّر بمجازر الفتوحات القديمة تتراكم فيه الأجساد بعضها فوق بعض ؛ ولكن القامة المديدة النحيفة ذات السيجار الغليظ، لم تسر خواطرها في هذا الاتجاه، فيما يبدو. وعاد صوت المترجم يذكّرهم بما ينتظره السيد المدير منهم وانحصر إلحاحه في أمر زاجر :

ـ أيوه، تكلموا..

ولعله انتبه إلى أنه كان أكثر انفعالاً، حينما رفس الأرض مع أمره الأخير الذي لعله لم يرِد في خطاب السيد المدير... وظلّ الصمت مخيماً.

واستأنف المترجم ملحاً على أن السيد المدير يريد أن يعرف لماذا يظل الإنتاج في هبوط ؟ وإذ لم يندّ عن القوم جواب، فقد أسهب الصوت مترجماً أن الإنتاج غير مرضي، وأن الإدارة على علم بمن يدبّرون ذلك، وقد جمعتهم اليوم في إنذار أخير للجميع وأنها لن تتهاون في تطبيق أقسى ما يجب في حق المُفسدين : الطرد والسجن. وعلى كل من أراد أن يسلم ويحتفظ برزق أبنائه أن يقدم كل ما عنده من معلومات عن المفسدين إلى الادارة. كما أن المقيم العام للحكومة بالمغرب، هو نفسه مهتم بالموضوع وسيجنّد الحكومة كلها لردع المفسدين وهم جماعة معروفة من الوطنيين والشيوعيين الخونة المجرمين !

وتوقف الصوت قليلا ؛ ولعل السيد المدير كان يعي بعض ما في كلامه من تناقض ولعله فعل ذلك عن قصد غير واضح ؛ وتفحص الجموع برهة قبل أن يتابع ويخبرهم بأن سيادة المقيم العام، باتفاق مع إدارة المعمل قد وضع رهن إشارة العمال، شخصية جاءت خصيصاً لتخدم مصالحهم، وليتقبل شكاويهم كيف ما كان نوعها ؛ وليساعدهم حتى فيما هو خارج عن شؤون المعمل من قضاياهم ومشاكلهم الشخصية، وهو ذو كلمة مسموعة في الحكومة ؛ وكلمة منه تكفي لإزالة جميع مشاكلهم مع السلطة الحاكمة... هذه الشخصية هي السيد المراقب...

وتقدم في الحين شخص قصير بدين إلى جانب المدير، وأزاح قبعته وهو يوميء بالانحناء للجموع مبتسماً. وبعد أن شكر المراقب المدير بكلمات غير مسموعة، تقدم نحو مكبر الصوت واستهل حديثه بعربية صحيحة فصيحة، كما لو كان من أبنائها الاقحاح : «باسم الله الرحمان الرحيم، والسلام على من اتبع الهدى... سادتي العمال.. !».

تبين المجهول إذن... ولكنه في الظاهر لا يبدو مرعباً، بل شخصاً عاقلا متفهماً ورحيماً. لا يحتاج إلى واسطة من ترجمان بل هو أكثر اطلاعاً على لغة هؤلاء العمال منهم. ويعرض خدمته عليهم بكرم بالغ، فهو على علم بمشاكلهم الحقيقية : صعوباتهم مع السلطة المحلية عندما يحتاجون لقضاء أمر من أمورهم، أو ما لبعضهم من منازعات في المحاكم، وصعوبات إدخال أبنائهم إلى المدارس الحكومية، والمعالجة في المستشفى، وغير ذلك. وقد جاء الرجل ليسهل عليهم كل هذه الصعاب بتدخله المباشر، وسيكون وسيط خير بينهم وبين إدارة المعمل... كما أن اتصاله المباشر بسيادة المقيم العام، الذي تفضل فكلفه بهذه المهمة الشريفة كفيل بتيسير كل الصعاب...

«... والله يوفقنا لما فيه خير البلاد والعباد، والسلام عليكم ورحمة الله».

وما كاد المراقب يتوقف، حتى لوَّح أحد العمال بورقة في يده، انتقلت بسرعة بين الأيدي لتصل في النهاية إلى يد السيد المدير الذي تهامس مع صاحبه فترة، ثم علا صوته متسائلا عن صاحبها، فرفع أحمد المزابي يده وصوته :

ـ كلنا متفقين عليها... ورقتنا كلنا.

وعاد المراقب يتهامس مع المدير الذي ما لبث أن نزع سيجاره واقترب من مكبر الصوت، وقال بعبارات صارمة ترجمها المراقب بكل أمانة مضيفاً إليها بعض لطفه :

ـ سادتي. يقول لكم السيد المدير بأن النقابة ممنوعة في المعمل، والنقابة الوحيدة القانونية والشرعية هي النقابة الفرنسوية. وعندكم حق المشاركة فيها.

وانبرى صوت عامل لعله المعطي :

ـ نقابة المغاربة لازم تكون مستقلة.

وصاح صوت من الجموع :

ـ تحيا النقابة المغربية.

كان من المنتظر أن يتبعه هدير أصوات يردد نداء التحية ولكن الصمت خيم على الجميع، وصرخ المدير في مكبر الصوت :

ـ النقابة ممنوعة.

وانصرف مغضباً دون أن ينتظر من أحد ترجمة جملته، وتبعه من كان بالشرفة. وانفض الجمع.

* * *

تدارس المجتمعون في المدرسة، ما دار في معمل السكر منذ تجمع الأحد الذي عقدته الادارة مع العمال. واستخلصوا أن وجود مراقب في المعمل، معناه وضع نشاط العمال تحت الرقابة المباشرة للإقامة العامة، وقد اتضح ذلك جلياً من نشاط المراقب من يومه الأول في مهمته، إذ بدأ يستدعي بعض العمال إلى مكتبه، ويعرض عليهم خدماته على اختلاف وضعياتهم واحداً واحداً. كما ظهر رجال من البوليس السري في زي عمال. وكان أول رد فعل من جانب الإدارة، هو طرد نواة المكتب النقابي المنتظر بالمعمل : أحمد المزابي والمعطي والجيلالي.

13

ما أن انتهوا من نشيد الخروج، حتى تلاغطوا متراكضين كأنهم ينفضون عن أنفسهم جمود ساعات الدرس، وتحلقوا حول البائعين، يتلمس بعضهم جيوبه لإخراج قروش عزيزة، ويتلمس آخرون نقط الضعف عند غيرهم لاستجلاب رضاهم، وإثارة جودهم، لمشاركتهم في تذوق ما يشترون... كانت هذه اللحظات فرصة البعض من أطفال المدرسة لممارسة العجرفة والاستعلاء ؛ وفرصة آخرين للتملق والاستجداء، بيْد أنهم اليوم سرعان ما تركوا البائعين ليتحلقوا حول بعض الأعمدة على إثر نداء ملح من رفيق لهم. وسادهم الصمت فترة، وهم يتهجّوْن الحروف بأعينهم وألسنتهم، ثم انطلقت حلوقهم تترنَّم بالعبارة المخطوطة، حسب هواهم ؛ «المغرب لا يكون حليفاً لمن ينكر حقه في الحرية والاستقلال». متسابقين إلى اكتشاف المزيد من هذه الأوراق ملصقاً بالأركان والجدران، والأعمدة وأبواب الدكاكين المغلقة. وبقدر ما ابتعد الأطفال عن مصدر خروجهم، بقدر ما تفرقوا إلى جموع صغيرة صوب منازلهم، تعلو أصوات كل منها بالعبارة السحرية الغامضة، التي غيَّرت إلى حد كبير من رتابة يومهم.

كانت إحدى هذه المجموعات الصغيرة، تتجه صوب شرق الحي، وقد فتر نشاطها عند زحام السوق على خطوات من سكة قاطرة الأحجار الصغيرة، مجموعة من ثلاثة توقفتْ تتهيأ لممارسة آخر نشاطها قبل أن تصل مساكنها، وهو التربص لعربات القاطرة، للتمسك بها بضعة أمتار ممتعة... ودون تمهيد أعلن الحمدوني لأحد رفيقيه :

ـ أنا عارف اللي كتبْ الأوراق !

ويبدو أنه كان منذ مدة يعاني من دافع ومقاومة داخليين لإعلان السر أو كتمانه، فجاء صوته غير مبين ؛ أو أن انتباه رفيقيه كان جد مركَّز، فلم يجد صاحب السر إلا أن يصرخ قبل فوات الفرصة :

ـ والله العظيم، حتى عارف مول الأوراق، نوريه لكم !

ولم يسعهما إلا أن ينتبها للهجة التحدي، فتساءلا :

ـ فين هو ؟

وبدا التردد واضحاً على صاحبهما ؛ فقال متهيباً :

ـ أنا !

بدت دعابة سخيفة منه، أثارت موجة من الضحك الساخر، وارتفع نفير القاطرة المبحوح وهي تقترب وسط الزحام من مكانهم. وأقسم الحمدوني دفاعاً عن شرفه أنه هو كاتب الأوراق، وليؤكد ذلك جذب من محفظته بضعة أوراق مماثلة مكتوبة بخطه. وبدا الاقتناع والتعجب على جلول بنصغير (ولد حدوم) وهو أجرأ الثلاثة وأوسطهم سناً فيما يبدو، وتساءل :

ـ وشكون اللي لصقها ؟

أجاب الحمدوني بسرعة واحتراز :

ـ ما نعرف !

وهل يصدقان أنه لا يعرف ؟ وتساءل إدريس بن التهامي المفضل وهو ثالثهم بمكر :

ـ وشكون اللي قالك اكتبها ؟

ـ ما نعرف !

لقد بدا صاحب السر مصراً على الإنكار حتى فيما يبدو بداهة أنه يعرفه.

ـ وعلاش كتبتها ؟

ورفع كتفيه علامة جواب غير محدد مبتعداً عنهما، حتى إذا لحقا به، وضع كل منهما ذراعه على كتفه، وساروا ثلاثتهم متراصّين كأنما نسج السر بينهم برباط وثيق.

14

سرت الحركة الوطنية في عروق الناس، وكأن هؤلاء النازحين يعوضون بما تقدمه لهم من طموح كبير، عن مطامحهم الصغيرة التي لم يبدُ أنها ستتحقّق يوماً في استرداد أراضيهم أو العودة إلى قراهم عودة شريفة، أم أنهم وعَوا أن استرداد هذه الأراضي الصغيرة، لا يتم الا باسترداد الأرض الكبيرة : الوطن ؟ لم يكن شيء من ذلك واضحاً عندهم جميعاً ؛ ولعله كان على شيء من الوضوح عند قليل منهم. فلطالما عبّر كبور عن مثل هذه الفكرة في مناسبات عدة، ولعله استلهم ذلك من سيرة ابن عمه المرحوم مع المحامي موهوب. ولكن أتراه كان مقتنعاً في أعماقه بذلك، وبسهولة تحقيقه أو إمكانه ؟ أسئلة لعلها دارت بخلده، كما لعلها دارت بأذهان غيره، ومن المرجّح أنها لم تجد جواباً حاسماً. مهما يكن، فطريقهم لاستعادة أي شيء من حقوقهم مهما كان نوعه وقيمته، وحتى تعويضهم أو تنفيسهم عن خيبتهم في مطامحهم الصغيرة، لم يكن يُرضيه إلا طموح كبير.

وبدا أن تحركاتهم في الاجتماعات السرية، وأحاديثهم حول المنشورات وتأسيس المدرسة، والحفلات المصطنعة المقصودة لغير ما هي عليه في الظاهر... كل ذلك بدا غير مريح للسلطة، ولعلَّ ما جرى من نشاط في المدة الأخيرة بمعمل السكر، وتحركات أخرى متشابهة بدأت طلائعها تطفو في معامل أخرى... كل ذلك أيضاً لم يترك باباً لمغالطة النفس عند السلطة وأعوانِها، ولقد تنبَّأ سي عبد الفتاح لرفاقه من المسؤولين عن تسيير الجماعات وتنظيمها، بأنهم سيعرضون لمثل ما تعرض له صحابة الرسول في بداية الدعوة الإسلامية. ولقد مضى على ذلك فترة تبدو طويلة، بعد أن قطع وعي الناس بالحركة الوطنية مراحل وأبعاداً. كثير منهم تنبَّأوا بعد ذلك بما يمكن أن يصيبهم من مكروه، ولكنهم الآن أصبحوا يحيونه، في أنفسهم أو في إخوانهم المطرودين من أشغالهم، وعددهم يتزايد يوماً عن يوم.

وكان من السهل على الوطنيين أن يدركوا أن العيون بدأت تترصدهم وتتابع حركاتهم، فقد انتثر الأعوان السِّريون، ونشط المقدَّمون في استعلاماتهم الرسمية وغير الرسمية. ولكنَّ مكروهاً أكبر ينتظرونه لم يحدث بعد، ولا يعرفون متى يحدث ولا كيف يكون ؟ ولعل حركات الترصد والتتبع من لدن أعوان السلطة كانت تثير في بعض حديثي العهد بالانخراط في الحركة الوطنية بعض اعتزاز وافتخار ؛ فلقد أصبحوا من الأهمية بحيث يُزعجون وتُرْصد حركاتهم ؛ وكان بعض هؤلاء يردّ على ذلك ردّاً ساذجاً بسيطاً، لعله يضاعف من نشوتهم. فإذا ما مر المقدم على دكان المعلم حمو النجار، وتلكّأ متظاهراً بأن ذَرَّة تراب أو حصاة تسربت داخل بلغته، ودعته إلى أن يتوقف مؤقتاً على رجل واحدة، ريثما يُزيل ما بداخل فردة الرجل الأخرى، منتهزاً هذه الفرصة، ليرمي بنظرة ثاقبة إلى داخل الدكان متفحصاً ما يضمُّه من أخشاب، وما يمكن أن يكون قابعاً بينها من أشخاص، مصيخاً بسمعه إلى ما يمكن أن يدور من حديث... إذا ما حدث مثل هذا المشهد فإن حمو النجار، كان يوقف منشاره أو مطرقته، ويتوقف ليفتل شاربيه الطويلين الكثّين اللذين ينحنيان بقوة، فيغطّيان شفتين دقيقتين لا تظهر معالمهما إلا عند الحديث، ثم يجْهر المعلم بكل ما أعطاه الله من قوة الصوت، ليردِّد عبارات سمعها كثيراً أو حفظها، لا يميز إن كانت حديثاً نبوياً أو قرآنا أو شعراً أو مجرد كلام عادي :

- ولا يُفلح الساحر حيث أتى... !

وأحياناً يأخذ مطرقته ومسماره ويضربه في الخشب بعنف، كأنه يخطب في الكون كله :

- «هاك هاك. والله يجعله في قلب من عاداك».

وأحياناً يكتفي بترديد كلمة واحدة لا معنى لها عنده ولا عند غيره، إلا أنه يحاول بتنغيمه وقوة صوته أن يهبها معنى خاصاً :

- «والذين ؟!».

فإذا ما صادف الموقف أن كان عنده في تلك اللحظة شخص، وغالباً ما

يكون من رفاقه في الحركة المبتدئين مثله، تظاهر بأنه يوجه إليه الخطاب بقوله :

ـ اش قالوا اليوم ؟

وقد يجيب جليسه أو لا يجيب، أما هو فيرفع صوته بما يحضر ذهنه من كلام غامض، أو ما يبتكره من ألغاز تثير في نفسه بلا ريب نشوة عظمى :

ـ «ما في الهم غير اللي يفهم».

كانت سيرته هذه، على ما تبدو عليه من صبيانية، طابعاً مميزاً لمزاجه الرائق الذي لا يبدو أن شيئاً يمكن أن يكدره.

ولعل «حادث المائدة» كان أوضح ما يمكن أن يدل على مزاج المعلم حمو النجار. فقد ظل الناس يتذكرونه ويتفهكون به، وظل حمو يحكيه ويعيده دون ملل كلما وجد مستمعاً. حدث ذلك عندما اعتقد أحد المتعاونين السريين، أنه من الذكاء بحيث يمكنه أن يسلك سبيلا محققاً للتجسس على نشاط المعلم حمو، فتقدم إلى دكانه طالباً منه أن يصنع له مائدة.

وبعد المساومة والاتفاق. وبعد ما تخلل ذلك من غمْز ولمْز من جانب المعلم حمو، تحمَّله المتعاون الزبون على أنه من خصائص المزاج الرائق أو ضريبة العمل ؛ بدأتْ المماطلات والتسويفات في الإنجاز، بيْد أن ذلك لم يكن مزعجاً للزبون فيما يبدو، فلم يستعجل، بل لعله وجد في التماطل مقصوده ومراده لأنه هيأ له ذريعة لإطالة الجلوس أمام دكان المعلم، مما يسهل مهمته في المراقبة والتجسس، وحينئذ اضطر المعلم حمو إلى تغيير الخطة... وما كاد الزبون يقف عليه ذات صباح حتى قدم له المائدة ناصعة مستديرة سوية، كأنما صنعتها له الجن ليلا... ولم تمض ساعة، حتى عاد الزبون يهدر غاضباً وقد اكتشف أن إحدى الأرجل الثلاثة للمائدة أقصر من أختيها بشكل يجعلها مائلة جداً على الدوام :

ـ هذي مائدة هذي ؟!

ورد المعلم حمو بهدوء :

ـ وما لها ؟

ـ شف رجلها !

وتفحص المعلم حمو أرجل المائدة بعناية ورزانة ظاهرة الافتعال، ثم أطلق رميته وهو يرنو إلى رجْل الزبون، فقد كانت تشكو من عدم استواء.

وقال بلهجة حكيم عاقل :

ـ سبحان الله. الحاجة اللي ما تشبه مولاها حرام. رجلها ورجلك واحدة !

وهنا ارتمى الزبون ممسكاً بخناق النجار وبدآ يتبادلان اللكمات حتى فرق بينهما الناس، وصوت المعلم حمو يعلو فوق المعركة بما يوافق مزاجه وما يبتكره خياله، وكأنه لا يفهم تناقض صاحبه في تقبل العرج في نفسه واستنكاره له في مائدته !

* * *

فيما عدا أمثال هذه التتبعات من الأعوان والمتعاملين مع السلطة، وفيما عدا الطرد المستمر لبعض العمال من الذين يتحملون مسؤولية التنظيم النقابي أو يُتهمون بذلك في مختلف المعامل ؛ فيما عدا ذلك كان كل شيء عادياً، والمكروه الأكبر المجهول لم يحدث بعد... وحتى عملية التسجيل، بدت عادية تدخل في الرتابة المعتادة لما تمارسه السلطة من أعمال إدارية ومراقبة للسكان : ذلك أن المقدمين والشيوخ والأعوان، تجندوا في حركة عامة لتسجيل سكان الكاريان سنطرال، وإحصاء نزلاء البراريك الذين لم يكونوا يُسهِّلون هذه المهمة على أصحابها، نظراً لما أشيع سراً في الناس من طرف معارضي السلطة، من أن المقصود بالعملية هو رفع المبلغ الشهري الذي يؤديه الناس للسلطة، مقابل وضع براريكهم في البقعة الأرضية التي هم عليها.

قال المعلم حمو لأحدهم، وهو في الواقع يحاول أن يختبر مبلغ ما أثمره عمله في نشر الإشاعة بين الناس، في المنطقة التي حُددت له :

ـ الزيادة خير ياسي المفضل !

كان بادي التهكم ورد عليه الرجل غاضباً :

ـ يزيد في عذاب بوهم. باركين بلا خدمة، وساكنين في الخنز والزبل والزيادة من الفوق ! والله ما يشدوها من عندي أنا.

ـ اش بيدنا يا أخي ؟

ـ إلى كنا رجال. والله ما ياخدوها منا.

ـ ايوه. كونوا رجال.

بذلك أنهى المعلم حمو حديثه مع صاحبه وهو يغمزه بطرف عينه مؤكداً ما قاله بلسانه...

بيْد أن ذلك التهيؤ كان سابقاً لأوانه، أو في غير الاتجاه الضروري. فقد تبيَّن المقصود من عملية التسجيل بطريق غير مباشر ولكنه مؤكد. وذلك حين أقبل أحمد المزابي على اجتماع المدرسة، ومعه شخص قدَّمه على أنه جار له يسمى بوشعيب العبدي، وهو مخزني بمقاطعة الحي ؛ وكان يرتدي جلابة تخفي لباسه الرسمي. وقال المزابي لرفاقه كأنما يشير إلى أهمية ما جاء به :

ـ اللعبة بانت.

وبين اندهاش رفاقه وتساؤلهم، التفت إلى بوشعيب مخاطباً :

ـ احك ما عندك ؟

وسرد الرجل ما علمه مما تدبره السلطة : فقد اجتمع المقيم العام والباشا والخليفة، في مكتب المقاطعة وتدارسوا مشروعاً يتعلق بالكريان وسكانه، يتلخص في ضرورة تشتيت هذه الطبقة قبل أن تكتمل قوتها، وتكتسحها الوطنية ؛ وذلك بترحيل الكريان وتوزيعه إلى أجزاء صغيرة علي نواحي متنائية في ضواحي المدينة، فجزء يرمي به إلى ناحية العنق واخر إلى سيدي مومن وثالث... ورابع... وخامس... و... !

إذن كانت الخطة أبعد مدى وأعمق مما قدر الوطنيون، وردد سي عبد الفتاح :

ـ ها... وصلنا لفرّق تسدْ !

وتساءل المعطي : ما العمل ؟ كان نفس السؤال يتردد في أذهانهم. إذا نجحت خطة الحكومة في تشتيت الحي فمعناه ضياع كل ما بذل من جهود. ومن يدري ماذا يمكن أن يُعَدّ بعد ذلك من خطط. ولكن ما العمل ووسائلهم لرد الفعل جد محدودة ؟ ولئن كانوا يضمنون وحدة أفرادهم وجماعاتهم فكيف يضمنون وحدة عشرات الآلاف من سكان البراريك ؟ وكيف تبلغ أصواتهم أعماق كل قلب وتترسخ فيه ؟

ـ المنشورات ؟!

كانت سلاحَهم حقاً... جربوه مراراً في نشر أفكارهم وإذاعتها بين السكان، فكانت عبارات الملصقات تنقل محرَّفة وسليمة إلى الناس، وتتحول معانيها وعباراتها إلى أناشيد يرددها الصغار والكبار، قبل أن تعبث بها أيدي أعوان السلطة وتتمزقها... لكنها كلام وأفكار، المطلوب اليوم : خط عمل.

* * *

لو أمكن أن يقف الناس بحركة سحرية. صفاً واحداً ضد حركة الترحيل، لكان ذلك أقوى ما يمكن أن يتمنَّاه وطني. ولكن من يستطيع أن يقف في وجه قوة طاغية عندما تتصدى لبراكة تحملها عنوة على عربة (كارو) يجرها جواد أو اثنان ؟ وكيف ؟ ولا يدري أحد على أي ركن من أركان الكريان الفسيح سيقع الاختيار لبدء عملية الترحيل. وحتى على فرض أن الناس اتحدوا وقاوموا العملية ؛ فماذا لو ألقت السلطة القبض على بعض المتعنتين، ألا يستسلم بعد ذلك ما عداهم ؟ الموقف جد معقد. وتوالت اجتماعات الوطنيين وطالت، قبل أن تُظهر السلطة مشروعها رسمياً بعد شهور من التسجيل. ولعلهم تمنَّوا خلال الانتظار الطويل لو تَعْدِل السلطة عن مشروعها لتجنبهم تعقيدات الموقف. كأنهم أصبحوا يفضلون كل مشاريع التنكيل عدا مشروع الترحيل الجهنمي. ولكن إذا لم تعْدِل السلطة عن مشروعها وهو المحتمل فما العمل ؟ المؤكد لديهم أن كل سكان الكريان بدون استثناء ؛ يكرهون أن يشرَّدوا بطريقة الترحيل، وهذا ما يمكن أن يرتكزوا عليه كقاعدة في تخطيطهم... وانتهى الانتظار وخرج

مشروع الحكومة رسمياً وإلى الوجود، على أفواه «البراحين» يتنادون به في الأزقة.

ـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله... ما تسمعوا الا خير... بأمر المخزن، يكون في علمكم بأن الرحيل يبدأ يوم الأحد في الصباح بحول الله وقوته...».

* * *

لا يدري المرء مصدر هذه الأسماء التي تحملها أجزاء الحي، وإذا كان من الممكن أن يُتنبَّأ ببعضها فهو عاجز عن حل ألغاز بعضها، وكيف علِقَتْ بأماكنها... كانت خطة الترحيل لا تهدف إلى أن ينفصل كل جزء من الكاريان عن باقي أجزائه في ناحية من أطراف المدينة فحسب، بل إلى أن ينفصل الجيران عن بعضهم أيضاً لتركيب الأحياء المتولدة عن الترحيل تركيباً جديداً. أما المغريات التي بدت تتردد لتشجيع الناس على قبول الترحيل فهي إعفاؤهم من أجرة عربات (الكارو) التي ستنقل البراريك، بالإضافة إلى وعد بأن تكون الرقعة المخصصة لكل مسكن ضعف ما عنده في الوقت الحاضر، أما التبرير الذي كان يصب في الأذن، فهو أن الحي قد اتسع اتساعاً هائلا واكتظ بسكانه ؛ بالإضافة إلى ضيق أزقته ووقوعه في منطقة المعامل التي تتسع حوله وستلتهمه والتي يعوق هو بدوره توسيعها وتكثير عددها... وتكررت نداءات البراحين في أرجاء الحي داعية الناس إلى الاستعداد للرحيل بعد أسبوع، وكان مما أزعج الناس أن أي واحد لم يعرف أي ناحية سيرمى به إليها، لأن ذلك لن يعرف إلا مع الرحيل...

وتوقف العامل حمو النجار عن عمله بعد أن طلى بعض الموائد وتركها تجف بمواجهة أشعة الشمس ؛ واتجه إلى دكان البقال المقابل له، حيث بعض جلسائه يتحدثون في موضوع، فهجم على الموضوع بطريقته الخاصة قبل أن يسلم :

ـ ما لكم على هذا الغوات... الله في كل موضع، والرزق تابع الخلق.. !

كان بالطبع يعني أن عملية الترحيل يجب ألا تثير هذه الضجة. ورد أحد الجلساء في شيء من الجفاء والغلظة :

ـ انتما الصنايعية والبياعة الشراية ما عندكم علاش تخافو، كل واحد منكم رزيقه معه، واحنا مساكين الخدامة كيفاش الواحد يخدم في عين السبع ويسكن في العنق ؟!

وأشرقت أسارير (المعلم حمو) لِما سمع، أو لعله يتظاهر بذلك إمعانا في خطته لإثارة الناس بطريقة غير مباشرة كما يقضي بذلك دوره :

ـ عندك الحق، أحنا الصنايعية ما عندنا ما يضرنا. المطيرقة والمنشار هما هما فين ما كانوا.

ورد سي احمادو البقال بلكنة سوسية ظاهرة وهو يرمي لمثل ما يرمي إليه المعلم حمو :

ـ اش هذا الكلام آ المعلم. علاه أحنا ما عندنا جيران ؟ ما عندنا أصحابنا اللي عرفناهم وعرفونا وتصارفنا معهم سنين وسنين... علاش يفرقونا وكل واحد يلوحوه في قنت ؟!

وظهرت علامات الاقتناع والأسى في نفس الوقت على المعلم حمو، وهو يذكر بالفعل أنه مهدد بمفارقة أعز جيرانه، وأن له ديوناً على بعض زبنائه، ستضيع حتماً بعملية الترحيل. وأكد سي أحمادوا مثل ذلك وهو يستخلص :

ـ كلنا في هم واحد.

وكرر المعلم نفس الجملة، ولكنه لم يتوقف بل ظهر كالمتردد في أن يتم أفكاره، وألح عليه سي احمادو في أن يقول كل ما عنده :

ـ تكلم. قلنا لك كلنا في هم واحد.

ولكن المعلم حمو ظل متردداً كالمتشكك في الحاضرين وردّ كاليائس العليم بخبايا الأمور :

ـ السكوت أحسن، خليني عليك...

ولكن سي أحمادو يرجوه أن يتكلم في لهجة من نفد صبره ويدعو الحاضرين إلى مساندته في ذلك، وأخيراً يتحدث المعلم حمو تحت إلحاح الجميع فيبدأ بقوله :

ـ السلام عليكم بعد... !

كأنها دين عليه يؤديه الآن، بعد أن لم يؤده في حينه، أو هو يهيؤهم بذلك لأهمية ما سيقول، وكأنه في بداية لقائه بهم ويسألهم :

ـ وش عارفين بعد أش كاين ورا الرحيل ؟

ويرددون بالنفي، فيحرك المعلم حمو رأسه علامة التهويل ويزم شفتيه، ويمطهما بشكل يجعلهما بارزتين جداً تحت شاربه الكث كأنه يتجرع مرارة ما سيقول ؛ ويُنهي إليهم أن عملية الترحيل والتشتيت، ما هي إلا بداية لمرحلة ستليها، وهي إرجاع كل سكان الكريان إلى قراهم وبواديهم التي جاءوا منها في الأصل، ليعملوا في ضيعات «المعمرين» أما الأبناء فإلى الجندية.

وعلى الفور رد أحد الحاضرين :

ـ يرجعونا للعروبية هي يدفعونا للحبس... القائد والحاكم يستنوا فيا.

واستأنف المعلم حمو متسائلا : لو لم يكن كلامه صحيحاً فلماذا لم يفكروا في ترحيل الحي منذ سنوات ؟ ولماذا يصرون على تشتيته بدل نقله كله إلى ناحية واحدة ؟...

كان يتساءل ويجيب بلهجة الخبير المطلع، وإذا كانت عملية الترحيل ترمي إلى بعض ما ذهب إليه، فإن بعضه الآخر كان من بنات خياله، ولكن أهم ما يجب، هو أن يقوم بدوره كما يقوم به أمثاله في كل أرجاء الحي، لتوحيد الناس حول الشعور بالخطر وينهي حديثه بتواضع :

ـ وهذا ما كان.

ويعلق سي احمادو بغيظ :

ـ ويلي عليك ياقلة الرجال ؟

ويرد عليه أحد الحاضرين :

ـ الرجال موجودين، لكن خصهم ما يعملوا.

ويعود تردد المعلم حمو في الإخبار، وإلحاحُ سي أحمادو والحاضرين، ولكنه هذه المرة لا يخبرهم بما عنده، وإنما يطلب منهم أن يشرحوا حقيقة الأمور للناس وينتظروا، وإذا كانوا رجالا حقا فليتبعوا ما تفعله الرجال.

* * *

مر الأسبوع السابق لبداية الترحيل سريعاً حافلا بالنشاط من جانب السلطة ومن جانب أفراد الحي... وأقبل يوم الأحد المنتظر، ودب ليله بطيئاً على عيون لم تعرف فيه نوماً، وبدأت أشعة نوره تخالط الكون، فظهرت مع تباشيرها الأولى عربات (الكارو) مصطفة جاهزة، ربطت إليها خيول في مثل هزال أصحابها، أنعشتها بعض الشيء راحة الليل في انتظار تعب النهار... وبدأت خلائق الكريان تدب في نشاط غريب متقاطر من كل فج في اتجاه واحد، كما لو كانت تنصرف إلى حي المعامل في يوم من أيامها المعتادة، بيْدَ أنها ما كانت تتجاوز أطراف الكريان، حتى تنحرف يميناً نحو أقصى بقعة شمال المباني المتواضعة، حيث يمتد فضاء فسيح خلقت منه همة رجال الحي ملعباً لفرقة كرة القدم التي نظموها منذ تأسيس المدرسة... وقد روَّج الرجال في الحي بكامله منذ الليلة السابقة دعوة لمباراة مبكرة، ستجريها فرقة الحي مع فرقة مدعوة تكون فرصة يشجع فيها سكان الحي لآخر مرة فرقتهم، ويودعونها كما يودّع بعضهم بعضاً قبل الافتراق والتشتت... ولن يؤخر ذلك بداية الترحيل فلن يرتفع الضحى حتى تكون المباراة قد انتهت، ويبدأ كل شيء كما تريده الحكومة. أوَ ليس هذا أقل حق من حقوقهم ؟ ولم يكن أحد يشك في أن خبر هذه العملية قد تسرب إلى السلطة، بل لعل الرجال عملوا بكل الوسائل ليبلغها الخبر بمنتهى الأمانة وحسن النية. ولم يكن أحد يشك في أن السلطة لن تعترض في تأخير عملية الترحيل ساعة أو ساعتين بعد أوانها، لو اقتضى الحال ذلك، تلبية لرغبة السكان في عملية ستطول شهوراً فالسلطة تتوفر على مشاعر إنسانية في مثل هذه المواطن : ألا يسمحون

للمحكوم عليه بالإعدام أن يعرب عن آخر رغباته فيلبونها ؟ وهم لن يودعوا فرقتهم الرياضية فحسب، بل يودعون مدرستهم أيضاً ويودعون معها أحلاماً كثيرة، فلا أقل من أن يفترق تلاميذها على أنغام نشيد الوداع «ان كان في اللقاء رجاء» !

كل ذلك مقبول مبدئياً، ومعقول ؛ وكل ذلك وجب أن يبدأ باكراً قبل ارتفاع الضحى، قبل أن تعمل أول مفكَّة أو مطرقة في فصل البراريك، وتمتد الأذرع لحملها على إحدى عربات (الكارو) مكبرة مصلية على النبي الكريم.. وهيأ الرجال كل شيء لتمر الأمور في طريقها المرسوم... حتى السكان الذين أعْلِموا بأنهم أول من ستبدأ بهم العملية، جاء مَنْ ساعدهم ليلا على لمِّ أمتعتهم المتواضعة، ليتركوها جاهزة للرحيل عندما ينصرفون للملعب، حتى إذا عادوا لم يضيّعوا وقتاً... ولقد شُحنت أذهان الناس، بحيث بدا حضور الملعب واجباً مقدساً يستعدون له كيوم الحشر... وهكذا بدا الكريان صباح الأحد لِمنْ يمكن أن يجوس خلال أزقته كأنه بين مقبرة... حتى جداول الماء الآسن المتعرجة خلال الأزقة بدت جافة، كما انقطعت منابعها. وعربات الكارو وحدها واقفة متراصة، وقد طلع النهار وبدأت حرارته ترتفع، فبدأ الملل يداعب خيولها وسائقيها، ووقف بقربها في مناطق الظل المقدمون والأعوان الحكوميون، في انتظار عودة الناس لبدء الرحيل... ولو أشرف على الملعب ناظر في هذه اللحظة من ارتفاع النهار، لبدت له آلاف الخلائق متراصة، محيطة بأرض ملعب ناصع التربة، وقد توسطه تلاميذ المدرسة مصطفين يترنمون بنشيد «الترحيب»، وتحية العلم، ثم جاءت لحظة إفراغ الملعب إلا من أفراد الفريق الرياضي لكن الملعب لم يُخْلَ... وإنما ارتفع صوت في أحد أركانه، من المؤكد أن النائين من الناس لم يتبينوا كلماته، ولكنه جذبهم، وبدأت أرضية الملعب تمتلئ بالناس الذين تزحزحوا تلقائياً أو بقوة دافع نحو مصدر الصوت، حتى غطيت بهم أرض الملعب واكتظت بالخلائق... وكان سي عبد الفتاح فوق كومة أحجار رصت كمنبر، وهو يُعيد للمرة الرابعة جملته الأولى بكثير من التأني :

«إخواني الكريانيين... هذي مناسبة عظيمة...» ومع غاية ما بذل من جهد فإن صوته كان مبحوحاً، لكن أصحابه كانوا منبثّين بين الناس يبلغون ويشرحون ما يقال...

«اخواني... هذا يوم الوداع ولكنه يوم كبير عندنا...».

مازال يتلمس طريقه إلى الحديث وآثار تعب بادية عليه، ومعطفه الثقيل رغم الحر، يضاعف من كآبته وظل يتساءل في مقدمته : من هم المجتمعون هنا ؟ من أنتم ؟ طريقته المعهودة أن يبدأ من أبسط سؤال متدرجاً إلى ما يُريد. يسأل نفسه. ويجيب بنفسه.

«كل واحد منكم يمكن له يسأل نفسه، ويعطي الجواب بنفسه في نفسه... كل واحد منكم يسرح نظره، ويشوف كيف كان في الماضي ؛ وكيف والديكم كانوا، كل واحد يشوف الماضي والحاضر، ويسأل نفسه على المستقبل ؛ مستقبله هو، ومستقبل أولاده ؟».

هل سبق أن حاسب أحد منهم نفسه هذا الحساب بمثل هذا السؤال في الماضي والحاضر والمستقبل ؟ ماضيهم مشترك، كلهم أبناء أرض سُلبت منهم بطرق مختلفة، كل منهم رمى به إلى الحاضر يأس وأمل في أن تلتفت إليه عدالة الأرض أو السماء يوماً ما، أو في ألا يرى تربة أجداده إلى الأبد...

وارتفع صوت سي عبد الفتاح قوياً بعد لحظة توقف استجمع فيها أنفاسه وخيوط استنتاجه :

ـ كونوا على يقين، بأن حتى واحد منكم ما يرجع لبلده وأرضه، وكونوا على يقين بأن حتى واحد منكم ما يربح قضيته في المحاكم... هذي الحيَل كلها الحكام عملوها حتى يجلبوا بها الناس للمعامل، ويتخلوا على بلادهم بالخاطر أو بالقوة، وهذا الشيء معروف...».

لعل كثيراً منهم كان يتابع حياته عبر الخطاب، وكانوا صورة طبق الأصل لما يسمعون : أبناؤهم مشردون غرباء وهم في حياة قذارة وجوع ونتن، أي مستقبل لهم إذن أو حاضر ؟

«... الطريق قدامنا أيها الإخوان طريق واحد، هو تحرير بلادنا كلها... وطننا كله... مغربنا... من الاستعمار... وفي ذاك الوقت، يمكن للواحد منا، يرجع لأرضه ولكن بالعز والكرامة، أو يبقى في المعمل ولكن بالعز والكرامة...

وتابعوا معه حاضر العبودية، وقارنوا بين أجورهم الهزيلة وبين أجور الأوروبيين في المعامل، ومقدار ما يشقون وراء الفرنك والقرش، وما ينعم به أولئك من راحة الإشراف، وتذكروا التضحيات التي قدموها في سبيل تحرير فرنسا وإقامة عالم حر... فما ثمن كل ذلك ؟ وأين الوعود ! والعهود ؟

- «كلنا أحبابنا ماتوا لنا في الحرب، ودفعنا زرعنا ودجاجنا وبهايمنا... خيرات بلادنا كلها، دفعناها مع أولادنا وأهلنا الأعزاز علينا، في سبيل حرية فرنسا، واليوم جزاء فرنسا لنا هو الخنز والجوع والمرض... جزاء فرنسا لنا هو تفرقنا وتشتتنا...».

ووجدت العبارات طريقها إلى لسانه فما عاد يتوقف أو يستجمع أنفاسه، وإنما انطلق يعرض عليهم صور حياة شعب بكامله، يعيش تحت سطوة الظلم والعدوان في الصحارى والجبال في المدن والقرى، ويعرض عليهم صوراً من حياة المجاهدين في هذا الشعب، وفي شعوب أخرى عربية مسلمة ؛ ناضلتْ، ونالت حقها، وفي شعوب أخرى غير مسلمة ولا عربية ناضلت ونالت أيضاً... وأخيراً فرنسا مع عظمتها وقوتها الاستعمارية ألم تسلك طريق النضال لطرد المستعمر المنتصر ؟ وهو نفس الطريق الذي اختاره مجاهدون مغاربة وشهداء، وهو الطريق الذي يجب أن تسلكه هذه الخلائق مع ملايين من شعب هذا الوطن.. وانبسطت أمام الجموع صفحات أخرى من مستقبل لا زال في طي الغيب : سيقولون عنهم جميعاً، إنهم سياسيون، وطنيون، شيوعيون، مفسدون. وسيُطردون كما طرد غيرهم من المعامل أو يُرمون في السجون... ولكن هل يختلف هذا في شيء عما فعله الألمان بفرنسا ؟ ومع ذلك ظل أبناؤها الأحرار يدافعون عنها بكل الوسائل حتى تحررت...

- «المهم في كل هذا هو اتحادنا جميعا... وهو صبر الرجال الأحرار»...

واهتزت من أعماق التجمع أصوات التلاميذ بنشيد الاتحاد لتلتحم بها أصوات الجماهير شيئاً فشيئاً... وما إن انتهى النشيد حتى اعتلى كبور مكان سي عبد الفتاح، وجاءت عباراته قصيرة متقطعة حازمة :

- «اخواني سمعنا الآن وعرفنا المقصود بهذا الرحيل والواجب علينا العمل... اللي منكم خدامة في المعامل، راهم عرفوا قيمة الاتحاد وجربوه، كثير منهم كانوا فكروا في الإضراب وقلنا لهم : مازال وقت الإضراب ما وصل، أما الآن فهذا هو وقت الإضراب... إما يبقى الكريان في موضعه وإلا ما عندنا غير الإضراب العام من الآن... باقية لي كلمة واحدة نقولها لكم وهي أن الاستعمار خايف منا، خايف من اتحاد هذى الجماهير العريانة المطرودة من أرضها... وترحيل الكريان وتشتيته ما هو إلا دليل على هذا الخوف، ومعنى هذا أننا قوة كبيرة بالاتحاد، والإضراب من اليوم هو علامة الاتحاد...».

وقاطعته تصفيقات وزغاريد ليعود بهدوء قائلا :

- «ومعنا في هذا الاجتماع العظيم، ممثلين من جميع المعامل، كلهم متفقين معنا على الخطة وهي : حتى براكة ما تزعزع من موضعها».

وتتابع بالفعل ممثلو معامل السردين، والسكك الحديدية والكهرباء والأخشاب والميناء... وانتقلت الحماسة إلى أرباب الدكاكين... حقا لقد هيأ الرجال كل شيء ونجحوا فيما هيأوا... فمثل هذا الجمع هو الذي كان كفيلا بتبليغ مبادئ الوطنيين مباشرة إلى كل قلب وإلى هنا يكونون قد نجحوا ؛ ولكن ماذا بيدهم إذا ما أقدمت السلطة على استعمال القوة وهو الاحتمال القوي ؟

وكان لابد من عمل شيء لتبليغ قرار الجمع إلى السلطة، وهنا تقدم اقتراح نال الموافقة ؛ وتكونت على إثره وفود أحدها للاتصال بالمقيم العام، والثاني للاتصال بباشا المدينة، والثالث بالخليفة والحاكم في المقاطعة ؛

لشرح مطلب السكان. وانصرفت الوفود إلى أداء واجبها تحت حماسة الأناشيد الوطنية، وزغاريد النساء ؛ وبدأت المباراة الرياضية، وتحلقت الجماهير حول الملعب متفرجة أو على الأصح معتصمة في انتظار عودة الوفود... ولم يطل انتظار وفد المقاطعة لقربها، وكان على رأسه المعطي، وكان الجواب أن الخليفة والحاكم، لا يمكن أن يفعلا شيئاً قبل صدور أمر من المقيم العام...

وحلَّت ظهيرة ساخنة، وقد انتهت المباراة منذ ساعات، وأصبح الأطفال وحدهم يملؤون أركان الملعب، في لعب لا يتقيد بقانون، بينما تحلقتْ الخلائق جموعاً صغيرة وكبيرة، تستمع إلى التوجيهات أو تتدارس الموقف... الكل ينتظر عودة الوفدين بجواب... وقبيل العصر، عاد الوفد المبعوث للباشا حاملا رفضه لمقابلتهم، بعد أن تركهم ينتظرون ساعات وبعد أن أخذ هويات أعضاء الوفد : أحمد المزابي، وعلى الجليد، والفقيه سي الحمداوي وبقى كل شيء معلقاً على عودة وفد المقيم العام... ولم يبدُ أن جموع المعتصمين كانت بحاجة إلى جهد ما، لتمارس صوماً إجبارياً هذا اليوم، فبطونها لم تمتلىء قط بغير الحثالة والقناعة، إن قُدر لها أن تمتليء، وفيما عدا سطول الماء التي كانت تطوف بين الناس للشرب لم يتبلغْ أحد منهم بشيء، حتى الأطفال بدوا في عناد لم يكفوا معه عن العبث والجري في حرية، لعلهم لم يجدوا لها مثل هذا المذاق قبل اليوم...

وبدأت حرارة اليوم تخف. أشرف اليوم على الغروب، وقد تدلت أعناق الخيل أمام عربات الكارو الرابضة في أماكنها، بينما تتابعتْ جموع الملعب عائدة إلى مساكنها عازمة على العودة منذ صباح الغد للاعتصام في فضاء الملعب، إن لم يعد الوفد بجواب في صالحهم.

وبات السكان ليلة قلقة مُتعبة ساهرة، كان الرجال المسؤولون عن تنظيم النضال يطوفون على الأزقة ناقلين الأخبار والتعليمات وقبيل منتصف الليل، سرى بين الناس خبر حجز الوفد المنتظر : لا عودة ولا جواب... ولم تمض ساعة حتى علموا أنهم محاصرون وأن قوات الشرطة والجنود المسلحة تحيط بالحي بكامله... وهذا ما تأكدوا منه في الصباح.

فالحي مُطوّق ولم يعد إلا منفذ واحد يؤدى صوب المعامل، وقد وقفت قوات الجنود صفين متقابلين على طول ميلين من جانب طريق أفسحته حيث يمر العمال والعاملات بين صفي الجنود والسلاح، إلى آخر مفترق الطرق المؤدي مباشرة إلى حي المعامل المتناثرة. هكذا لم يكن من منفذ لطريق الملعب، ولا للإضراب إلا بالاعتصام في الأكواخ... بيد أن أغلب الناس أطاعوا التعليمات السرية التي تأمرهم بأن يسلكوا طريق المعامل... وما كانوا يتجاوزون نهاية صفي الجنود، وما تكاد تستلمهم مفترقات الطرق نحو المعامل المختلفة، حتى كانوا يجدون من يوجههم وجهة أخرى، ويهمس لهم : المقبرة... المقبرة...

وارتفع الضحى في المقبرة وهي في بقعة نائية بين المدينة الأهلية وحي الكاريان سنطرال شرقاً، وقد ازدحمت مملكة الأموات بالأحياء من الخلائق التي سلكت طرقاً ملتوية للوصول إليها. يوم آخر من أيام الصوم الإجباري ؛ ولكن مملكة الأموات كانت أكثر رحمة. فزوارها من المرافقين للجنائز أو غيرهم كانوا يحملون الصدقات من التمر والتين المجفف، والسقاؤون يجوبون أركانها بقرب الماء، وبعض الأعشاب والأشجار الطفيلية طالت حول القبور وكونت في بعض أرجائها شبه ظل... ووردت الأخبار : لا جديد ! فالوفد مازال محجوزاً والسلطة قد جُنَّ جنونها لما حدث بعدما كانت متأكدة من إجبار الناس على العمل داخل المعامل... ولأول مرة في تاريخ كثير من المعامل أتيح لرؤساء الأوراش الأوروبيين، فرصة للتأمل في هدوء لا يكدره ضجيج الآلات والمحركات في المعامل. ولم يكد النهار ينتصف، حتى جاءت قوات الكوم واللفيف الأجنبي المسلحة، وتراصت فوق سور المقبرة القصير المحيط بها، مُشْرَعَة بنادقها ورشاشاتها نحو الخلائق المتجمعة ؛ وظهر فوق السور عند مدخل المقبرة شبح الباشا، بجثته العظيمة وجلابته المخططة، وطربوشه ليعلن بمكبر الصوت :

«اخرجوا وسيروا لخدمتكم، سي المقيم العام أمركم بالرجوع... وكل من خرج ورجع على خاطره، حتى حاجة ما تمسه...».

وتوقف الباشا في انتظار النتيجة، وتناهى إليه صوت من بين الجموع :

ـ «ما عندنا خدمة، ما عندنا براريك خذوا كل شيء...» وتبعه آخر :

ـ «ما خارجين ما راجعين».

ـ «اطلقوا لنا أصحابنا».

وتعالى هتاف الجموع المتناثرة بغير انتظام بين القبور في أرجاء فسيحة. لعل موقفها بَدَا لَهُ لهْواً ولعباً. عرايا وجياع... نساء يحملن أطفالهن على ظهورهن، وصبيان وحمقَى معتوهون، يحلمون بأن يقلبوا العالم رأساً على عقب... وعاد صوته من جديد خلال مكبر الصوت :

ـ اخرجوا أحسن لكم... وإلا ذنوبكم وذنوب أولادكم على رؤوسكم.

وتعالى هتاف : «الله أكبر.. عاش الوطن..»

وتصفح الباشا الجموع من جديد، وفي الحين لعْلع في الفضاء صفير غريب، رصاصة أولى تلتْها أخريات وارتفع من بين الجموع أصوات.

ـ نعسوا نعسو، الأرض، الأرض...

وتكومتْ الأجساد فوق بعضها بين القبور. وعلا صوت «الله يرحم الشهداء...» وقد بدأتْ ثلة جنود تتقدم بين الأجساد المكوَّمة، تدقها بأعقاب البنادق، وتجرها جراً، وارتفع صوت الباشا آمرا الناس بالوقوف من خلال مكبّر الصوت. وحينما هرع بعض الناس إلى عدة جوانب من السور لاختراقه، كان الرصاص وأعقاب البنادق لهم بالمرصاد... ولم تمض ساعة، حتى كان الناس يتقدمون نحو باب المقبرة واحداً واحداً، يمرون أمام صفوف الجنود المتراصة، معرضين لأعقاب البنادق، تصيب منهم من تشاء حيث تشاء، بينما وقف الأعوان بجانب الباب، يشيرون إلى بعض من يخرج :

ـ هذا... هذي...

وسرعان ما تختطفه أيدي الجنود، وتضعه جانباً تحت الحراسة. وارتفع

ظهر اليوم على خلائق الكريان، تسير أسراباً من النساء والرجال والأطفال، عائدة إلى حيها مطأطأة الرؤوس، بين صفوف القوات المتراصة، تضمِّد جراحها... وأقبل مساء كئيب حزين، جاست خلاله أحذية الجنود والشرطة صحبة الأعوان باحثة عن «عناصر الشغب»، ممن لم يقعوا تحت يديها بعد. وأعقبه يوم أشد كآبة، فقد طوق الحي من كل ناحية، حتى منفذ طريق المعامل أغلق، وأصبح الحي كله سجناً كبيراً لا تقدر القطط على النفاذ من حصاره. وتحرك المنادون في الأزقة أن يتقدم أهل الأموات إلى المقاطعة لدفن موتاهم. ولم يسمح لأكثر من ثلاثة أشخاص، بمرافقة الجنازة الواحدة. وكان الشهداء قرابة العشرة عدا المجروحين... ودام الحصار أربعة أيام قبل أن يُخلى طريق المعامل لأصحابه، دون أن تتزحزح القوات عن أماكنها.

* * *

15

أكانت معركة رابحة أم خاسرة ؟ وبالنسبة لمن ؟ وماذا تخفي وراءها ؟ أما جماعة الوطنيين من رجال الحي، فقد فقدوا كثيراً من أعضائهم. فوفد المقيم العام لم يعد قط وعلى رأسه سي عبد الفتاح وكبور. فقدوا في المقبرة وبعدها علي الجليد وعباس والمعطي والجيلالي... ومن لا يُعرف مصيرهم، بالإضافة إلى الأموات... وخسروا إلى ذلك كله قدرتهم على التحرك بالسهولة التي كانوا يعملون بها. أما السلطة كما يقول بعض أعوانها، وبعض ذوي الإيمان الضعيف ممن سايروا الحركة وتراجعوا، أو ممن لم يسايروا قط وإنما ظلوا على الهامش متفرجين ؛ فقد جست النبض إن كان هدفها أن تجسه، أو هي حسب تعبير آخر أخرجت الفئران من جحورها وصادتْها... ولكن حي البراريك ما يزال قائماً في مكانه جريحاً نتناً، وعربات الكارو اختفت... حتى القوات المسلحة المطوّقة، اختفت شيئاً فشيئاً...

ـ على كل حال ما بقى رحيل.

قالها التهامي المفضل، وكأنه يتلمس خاتمة ألطف لسلسلة الأسماء المفقودة التي ذكرت ؛ ولعله يعزي نفسه فيما أصاب الجماعة المستنيرة التي انضم إليها منذ عهد عن اقتناع بأنها وحدها الكفيلة بانتزاع ضياعه وتشتته، وتوجيه نقمته الغامضة عن كل شيء.

ورد المعلم حمو النجار :

ـ ما بقى رحيل ولكن باقي كثير...

لأول مرة يبدو أن مزاج الدعابة يفارقه. كان يرتدي جلابة غليظة سوداء، يخفي تحتها ذراعه المصابة المعصوبة وقد تدلى كمها فارغاً إلى جنبه، بينما يسراه وحدها تعيّن على الخشب مواطن القطع، ليعمل فيها الصبي المتعلم بالمنشار.

ـ شفت النشرة ؟

وردد التهامي المفضل :

- أيه... يمكن يطلقوا بعض الإخوان ولكن الأكثرية...

ولم يتم عبارته لأن إشارة تنبيه خفية صدرت من دكان سي احمادوا المقابل، فتناول التهامي المفضل أول لوح صادفه، كما لو كان بالفعل جاء من أجله، وانصرف وهو يهمس للمعلم حمو :

- رد بالك... هاسعيد جاي.

ودار مع أول زقاق...

ومر سعيد متهادياً، يدخن سيجارته حتى إذا اقترب من دكان النجار توقف يتفرس جيداً، ويحدق إلى داخله، فلما لم ير شيئاً قال مهدداً بحيث يسمعه المعلم حمو الذي كان ظهره إلى الشارع :

- خوفي على أولاد الحرام.

لم يلتفت حمو أو يتحرك، بل استمر بيسراه يشد الملزمة على قطعة الخشب كأنه يصب عليها حقده.

16

دخلت عناصر جديدة في حياة سكان الكريان، فقد نبتت بسرعة غريبة على مقربة من الحي بناية دائرة للشرطة (كوميسارية)، كما اشتهرتْ بينهم أسماء لرجال الشرطة السرية بعضهم من سكان الحي ذاته، أمثال الرحماني وبودرعة والسالمي وغيرهم ممن أصبحت دكاكينهم أو مساكنهم نقط التقاء رجال الاستعلامات ؛ أما بعضهم الآخر فكانوا من نواحي أخرى بالمدينة كُلّفوا بمهمات متنوعة في الحي منذ الحوادث الأخيرة، ومن أشهرهم سعيد وعمارة... وأصبح من المألوف أن تجوس دوريات الجنود والشرطة بين الأزقة خلال الليل والنهار، بحثاً عن بعض عناصر الوطنية الذين كان كل من بقي منهم خارج السجن أو الاستنطاق، ينتظرون دورهم ولو في قضاء أيام معدودات تحت التعذيب يطلق بعدها سراحهم...

ورغم صعوبات العمل وتعذر الاجتماعات المنتظمة، فإن المنشورات والملصقات كانت تظهر باستمرار بقدرة مجهولة، دون أن تصل يد إلى مصدرها الحقيقي، أو أن مصادرها كانت تتعاقب ويُخلف بعضها بعضاً. على كلٍ، فقد ظلت هذه المنشورات وحدها في هذه الظروف علامة على تردد النفس في الكيان الوطني الجريح، وكانت رابطة الوصل مع عموم الناس... أما الاجتماعات فقد ضاق نطاقها وأصبحت مقتصرة فيما يبدو على المسؤولين الرئيسيين ومن يليهم...

واعتاد الناس أن يناموا ملء جفونهم في جو مشحون بالتوجس والترقب، بعد أن ذهبت الأيام بجدة ذلك، ودخل في نطاق المألوف... ولعلهم ناموا ملء جفونهم ليلة خميس ما، من هذه الأيام بعد أكثر من شهور ثلاثة، على استقرار الأحوال على هذا النحو. خميس كان نهاره خريفياً عاصفاً، شكلت ريحه في الحي أعمدة لولبية من تراب ونفايات خفيفة، تظل تتلوى في الفضاء كأفاعي راقصة، منتقلة في حركتها الجنونية قبل أن تفرغ حمولتها داخل باب مفتوح لدكان أو مسكن، أو يعترض طريقها حاجز فتنقطع وتنهار ويتسرب غبارها من خلال الشقوق...

ولعل المذكوري وحده كان الشخص الذي يمكن أن يسر غاية السرور بيوم كهذا لممارسة نشاطه، فكان يتجول في الزوبعة، وهي في أوجها، عابثة بدرابيله، متسربة إلى جيوبه، متخللة شعره الأشعث الطويل، مالئة خياشيمه وجفونه... كان يدور مع الزوابع في مثل حركتها آمراً مشيراً، مقهقها بمرح هستيري :

- سيري أنت لليمين... وأنت للشمال... وأنت لأولاد الحرام... طيري... طيري... قتلي... حرقي... هها...

وحده كان مبتهجاً بجو كهذا، في ملكوته الثائر واعداً متوعداً :

قال الشفناج وقد دفع إليه كرم المذكوري، بزوبعتين كاملتين متتابعتين إلى داخل الدكان، داهمتا عجينته ومقلاته وغشيتاه من كل صوب.

- خزيت... منه نهار... الله يحفظ.

وصاح بصبيه وهو ينفض عن وجهه وعمامته الغبار :

- اطفيء... اطفيء... الله يسلّم من هذا النهار.

وصب المتعلم سطل ماء على الأتون الذي مد ألسنته اللاهبة متجاوزاً حفرة النار، عندما اشتم ريح الزوبعة، فتنهد خامداً وهو يعلي زفرة بخار ودخان.

وجاهد المعلم حمو النجار ليغلق الدكان، مضطراً إلى الاستعانة بيد لم تشف نهائياً من كسرها للتغلب على مقاومة الريح، وهو ينهر صبيه لجمع الألواح المتطايرة، لاعناً :

- خخخخ... حتى السماء غضبت !

وحل مساء مبكّر بعيْد العصر، أظلمت له الدنيا حول الكريان، وقد جللته سحب كثيفة من الغبار.

من الأكيد أن راحة الجسم مطلب عسير في جو كهذا، ومن الأكيد أيضاً أنها لم تكن مطلب هذه الخلائق البائسة. كل ما هناك أن الأجساد المكدودة كان يُسلمها التعب إلى تمدد مؤقت، حيثما اتفق وكيفما اتفق،

حتى تأتي فرصة السعي من جديد، يؤذن بحلولها الجسد نفسه بعفوية غريبة جعلت منه منبهاً مضبوطاً، أو ينادي بها «الغوات» في أية ساعة من ليل أو نهار... عند ذلك ينتفض الجسد المكدود ويتجه صوب ركن حيث يرش وجهه بالماء إن كانت في الخابية بقية، ويتناول صفيحة يتبوّل فيها ويزود بمحتواها جدول المياه الآسن الجاري في الزقاق أو يؤجل ذلك إلى فضاء يعترضه في الطريق، إن لم يكن في ضيق من أمره... وفي أطراف الحي وفي نقط متفرقة من طريق المعامل، يمكن أن يتناول آنية حريرة من بائعاتها في زحام الواقفين مثله، قبل أن يستأنف طريقه... فإن لم يتيسر له ذلك اليوم فإلى يوم آخر أسعد...

في حياة كهذه، قد تكون فترة تمدد قصيرة مؤقتة منتهى الراحة، وقد يكون الشغل الشاق المنهك عين الراحة بعد عطلة طويلة، كما قد تكونُ في تناول كسرة خبز جافة أو جرعة شاي أو في مداعبة أمل غامض.

ومن الأكيد أن صفير الريح من خلال الشقوق وتسرب الغبار ليلة هذا الخميس، قد كف عن أن يستمر مثيراً في الأعصاب مقاومة النوم، وقد تجاوز الليل المكدود منتصفه، ودرج متريثاً نحو ثلثه الأخير حينما اختلطت بصفير الريح ولولة حادة... وفي زقاق ما، لم يكن الناس ليهتموا لو خرقت مثل هذه الصيحة أسماعهم : «ما لها العرجاء ؟ هرب لها ثاني أو مات ؟».

ولكن الولولة والصياح، كانت تتجاوب من مصادر مختلفة من الحي، ومن نقط أبعد عن زقاق العرجاء. وفارقت الرؤوس متكآتها، وداعبت الأيدي جفونها متلكئة محاولة أن تبصر في الظلام، مصيخة إلى مصدر الصيحات ومضمونها ؛ وبغتة يطير التلكؤ وآثار الغفوة، ويقفز الجميع عارياً وشبه عار وكاسياً.

ـ العافية... العافية ياعباد الله !

وتطلعتْ الأعين إلى لهيب مترام في الفضاء، مائل مع الريح في مركز الكاريان سنطرال، وترامى الناس إلى ما تحت أيديهم وما بقربهم من سطول، وأفرغت الخوابي، أو حُملتْ كما هي على الأكتاف، وتسلحت

الأيدي بما أمكن من الفؤوس والمطارق والقضبان الحديدية مسرعة صوب البركان الهادر : الحريق.

طالما شبت النار في جهات من الحي، وطالما قضوا عليها بإفراغ مدخراتهم المتواضعة من الماء بواسطة السطول، وبوسائلهم المحدودة لمحاصرتها بتفكيك وإزاحة البراريك من حولها، وتظل ألسنة اللهيب تمتد في غيظ تلتهم الفراغ المحيط بها، وهم يصبون في جوفها قرابين مائهم وعرقهم حتى يهدأ ثائرها بعد ساعات تطول أو تقصر... ويشهد الصباح جماعة كبيرة من هؤلاء الكرماء المتطوعين، يكنسون الرماد ويساعدون على إقامة الأكواخ من جديد، لقد تعلموا بالخبرة كيف يكونون فعالين منذ صيحة الخطر الأولى، التي ما تكاد تبلغ مسامعهم، حتى يهرعوا منقسمين إلى فرق للتفكيك والإنقاذ والإطفاء، وبينما تتراص صفوفهم يمد بعضهم بعضاً بسطول الماء ترتفع، أصوات التكبير والصلاة على النبي الكريم.

- الماء يا رجال... الماء... الصلاة على النبي يا رجال.

ويردد الرجال :

- اللهم صل عليك يا رسول الله.

أصوات هادرة تتحدى زفير الجحيم...

لكن الجحيم لم يجد متحدياً هادراً هذه المرة، فقد ترعرع في لمح البصر، وأعجبُ أمره أنه لم ينطلق من نقطة واحدة، بل من عدة نقط في مركز الحي ظلت بينها جزيرة سليمة يترامى نحوها اللهيب من عدة جهات، كما تترامى الثعابين نحو فريسة مشلولة... وبدت ألسنة اللهيب تتقارب وتنتشر، ولا يرتفع صوت للتكبير والصلاة على النبي. ولا تتراص الأجساد يمد بعضها بعضاً منهالة بالقرابين على قلب النار... لا شيء من ذلك هذه المرة. فقد أنزلت الخوابي والسطول، ووضعت مرتاحة على الأرض، وازدحم الناس كمتفرجين على المشهد الغريب : الجحيم يترعرع ويزدهر، تحيط به على مبعدة منه، صفوف الشرطة المسلحة، جنود تحول بين الناس وبين الاقتراب من النار مكررة أوامرها :

ـ حتّى واحد ما يقرب... بعّدوا ارجعوا في حالكم.

وشُده الناس : كيف يتفرجون على الحريق ؟ لماذا لا يسارعون إلى العمل كالمعتاد ؟ وبين الحين والحين، كان يسمع صوت آت من بعيد بشق الزحام بنداء «بالك... بالك خل الطريق... الماء... بالك الماء..» ولكنه ما يلبث أن يتجمد عندما يصل الحاجز المسلح، فيضع حمله ويلقي بعض أسئلة قبل أن يستكين على مضض إلى موقف المتفرج :

ـ خلونا نطفيو العافية ونعتقوا الناس.

وترد عليه طقطقة زناد :

ـ ارجع في حالك... الحكومة قادرة تطفي وتعتق.

الحركة الوحيدة التي كان مسموحاً لها باختراق الحاجز، هي حركة الخارجين من دائرة الخطر بأطفالهم وبعض أمتعتهم، ولا حركة تتجه إلى الداخل. وترتفع حمية الشهامة في بعض الصدور فتهدر :

ـ أيوه يا رجال... يالله يا رجال تقدموا...

وترتفع عصا مهددة أو يطقطق زناد :

ـ ما يتقدم حد. سيروا في حالكم... الحكومة...

وينفد صبر :

ـ يعني... نص ألكريان... شوته العافية... والناس واقفة... والحكومة تفرج...

وتتلاشى ثورة الصوت أمام التهديد، كل ما هناك أن الحكومة تريد النظام، ولا تريد أن تفسح المجال للصوص والنهابين يختطفون أمتعة الناس، أو يقتل بعضهم بعضاً... وسيارات الإطفاء في طريقها لإخماد النار في طرفة عين.

ـ وزعما... الخوانة ما لقوا غير هذا الوقت للسرقة ؟

ولكن الحكومة هي التي تعرف ما يلزم ومتى يلزم. وقد أعطت أوامرها المشدّدة بألا يقترب أحد من منطقة الحريق... ومادامت سيارات الإطفاء

قد أقبلت ؛ وهذا صداها يسمع من بعيد، فلا مجال لهذه التساؤلات السخيفة... يتعين على السيارات أن تجد أقصر طريق إلى مكان الحريق. وبدأت العصي تنزل على الرؤوس والأكتاف : أن أَخْلُوا الطريق يابهايم يا لصوص. ولم يكن لأحد أن يتذمّر من الضرب فما أيسره إن كان يؤدي إلى إخماد النار وفي طرفة عين... وتناهى صوت السيارات، وطقطق الزناد أنْ تراجعوا، وسِّعوا الدائرة، وأصبحت الطريق بالفعل شارعاً فسيحاً بين المزدحمين الذين تسمروا على الأخشاب، وأضواءُ اللهيب كشمس في رابعة النهار... يجب أن تجد السيارات أقصر طريق إلى مكان الحريق. بيْد أن أعمدة اللهيب المرتفعة لم تكن مرشداً أميناً لها فيما يبدو. أو أن جماهير المتطوعين لإرشادها لم يكونوا على بيّنة من أقصر طريق، أو أن سائقها كان من الطواعية والمرونة بحيث ينعطف مع كل منعرج مضلِّل، أو لعله كان من سلامة القلب وحب الخير العاجل، بحيث يخالف بعض إرشادات الجماهير المتسابقة لإرشاده حتى لا يضلله اللصوص منهم ؛ فكان ينعطف مع هذا الزقاق إلى ذاك.. !

وهكذا، بدا طبيعياً أن تصل السيارات متأخرة بعض الشيء منذ تردد نفيرها في الحي. ولاشك أن السكان مسؤولون عن ذلك، إذ أن الحكومة إذ حرمتهم من حرية السلب والنهب، دفعهم الشر إلى تضليل السيارات... ! على كل، فقد وصلت سيارتان أخيراً. ولم يبق إلا طرفة عين لتخمد النار. وتسارع رجال المطافئ لمد الانانيب، ولأمر ما كانت عصية ملتوية بحيث تتطلب بعض الوقت ؛ مجرد وقت قصير، وإن كان الناس قد رأوه طويلا جداً، وهم معذورون لأنهم في حالة انفعال ؛ ولأنهم لا يدرون قيمة العمل المنظم المدروس الذي قد يتطلب وقتاً لإعداده، ولكنه بمجرد ما يبدأ يكون حاسماً وعاجلا، على العكس من الفوضى التي ألفتها هذه الخلائق، فهي لا تتطلب وقتاً لإعدادها، ولكنها لا تأتي بنتيجة مرضية، وها هي ذي الأنابيب تمتد أخيراً وخطة تطويق النار مُحْكمة منظمة ؛ ولم تبق إلا طرفة عين لإخماد النار...

وارتفع من الجموع المحتشدة صوت مهزوم يبحث عن بقية حماسة وإيمان في صدور الناس :

- هيا... صلوا على النبي يا رجال...

وارتفعت أصوات الصلاة على النبي الكريم، والخراطيمُ المعدنية اللامعة تعكس تراقص ألسنة اللهيب كما تعكسها خوذات رجال الإطفاء، وانطلقت ألسنة المياه تعانق ألسنة اللهيب، عناقاً حاراً ينجم عنه بخار ودخان...

- اللهم صل عليك يا رسول الله...

ارتفعت حماسة الناس لِما رأوا، وكأنهم يشاركون بواسطة الصلاة على النبي في الإطفاء، ولم تمض لحظات حتى تبين - وسوء نية الناس وخبثهم مسؤول عن ذلك - أن شيئاً ما قد عبث، يد دون شك، قد عبثتْ فقطعت أنابيب إحدى السيارتين. وبما أن الأنابيب قوية مفتولة شديدة التماسك مضاعفة الحبك، فلا شك أن اليد العابثة كانت حادة أكثر من المعتاد، وربما على كثير من التقنية ؛ وهكذا انسابت المياه التي كان مقدراً أن تطفئ الحريق في لمح البصر، لتروي أرضاً متربة أزعجها دك الأرجل وحرارة الجو المحرق، ولتغسل الأزقة من مائها الآسن !

وهدد الزناد، ولعنت العصا هؤلاء الأشرار، وهي تصيب أكتاف وأعناق بعضهم، من الذين ربما لم يكن ذلك مضراً بهم إلى درجة كبيرة ؛ وهم أهل لأن يؤخذوا بجريرة غيرهم من الأشرار، شريطة أن يخمد اللهيب بأية طريقة وفي أقصر وقت.

وعلا صوت :

- كبّروا يا رجال، صلوا على النبي.

ولكن الأصوات لم تعد طيعة. وعلق أحدهم في غيظ :

- آعباد الله. وش جاوو يطفيو ولا يرشونا بالماء ؟

وانتَهر عديم الحياء هذا : أليس من يدعوهم إخوته هم المسؤولون على هذا الفساد ؟ وهمس في أذنه أحد الحريصين على أن تُطفأ النار في طرفة عين :

ـ أخي اسكت، خلّهم في خدمتهم... دابا يطير لهم ويرجعوا.

ويبدو أن عديم الحياء كان يريد أن يظهر بمستوى الذكي جداً، أكثر من غيره، وكان يُعْلي صوته بحيث يريد أن يسمعه أكبر عدد من الحشد.

ـ اسكت هو أنت. يطير لهم ولا يبقى. مالنا ؟ عندنا عرس ؟

ومن حسن الحظ ـ في الظاهر على الأقل ـ أن الحراسة شددت على أنابيب السيارة الثانية، حتى لا تعبث بها كأختها تلك اليد الحادة القاطعة... وبالطبع تطلّب ذلك بعض الوقت. قبل أن يُسدد الخرطوم المعدني نحو اللهيب المسعور.

وهتفت الخلائق :

ـ اللهم صل عليك يا رسول الله.

وبدأ اللهيب ينحني ويتواضع وخرطوم الماء يعانقه... حقاً هكذا يكون الإطفاء... وفي طرفة عين على هذا المنوال، ستخمد النار نهائياً. ويستمر اللهيب مقاوماً، ينحني ليرتفع وينحني.

ـ شوفوا الخدمة يا أولاد الكلاب...

حقاً إنهم لأشرار، وأولاد كلاب، وكل رذيلة، شريطة أن ينتهي كل شيء في طرفة العين اللعينة.

ـ شوفوا كيفاش يضربوا العافية من التحت وهي تطفأ من الفوق، هذي هي خدمة الحكومة ياالكلاب. صلوا على النبي يا أولاد الحرام، يا الخوانة يا الموسخين...

وارتفعت الصلاة على النبي، إلا أن الحناجر لم تتمها، إذ سرعان ما فزْفز الخرطوم كالمختنق، كالمحتضَر، وفي الحين بدأ اللهيب ينتعش مرتفعاً... وقيل :

ـ ما لهم ثاني ؟

ـ فرغت من الماء !

ـ أويلي. هذي كانت فارغة من أولها، على هذا الحساب.

وقيل :

- اقطع الحس يا ولد الكلبة... هذا الشيء بعيد عليك.

ورَد في تذمر مكتوم :

- ها هو قاطعه.

وعلق آخر يائساً مستنكراً :

- بولة الكلب هذي عندهم ما تطفي حتى مجمر.

وقيل :

- لا يقترب أحد من الأنابيب.

وربحاً للوقت، بدأ بعض الشرطة والجنود المسلحون يساعدون في جمع الأنابيب لتعود السيارات معاً وبسرعة، تتموَّنان بالماء وتعودان لإخماد النار في طرفة عين، وعلا نفيرهما نشيطاً تطلبان توسيع الطريق، فتدخلتْ بعض العصي تصيب أكتافاً ورؤوساً يبدو أنها لم تعد تحتمل هذه المرة، ففار في صدورها أتون غيظ - غير مشروع طبعاً - ظل مكتوماً منذ ساعات، عند بداية الحريق. وصاح أحدهم لاعناً :

- دين بوهم الكلب... ضحكوا علينا... ياالله يا رجال، اللي يموت اليوم ما يستنى غدا... تقدموا ياالله... ضربوا... اللهم صل عليك يا رسول الله...

ولعْلع الرصاص نشيطاً قبل أن يختنق... وطنَّت العصي على بعض الرؤوس والأكتاف قبل أن تنكسر. وارتفعت أصوات التكبير والصلاة على النبي، قوية غذَّتْها المعركة القصيرة بدم جديد وتلتْها أصوات :

- الماء يا رجال. الماء... السطول يا رجال.

* * *

أسْفر ضحى الجمعة على غيمة دخان عظيمة تظلل الكريان وتحجب عنه أشعة الشمس. وقد بدتْ الرقعة السوداء المحروقة إصابة بالغة في هيكل غول مخيف همد كالمستسلم للرقاد، تصدر عنه بين الحين زفرات

دخان، تثيرها سطول الماء المنصبّ على بقايا الرماد والجمر المختفي، والأخشاب نصف المحروقة من أيدي رجال اسودَّت ملامحهم وَقلوبهم.

وطوّقت القوات المتنوعة الحي بكامله مشرعة أسلحتها. ونادى المنادون في أزقة الحي :

ـ «لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله. ما تسعموا إلا خير. بأمر من سي المقيم العام، يعلمكم سعادة الباشا ـ إذا علمكم الله ـ بأن جميع الناس المحروقين غادي تعطاهم ديور مبنية وبالضوء والماء، بلا قرش بلا فرنك... جميع المحروقين لازم يهبطوا للتسجيل في مكتب المقاطعة... لا إله إلا الله...».

17

آه كيف أن الحكومة قادرة على كل شيء، وكيف أن الشر الذي تمتلئ به القلوب عن سوء فهم، أو سوء نية، هو الذي يغشَى أبصار الناس، ويصم آذانهم. لو تركوا البارحة سيارات الإطفاء تعود بسلام لتتموّن لانطفأت النار في طرفة عين. ولو لم يهجموا على الحرس، ويعملوا فيهم ضرباً وقتلا لما قُتل منهم أحد ؛ ولما تأخر إطفاء النار إلى وقت متأخر من الصباح، نتيجة لوسائل إطفاء بدائية. على أن المحروقين المساكين سيعوضون خيراً. هه ؟ دار بالماء والكهرباء، لا براكة في النتن والأحوال، مهددة بالإحراق والإغراق صيفاً وشتاءً. هه ؟ من كان يطمع في هذا من هؤلاء التعساء ؟ وهل منطقة العنق أو فضالة أو مديونة بعيدة ؟ ولو فرضنا أنها كذلك، فالحكومة فكّرت في أن تجعل حافلات تربط بين هذه المناطق وبين منطقة المعامل... دار بالماء والكهرباء وبالمرحاض. هه ؟ فكِّر في المرحاض، وقارن بينه وبين مشهد المزابل في العراء، وسيُبْني مسجد قرب مجموعة الدور في كل منطقة من المناطق الجديدة. أليس هذا هو الدين والدنيا ؟ الدار بالماء والكهرباء وبالمرحاض وقربها المسجد، وبلا فرنك ولا قرش ؟ كأنها إرث حلال عن جد الجد. والحافلات ؟ إذن لم يبق مجال للتردد. ومن لم يسارع من المحروقين إلى القبول، سبقه غيره من غير المحروقين وربما من غير سكان الكريان.

ولكن الحكومة عازمة على ألا ينتفع بالمشروع إلا سكان الكريان، وأن ينتفع أولا ضحايا الحريق المؤسف. المبادرة خير، وعلى الناس أن يُسرعوا بتسجيل أسمائهم. وعلى العاقل منهم أن يبتعد عن هؤلاء المجرمين، الذين دبَّروا الحريق، والذين قطعوا أنابيب المياه لسيارة الإطفاء بعد أن ضللوا رجال الإطفاء ثم أقاموا معركة أدت إلى قتل وجرح ! ويزعمون

أنهموطنيون يعملون لصالح الناس. الحق أن لا خير فيهم، ولا يرجى منهم. ومدرسة ؟ نعم ستبنى بجانب الدور والمسجد، مدرسة. مدرسة حقيقية، لا هي مجرد كتاب لحفظ القرآن، ولا هي مدرسة كذب وبهتان ولعب وأناشيد... ويعني، الواحد منكم يرسل ولده للعلم أو للغناء والأناشيد والرياضة ؟ والأناشيد حرام ! وهذا من الدين أيضاً ! ما على العاقل إلا أن يسجل اسمه ويسبق الآخرين إلى النعيم والسعادة. وقد يكون له امتياز اختيار الدار المناسبة له في الموقع الذي يفضله. وتصميم الدور، رهن الإشارة في مكتب المقاطعة، وكل من يسجل اسمه ويمضي بالقبول ؛ يأخذ في نفس الوقت وصْلا برقم الدار التي ستبنى له ويمكن أن يحظى بامتياز الاختيار خصوصاً إذا... إذا... الحق يقال... إذا ما أخبر بشيء إضافي عن هؤلاء المجرمين المفسدين الذين يُدعوْن بالوطنيين. أية وطنية ؟ وطنية الإفساد ونشر الفوضى والسلب والنهب ؟ الحكومة تعرفهم جميعاً، وقد قبضتْ على كثير منهم منذ مدة، وقبضت على بقيتهم بعد جريمة الحريق مباشرة، وبعدما ارتكبوا من قتل في الحرس ورجال الشرطة... ولكن قد تكون في البقية بقية من هؤلاء المجرمين. الحق يقال... الحكومة لا يمكنها أن تعرف كل شيء. على أن من لا يريد أن يخبر بشيء، لأنه حقيقة لا يعرف شيئاً على الإطلاق، يمكنه أن يحظى أيضاً بدار عادية، ولكنها على كل حال دار مبنية لا براكة. وعليه أن يفتح عينيه ويكون مستعداً للإخبار، بشيء من أخبار المفسدين متى علم به. والسلاح ؟ هه ؟ بعض السلاح ضاع من بعض الجنود والشرطة ليلة الحريق، عندما احتدمت المعركة... وهذا أيضاً موضوع بحث، يمكن أن يكون أحد قد عثر صدفة على بعض السلاح ساقطاً فليتقدمْ به للسلطة ولن يمسه سوء... أو يكون قد رأى أحداً يحمله، مثل هؤلاء إذا ما أخبروا بشيء فلهم دار ممتازة ومكافأة مالية. الحكومة لا تعبث. هذا جد، والسلاح سلاح وليس لعب أطفال... قد يستعمله اللصوص والمجرمون في القتل والسرقة، وقد يلعب به أطفال فيُؤْدى بحياتهم. لابد من التفكير في كل شيء، حتى فيما يصيب الأطفال. وإذا ما قُدر أن كان أحد الراغبين في سكنى الدور عاطلا عن العمل، فالأمر سهل وسيادة المقيم العام، أعطى أوامره بأن كل من

يسكن في الدور الجديدة يجب أن يتوفر على عمل... الحكومة ستوفر له العمل. والسلاح ؟ لابد أن يكون أحد قد رآه أو أخذه أو رأى من فعل ذلك، أو سيراه أو يعلمه. مادام السلاح فعلا قد اختفى، إذن لابد من الإرشاد إلى من استولوا عليه أو عثروا عليه. أما إذا تبيّن من البحث أن البعض قد عرف شيئاً ولم يدل به في حينه فجزاؤه معروف. والعاقل يتدبر أمره قبل فوات الأوان... على كل، فالمجرمون قد قبض عليهم جميعاً وسيعترفون بكل شيء... وسنرى... سيجرّون أبرياء كم معهم عمداً إذا لم تسارعوا لتخبروا بما تعرفونه عنهم. والمنشورات والاجتماعات ؟ مناشير ظهرت قبل الحريق، وكانت اجتماعات تعقد... الحكومة تعترف بأنها تعرف كثيراً ولا تعرف كل شيء... الواحد يفتح عينه ويرشد ويفوز.. هه ؟ دار بالماء والكهرباء ومرحاض ومسجد وحافلة وشغل ؟!

* * *

انجابت غيمة الدخان وأشرق صباح اليوم على خلائق تكنس الرماد ومخلفات النار من البقعة المحروقة، تجلب أعواداً وصفيحاً تنصب به ما يشبه مآوي مؤقتة حتى يتيسر إقامة براريك جديدة ؛ تنصب على الأعواد أغطية بدت كخيام صغيرة غير منتظمة...

أرأينا ؟ من هنا يفهم العاقل كيف تفكر عقول الناس، الحكومة وفرت كل شيء، وعلى الأصح التزمت بذلك وأعلنته وأعلمت الناس به وتركت لهم الخيار. وها هم يختارون التعس والنحس على خير الدنيا والآخرة... لا أحد منهم تقدم يسجل قبوله في مكتب المقاطعة. مثل هؤلاء حقاً، يقادون إلى الجنة بالسلاسل. ما عاشوا قط في نعمة فكيف يقدرون قيمة النعمة. الواحد منهم جاء من النوالة إلى البراكة. فكيف يعرف قيمة الدار المبنية والمجهزة بالماء والكهرباء ؟ بهائم (تزبل) وتتناسل على الطبيعة، فكيف تفكر في مرحاض وغرف مستقلة مفصولة ؟ والمسجد ؟ ما عندهم دين ولا دنيا هؤلاء. والله العظيم سيندمون. الحريق يترصّدهم، والسجن ؛ والحكومة قوية وعارفة... والسلاح ! يعني... لا واحد منهم وقعت عينه عليه ؟ لا أحد منهم قتل أو ضرب أو رأى ؟! وهل نحن في عصر المعجزات حتى تمطر

السماء الجنود والشرطة المسلحة بحجارة وفؤوس وقضبان من حديد ؟ الشرطي المسلح كسرت رأسه بعصاه، والجندي خنق وضربت رأسه بفأس وداسته الأرجل ولا أحد ضرب أو قتل أو رأى أو سمع ! وأين سلاح الموتى والمعطوبين من رجال الشرطة والجنود ؟ والله العظيم، سيندمون، سيندمون.

* * *

أوى كثير من ضحايا الحريق عند بعض ذويهم وغير ذويهم في انتظار أن يأتي يوم يقيمون فيه أكواخاً جديدة. وأظلم مساء حزين على الغالية زوجة كبور، مطوية على جراحها في مسكن صفية. لا خبر عن زوجها كبور، والبراكة التهمتها النيران، والمتاع ضاع ؛ ونفس كبيرة فارقتها البهجة والرواء... مساء حزين أشبه بمساء ذات يوم منذ سنين، عندما وارتْ إحداهما زوجها التراب وقد أتاها كبور بنبإ نعيه صباحاً... كل ما هناك مِنْ فارق، أن الأهل كلهم تجمعوا على موت ذاك، في مساء كان الحزن فيه طبيعياً خالصاً، بينما حزن هذا المساء مرعب مخيف ومنذر...

ـ ما ينفعنا غير الصبر يا أختي...

ولم ترد الغالية بشيء، ولا كانت صفية بقادرة على مجاوزة فكرتها بشيء آخر :

ـ هذا الشيء مقدره الله.

وظلت الغالية غائبة في صمتها. وانطفأت الشمعة مراراً قبل أن يستقيم منها ضوء باهت. ولعل الولد وحده أحس بوحشة الظلام، فقام يوقدها قبل أن يعود إلى مكانه بعيداً من المرأتين، وينطوي على ركبتيه...

* * *

وليلة الحريق بالذات، ورجال الإطفاء يكافحون النار ؛ ألمْ يكن التهامي المفضل هو المحرض الأول... كان أول من ارتمى على عنق

شرطي ونادى الآخرين فتبعوه ؟ طبعاً، التابعون إنما هم تابعون فقط، ومغفلون بُلهاء لكن المسؤول الأول هم الجماعة المفسدة. أليس كذلك ؟ والمعلم حمو النجار (الموستاش الكلب) ماذا كان من أمره ؟ على كل حال، هذا قد اعترف بكل شيء للحكومة بعد أيام قليلة من القبض عليه، لكنه قد يكون متستّراً في اعترافاته على آخرين. والحكومة لا يكفيها أن يعترف واحد أو اثنان أو جماعة محدودة بالجرائم التي اقترفوها، بل يهمها أن تقطع دابر الفساد من جذوره. والمسمى سي احمادو وكان يقود إحدى الجماعات التي هاجمت من جهته ؛ بينما (الموستاش الكلب) والتهامي، كلُّ هاجم بجماعة من جهته. ورغم أن النجار كانت يده ما تزال معطوبة منذ المقبرة ـ وهذه أخرى لحسابه ـ فإنه كان قادراً على المهاجمة والقتل بيده السليمة المسلحة بمفكّة طويلة فولاذية... لهذا ؛ الحكومة لا تقنع باعترافات فردية، بل لابد من استئصال الجماعة عن آخرها. والعاقل يمكنه أن يربح قدْراً هاماً من المال، إذا ساعد في الكشف عن الحقيقة، هذه الحقيقة التي ستُعرف حتماً... أم أن الحكومة صبية ؟ الأمور جِدّ في جدّ. هذا كله عمله المجرمون من أجل ماذا ؟ الحكومة عارفة : فعلوه لأن أصحابهم المجرمين والمشاغبين في السجن، منهم (سّيهم) عبد الفتاح و(سّيهم) زبل وزعتر... و...

* * *

... وتنهدتْ صفية وهي تقطع الصمت السائد في البراكة بينها وبين الغالية، والطفل منطوٍ جامد لا تكاد تنبيء فيه حركة بحياة :

ـ حيَّاني. على حدوم مسيكينة ووليدها جلول...

وصدرتْ عن المنطوي في الركن تنهيدة عميقة لم تنتبه لها المرأتان في حالتهما، ولعله كان منذ مدة طويلة في قعدته تلك يتابع ذكريات صديقه جلول ولد حدوم المسكينة :

ـ انت عملتها صغيرة وأنا ـ دابا تشوف ـ نعملها كبيرة...

ذاك ما حدَّث به جلول منذ مدة بعيدة صديقه الحمدوني، تعليقاً على ما

فعل هذا من مباهاة بأنه كتب بعض المنشورات الصغيرة : «المغرب لا يكون حليفاً...» ولو التقى به الحمدوني ليلة الحريق بساعات قبل اندلاع الحريق، في تلك الليلة المشؤومة العاصفة، أكان يفعلها مثله كبيرة ؟ جلول أكبر منه بعامين أو ثلاثة... يعني الكبير يعملها كبيرة، والصغير يعملها صغيرة ؟! جلول، كان أبوه بنصغير شدّه عمارة البياع في الحبس نهار المقبرة : كان عمارة في الباب مع الباشا والبياعة كلهم والـ... ولما خرج بنصغير مع الناس عرفه عمارة وقال له : حتى أنت ياالقواد، ما حكمت حتّى على بناتك وامرأتك. وأعطاه ضربة بقاع الفردي وقال لأصحابه، شدّوه، هذا ولد الحرام عنده أخبارهم كلهم... ومن ذاك اليوم، حلف جلول المسكين حتى يقتل عمارة البياع... ومن ذلك النهار، وعيْن جلول على عمارة البياع، حتى المدرسة ما بقى يمشي لها.

وفي ليلة الحريق، جلول شاف عمارة البياع يدور في الكريان. ويمكن دخل على أمه حدوم وقال لها :

- ها الحرامي مغطي وجهه بقب الجلابة، وهو غادي راجع،... غادي راجع. لابد في راسه شي قضية.

وخافت حدوم على وليدها جلول، بعدما دخَّل عمارة رجلها الحبس، وهرَّب عليها بناتها. وقالت لجلول :

- ادخل أنت وخليني، أنا خارجة...

خرجت وحققت، ورجعت قالت لوليدها جلول :

- عندك الحق. الحرامي هو بعينه، ما بقى عندي ما يشد لي في الحبس. وأنت وأنا ما عندهم بنا غرض.

- سكتت وقالت :

- اسمع يا ولدي جلول، يمكن الحرامي يدور على دار السدراوي الساكن في الرحبة، صاحبنا. وأنا غادية لداره بالخبر حتى يكونوا على بال... وأنت ابق هنا حتى نرجع...

خافت مسكينة على وليدها، وعلى دار السدراوي صاحب رجلها.

خرجت وسدّت الباب. بقي جلول وحده. ويمكن عمل خشبة أو صندوق طلع عليه من فوق الزريبة، وخرج للزنقة. ويمكن جرحته قصديرة أو مسمار... حيث أمه والناس من بعد، لقوا آثار الدم من يده أو رجله فوق الزريبة، وفي الزنقة... ومشى جلول في الليل وحده، يقلّب على عمارة البياع. ويمكن قال في نفسه : الليلة ليلتي معك يا عمارة البياع... الليلة تكون كبيرة...

وتبع عمارة من هنا.... لهنا... ويمكن قال : الحبس للرجال. وأصحابي الدراري لابد يعجبهم الحال غدا بعملتي في عمارة البياع. ويمكن، فكر جلول في قصة «حب الوطن» المصورة في كتاب التلاوة... التلاميذ كلهم تعجبهم هذه القصة وسي عبد الفتاح كان يشرحها لهم بطريقة عجيبة : «... وخرج الياباني الصغير من مخبئه، وتقدم بخطى ثابتة نحو الجنود المسلحين لا يملك إلا قوة إيمانه وحبه لوطنه. حتى إذا اطمأن الجنود إلى أنه مجرد طفل صغير خائف لا خطر منه، تضاحكوا وهم يُخفضون أسلحتهم... وهنا ارتمى الياباني الصغير...».

ورجعت حدوم المسكينة، وخرجت تجري تقلّب وتبكي على وليدها جلول في الليل :

- ويلي عليك ويلي، يا جلول يا وليدي العزيز.

وقالت يمكن جلول يمشي يعلم أصحابنا بالحرامي. ودقت على أصحابهم :

يا دار سي العربي ما جاء عندكم جلول ؟ يا زهرة يا أختي ما شفت وليدي ؟ يا دار أمي رابحة...

ممكن عمارة البياع قال مع نفسه : باقي الوقت ما وصل. والدنيا هادية ساكتة. ومشى يشرب في براكة فطومة. ودق على فطومة وجلول تابعه من بعيد، ويمكن فطومة في ذاك الوقت كان عندها رجل أو أكثر في البراكة، ويمكن قالت لعمارة البياع يدور دورة ويرجع... وبقى عندها مدة ساعتين أو أكثر وهو يشرب و... وخرج عمارة من براكة فطومة وكان

جلول بحجرة في يده، وهو تابع عمارة البياع من بعيد في الظلمة. ودار عمارة دورة ووقف وتلفت هنا وهنا، وشعل وقيدة شاف عليها الساعة في يده... وقرب لجنب البِراريك وقعد... يمكن قعد يبول. وفي هذا الوقت تحرك جلول جهته، وتمشَّى بلا حس، حتى قرُب من عمارة البياع ويمكن قال في نفسه : الليلة ليلتك ياعمارة البياع. عمرك ما تلحس خمسة من الليلة. وفي هذا الوقت شعلت النار من موضع عمارة البياع... هو شعلها في البراريك عمداً... وجلول وحْده شافه... شعلها عمارة البياع ووقف، وتلفّت يمكن جلول ضربه بالحجرة أو يمكن خاف ـ وجلول لا يمكن أن يخاف ـ أو يمكن ارتمى على عمارة البياع مثل الطفل الياباني وشده :

ـ حصلت يا حرامي يا البياع... واك واك آعباد الله... العافية شعلت... شعلها عمارة البياع...

بعض الناس سمعوا الصداع، وسمعوا صوت الرصاص، وخرجوا ولقوا جلول على الأرض... ميت مسكين برصاصة والعافية شاعلة في الكريان... وعمارة هرب...

* * *

وسي عمارة مسكين، البياع كما يسميه المشاغبون والمجرمون... هذا مسكين له أسرة وأولاد. ومن شواه في النار ليلة الحريق... مسكين أولاده سبعة. حدوم الحرامية جاءت تعترف بأنها فعلتْ ذلك وشوت عمارة في النار ! وهل يُعقل أن تفعل هذا ؟ وهل يعقل أن تفعله وحدها وبتدبيرها ؟ امرأة تتابع عمارة المسكين في الزحام بين المئات والآلاف من الخلائق، وفي ضجة. وهو ملتفّ بجلابته ـ ولا عجب في أن يلتف فقد يكون به برد رغم ما يُشيعه الحريق من حرارة مفرطة أو... على كل حال، هذا يعنيه هو ولا دخَل لأحد فيه ـ لا يظهر إلا عيناه كما تزعم الحرامية حدوم... وكيف تعرفه في هذا الزحام وفي فوضى الحريق إذا كانت لا تظهر، إلا عيناه، وكان مستخيفاً في غير هيئته المعهودة ؟! وتأتي الحرامية المجرمة لتقول للحكومة «بياعكم عمارة أنا شويته في النار !» ولتقول : «بياعكم

الحرامي ضرب رجلي وشدّه في الحبس، وقتل ولدي وهرّب بناتي... احراميكم انتقمت منه... والكلب بّوه شويته».

وكيف عرفت أن «الكلب بوه» هو الذي تسبب في القبض علي زوجها وقتل ابنها بالرصاص، ودفع ببناتها إلى الهرب ؟ لا شك أن أحداً، أو جماعة ملأت رأسها بهذه الترهات والأكاذيب. وكيف عرفتْ أنه أشعل النار ؟ والواقع أن المفسدين من أصحاب زوجها هم الذين أشعلوا النار، وهم الذين قتلوا ابنها حتى لا يشي بهم لسبب من الأسباب... ومن الذي ضلَّل رجال المطافيء، وقطع أنابيبهم أهو عمارة البياع أيضاً ؟ يجب أن يعرف الناس الحقيقة، وينشروها ويتعاونوا مع الحكومة للقضاء على المفسدين... والسلاح ؟ التهامي المزعتر ـ ويسمونه المفضل ـ شوهد وهو يجرد جثث بعض الجنود والشرطة من مسدسات وبنادق، فلمن سلَّمها وأين خبّأها ؟ ولقد سُمع وهو يأمر أصحابه بعد أن أعطاهم السلاح :

ـ اجروا اجروا واخزنوا...

يعني اهربوا اختفوا واخزنوا ماذا ؟ من هم ؟ وأين السلاح ؟ الحكومة ستقبض عليهم حتماً وستستردّ السلاح ؟ ولكن العاقل من السكان هو من يساعد ويُخبر بالحقيقة. والمساكين أولئك الذين فقدوا أهلهم في الحريق... يعني... في معركة الضرب والقتل التي قام بها الفوضويون ضد قوات النظام، هؤلاء يجب أن تثأر لهم الحكومة، ممَّن ؟ من قاتليهم المفسدين. قوات النظام لم تطلق رصاصة واحدة، بل كان عندها السلاح غير محشو، وقد ذهبتْ ضحية أداء واجبها الذي كان في مصلحة السكان والحكومة، ولكن المفسدين يدَّعون ـ ليضحكوا على البلهاء ـ أن القوات النظامية هي التي أطلقت الرصاص وهي المسؤولة، وهل هذا معقول ؟ لماذا تطلق الرصاص ؟ ولو أطلقت الرصاص... رصاصة واحدة، لفرَّ الجميع. والواقع أن المفسدين هم الذين حشَوْا السلاح بالرصاص بعد أن جرّدوا بعض رجال النظام منه، كما جرّدوهم من ذخيرتهم. من هم إذن ؟ وأين هم ؟ رؤساؤهم كلّهم تحت يد الحكومة، ولكن أين الباقي وأين السلاح ؟ كل مَنْ يخبر له مكافأة، وكلُّ من يخفي شيئاً فجزاؤه... الحكومة عارفة وقادره على كل شيء.

... وقطعتْ صفية الهدوء المخيِّم الحزين بتأوهات حارة :

ـ مّيمتي عليك يا حدوم. حتى شي ما رحت به.

لم تنبس الغالية بشيء، ولكن تأوهاتها تجاوبت مع انتحابات حارّة مكتومة، صادرة عن الولد المنطوي، ظل يقاومها قبل أن ينفجر باكياً.

* * *

أيوه ؟ ويوم تجمُّع الملعب... الحكومة تعرف أن غرباء من نواحي أخرى في المدينة، ومن مدن أخرى حضروا. ولابد أن السكان يعرفونهم ماداموا غرباء. من أين جاؤوا ؟ وما هي أسماؤهم أو علامات العثور عليهم ؟ واحد من هؤلاء تعرفه الحكومة، وقد سجن مراراً واسمه الحاج الونادي ؛ والبحث جار عنه ؟ ولكن من حضر غيره من الغرباء ؟ ومن شجَّع الناس على الفوضى من غير المعروفين المقبوض عليهم ؟

* * *

18

فتح الطفل الباب فانفلت هيكل سعيد قوياً ضخماً إلى مسكن أخته وسأل :

- كيف حالكم ؟

وسلم على صفية قبل أن يلمح الغالية زوجة كبور :

- آه، أنت هنا... أخبارك ؟

وردت صفية بهدوء حزين :

- بخير.

لم تنبس الغالية بردّ. وقد أصبح مرور سعيد بمسكن أخته مألوفاً، بين الحين والحين بعد أن دعته أحداث الحي إلى ملازمته في جولات مستمرة واستعلامات. ولم يكن يُخفي تعاونه مع الحكومة، أو يتستّر عنه. وكرفيقه عمارة، أصبح اسمه مقروناً بكلمة البياع... ويقال إنه استطاع فعلا أن يكتشف بعض أصحاب السلاح، وأن له نفوذاً كبيراً لدى الحكومة تبعاً لذلك... وكان من أثر ذلك أن بعض جيرة أخته أصبحوا يتجنبونها خوفاً أو نفوراً أو يتقربون إليها تملقاً وتودداً. وكان ذلك يُثير فيها رعباً لا تعرب عنه لأحد... وطيلة مكوث الغالية عندها تجنبتْ أن تذكره، وتجاهلت أن تردّ على تعليق الغالية ذات يوم، وقد شاعت في الحي أخبار ضحاياه من المقبوض عليهم.

- تبارك الله عليه سي سعيد أخوك، هلك عباد الله وشطّب الأرض من تحتهم !

وترد صفية حزينة :

- الله يهديه.

وتستأنف الغالية في استنكار :

ـ وهو ماله على هذا الشيء... مخصوص ؟ محتاج ؟ ياربي تسترنا. الرجل بقامته وقده قد الجمل... الفلوس دايرة عليه من كل جهة ما يقنع ما يشبع... عذب عباد الله والدعاء والدموع عليه في كل موضع... خخخ...

تربع سعيد ووجّه خطاب مواساة إلى الغالية :

ـ الله يكون في عونك آمسكينة.

وكأنما أرادت صفية أن تغيّر وجهة الحديث فقالت له :

ـ تشرب... ؟

قاطعها رافضاً أن يشرب شاياً. فليس له متسع من وقته، ولربما كان ماراً بالقرب ففكر فيها، وزارها ليطمئن على أحوالها، ويبلّغها سلام ابنتها خدوج وزوجه كلثوم. أزاح عمامته ومسح جبهته من عرق الإجهاد، وعينا المرأتين والطفل ترمقانه كما لو أصبح كائناً غريباً أمامهم. ومرّت بخاطر الطفل حكاية «راس الغول» وعندما التقت عيناه بعيني خاله، هزته رعشة فمر بيده على وجهه بسرعة، كأنما يمسح الفكرة التي مرت به، خشية أن يكشفها خاله في عينيه...

«والله العظيم عندهم الحق، قالوها : راس الغول... هذه عندهم فيها الحق»... كانوا منهمكين في لعبة «الوزيعة» قرابة العشرة من أطفال الكريان. يبتعد أحدهم عن الجماعة حتى لا يسمع ولا يرى، والجماعة تذبح وتوزع في غيبته شيئاً حياً أو جماداً، ثم يصفقون له منادين : «غراب غراب، يا أكحل القراب، حل عينيك وتعال».

ويُقبل عليهم الحمدوني. لازم وزّعوا بقرة... هو سمع ولد الشفناج يقول : «راس»... بلا شك ولد الشفناج أخذ الراس.

ـ السلام عليكم.

ويرد الأطفال كلهم بصوت واحد وكل منهم يحاول ألا يكشف السر بحركة منه :

ـ وعليك السلام.

- وزيعتهم معزى (وزيعتهم بقرة يقولها لهم فيها بعد).

- لا.

وزيعتكم ثور.

- لا.

يجب أن يبتعد عن منطقة الخطر يلهو بهم قليلا :

- وزيعتكم... وزيعتكم، ثعلب ؟

- لا.

لا بأس من أن يتظاهر ببعض العجز، ويطالب بتحديد منطقة الكشف كما تسمح بذلك اللعبة :

- قولوا لي وزيعتكم ماشية أو راشية ؟

ويجب بعضهم :

- ماشية.

إذن فهو على حق ولابد أن تكون بقرة :

- وزيعتكم نعجة.

- لا.

- بقرة.

- لا !

- والله حتى بقرة وهذا أخذ الرأس !

- والله ما هي !

لا داعي إذن للجدال ففي الأمر ما يحير. ويستسلم في تحد :

- أعطيت احماري.

الآن استسلم، ألقى السلاح، وعليهم أن يخبروه ويقول ولد الشفناج بتأن :

- يا سيدي... وزعنا راس الغول.

راس الغول ؟ عمرها ما كانت، عمره ما سمع بها وزيعة.

رأس الغول قتله السيد علي...

قال لهم ذلك، واستأنف كالمغلوب على أمره... باحثاً عمن أخذ أذنيه، عينيه، أسنانه، سيفه، أظفاره. وجوابهم دائما لا يتغير :

- حتى واحد.

- شعر صدره ؟

- حتى واحد.

- وسخ أظفاره ؟

- حتى واحد.

- لحم أسنانه ؟

- حتى واحد.

الأمر مستعصي جداً على غير المألوف، ويستسلم للمرة الأخيرة في يأس :

- اعطيتكم حماري.

- يا سيدي... راس الغول خانز... ذبحناه ورميناه في الزبالة !

إذن كانوا خارج الرقعة المشروعة للعبة، فكيف يكون خاسراً ؟

وتساءل ولد الشفناج، لا عن الرابح والخاسر ولا عن مشروعية اللعبة أو عدم مشروعيتها، بل في تحد جديد للحمدوني :

- أنت عارف راس الغول ؟

وأجاب متحدياً بدوره :

- إيه، راس الغول قتله سيدنا علي...

وضحكوا دفعة واحدة، سخرية من جوابه ؟ إذن هم لا يعرفون. وقال ولد

الشفناج بتأنٍ وفصاحة :

ـ لا يا سيدي، راس الغول هو سعيد البياع، خالك ؟

والله ما كذبوا، عندهم فيها الحق. راس الغول...

وسألت صفية عن حال ابنتها في بيت أخيها، وأجاب سعيد.

ـ ما عندها بأس، ما خصها خير.

ـ وكلثوم مسكينة ؟

ـ حتى هي لا بأس عليها.

تبادل الحديث بينهما كان مقتضبا جداً، الموقف محرج ولعله يشعر بذلك بحضور زوجه كبور، إذ يقال إن له يداً في تعذيبه وإطالة مدة سجنه، وربما فيما سيتقرر من مصيره... قام متهيئاً للخروج وهو يقول :

ـ ها أنا مشيت.

وأوصى أخته خيراً بالغالية. وردت الغالية على وصيته ببرود.

ـ يكثر خيرك آسي سعيد.

ولعله أحس بما تنطوي عليه جملتها من ألم وكراهية له، فتوقف قليلا متأملا، ثم خاطبها متأسفاً، وهو ينحني نحوها :

ـ آلغالية... والله العظيم... وحق الدم والطعام... قضية كبور ما عندي فيها يد... ولا كان عندي بها علم... وما عندي ما نعمل فيها... المقيم واقف فيها بنفسه.

وعاد إلى موقفه متهيئاً للخروج، كأنه تخفف من بعض الحمل الذي كان يثقله... وليس له مطمع في أن تصدقه في أكثر من هذا. قضايا الآخرين له فيها يد معروفة. وربما كان يحزُّ في نفسه ما ينتظر كبور من مصير... ولكنه عندما يتذكر أنه رأس جماعة عنيدة متهورة لا قدرة لها على التمييز، يعترف بينه وبين نفسه بأنهم يستحقون ما يلاقون وربما أكثر مما يلاقون...

راس الغول... عمارة صاحبه قتل جلول ولد حدوم المسكين بالفردي، وحتى هذا بلا شك عنده فردي تحت الجلابة...

وكانت عينا الطفل تحدّقان في الهيكل الواقف المتهيء للخروج تحاولان اختراق الجلابة...

ونصح سعيد أخته نصيحة أخيرة وهو يرنو إلى ابنها :

ـ ردّي بالك من البرهوش... البراطل في هذا الوقت ما بقى عندهم خوف ولا حياء...

ورنا جيداً إلى ابن أخته، ثم استأنف ويده على كتف أخته صفية :

ـ كوني على بال... جامعة راسك، خل حوائجك مجموعة... وفي الليل فيقي نعاسك...

كان كلامه تحذيراً أخوياً جاداً، نفس اللهجة التي سمعتها منه عندما زارها قبل الحريق. وهو دائماً يجدد عرضه عليها بأن تنتقل إلى بيته وتعيش في هناء.

وتساءلت أخته مرتاعة :

ـ حريقة أخرى ؟!

ووضع يده على فمها :

ـ زمّي فمك. وكوني على بال...

واخترقت الجو لعلعة حارة من قلب الزقاق ارتاعوا لها... حريق الآن ؟ لا. كانت عائشة العرجاء قد خرجت تولول، تسب وتلعن ولد الحرام، قليل الخير، الغدار، الكذاب، السراق، ولد الكلب.. ياويله نهار تلقاه تقطع لحمه بأسنانها، سرقها وهرب.

* * *

أيوه ؟ وليلة الحريق بالذات... واحد قال : اقتلوا الخونة... الخونة بينكم... أعداء الوطنية، وصلى على النبي ونزل على سعيد بضربة... سعيد البياع كما يقال عنه أيضاً، وكما كان يقال في رفيقه المرحوم

عمارة... مسكين... يعني... لو لم يكن سعيد قوياً وماهراً، دوّخ صاحبه بضربة مضادة، من يدِ نحاس مريكانية يتسلح بها دائماً، فلق بها حاجب خصمه وتركه سابحاً في دمائه وانفلت بنفسه... لو لم يكن سعيد قوياً وماهراً... وعلى بال دائماً، كانوا يشوونه في النار... أيوه ؟ هذا المضروب في حاجبه بيد مريكانية نحاس والمجروح جرحة كبيرة... أين اختفى ؟ كل المقبوضين ما فيهم واحد مجروح، أو به أثر جرح في حاجبه أو وجهه... وسعيد لا يكذب... الحكومة لابد تلقاه... والعاقل من السكان يربح مكافأة مالية... إذا قدم معلومات عن هذا المضروب.

* * *

19

لم يسبق لها أن رأته طوال حياتها معه على مثل هذا العبوس والتجهم.

أهو غاضب أم متعب أم مريض ؟ ملامح وجهه، واستقامة خطوه وثباته توحي بالقوة المألوفة فيه ؛ لكن إهمال لحيته إلى هذا الحد اختلطت فيه معالمها، وتراكم الأوساخ على ثيابه التي ما تزال رغم ذلك سليمة جديدة، يثير فيها اشمئزازاً منه ومن نفسها : أتهمله إلى هذا الحد ؟ حقاً إنها قد انصرفتْ عنه مدة طويلة إلى الشغل، ولكنه زوجها على كل حال. وماذا يقال عنها وهو في حالته هذه ؟ ربما كان ذلك سر غضبته القاسية المريرة المقيمة على وجهه. ويتخطاها العربي الحمدوني، وهي متربعة عند عتبة البراكة في الصحن، دون أن ينبس بلفظ كأنه يتجاهلها. ويمضي حتي يبلغ أقصى الركن، فيجلس القرفصاء. هم يثقله. وتتنازل صفية بنت سويعد عن كبريائها، معترفة في أعماقها بأنها ظالمة في إهمالها له. فخاطبتْه وهي ترمي إليه بقميص نظيف :

- خذ، بدّل حوائجك.

جاءت لهجة الصرامة طبيعية في خطابها له، كأنها تعنفه وتعنّف نفسها على حاله. لكنه لم يتحرك وظل ينظر إليها في برود كأنها تخاطب غيره أو كأنه لا يسمع. حتى ابنه المنصرف إلى دفاتره بقربه لم يثر انتباهه.

ولمجرد أن تُغير صفية من جمود الموقف، انصرفتْ يداها إلى تحريك الكسكسو أمامها في القصعة ؛ وكانت حباته ساخنة بحيث أحرقت يديها، وأيقظتها مذعورة من الكابوس المزعج، لتبدأ صباحها قبل المعتاد في هذه الأيام الطويلة الراكدة من فترة خريف تستريح فيها معامل تعليب السمك، فيستريح عمالها وعاملاتها مرغمين ؛ إلا فئة قليلة من الرجال الرسميين المداومين يظلون يتحركون بكسل بين تزييت وتنظيف وإصلاح. كان بإمكان صفية أن تتخيّل المعمل وتتخيل الرجال المداومين في حركاتهم المتباطئة، وهي مستيقظة في الفراش، قبل أن توقظ الولد وتعده للمدرسة.

اختلاجات غامضة تجوب أعماقها، واضطراب واضح في حركات يديها، لعلها من أثر حلمها المزعج. ما معناه ؟ سؤال ظل يتردد في وحدتها طوال هذا الصباح، حتى إذا قارب النهار منتصفه اتخذت مكانها في الصحن، عند العتبة، في نفس الجلسة التي تخطاها بها العربي في الحلم قبيل الفجر، وطفقت تعالج بالسكين قطع لفت ترميها في ماء يغلي للغداء دون أن يزايلها هم ثقيل، ورغبة في استجلاء مغزى الحلم. لو كانت الغالية ما تزال بقربها، تساكنها، لوجدت في الحال من يفرِّج كربها، أما وقد أقام لها رفاق كبور براكة جديدة، فقد انصرفت إليها وتركتها وحيدة كما كانت. كانت صفية قد افتقدت حياة الأنس منذ سنوات وألفتها، وكان مجيء الغالية لمشاركتها المسكن بضعة شهور على ما يحيط به من حزن وكآبة، كافياً ليجعلها تقدر قيمة أن يجد المرء من يحادثه ويردد صداه.

* * *

اقترب منتصف النهار، حين داهم صفية خبط قوي على الباب، فاتجهت نحوه ويدها على قلبها المنخلع كأنها تمسكه في إحساس قوي، بأنه يتدلى كما لو تركزت عليه كل جاذبية الأرض. وفتحت الباب ليملأ رؤيتها هيكل دراجة صدئة ؛ وفي لمح البصر، وقبل أن تتاح لها فرصة التعرف على صاحبها ؛ هاجمت في أعماقها ذكرى بعيدة... يالله... أهو حقاً، بريك ؟ ومن غيره ؟ أممكن ؟

ـ أنت ؟

وقبل أن تتم تساؤلها، كان الرجل قد ابتعد تاركاً في يدها رسالة وفي سمعها رنين لفظ واحد.

ـ بوسطة.

وتابعته وهو ينحدر بدراجته وينعرج مع منعطف الزقاق كرسول موهوب إلى زوجها ذات يوم منذ سنوات. وتملت ظرفاً ملوّن الحواشي... أيكون من صاحب زوجها المنتظر : موهوب ؟

وهكذا يكون انتظار العربي قد ذهب سدى، ليحقق انتظارُها الحلم وانتظار ولدها. ومن يمكن أن يكتب إليها غير صاحب موهوب صاحب زوجها وأمله، لو تعلم ما حل بصديقك ياسيدي، لو يعلم أحدكما ما حلّ بالآخر... كانت ما تزال واقفة في مكانها تتابع خواطرها الشاردة، وحين رجعت إلى نفسها انتبهت إلى نظرات كانت تراقبها وصوت يحييها :

- الله يسمعك الخير.

وردّت صفية.

- صباح الخير يا أمي عائشة.

كانت عائشة العرجاء، قد خرجت منفوشة الشعر، بادية البؤس. فقد ساءت حالها في المدة الأخيرة منذ توالي سرقات الرجال لها، ولم تعد تجد متعة في الخروج لجولاتها المعتادة. فهي تقضي كل نهارها في مسكنها، لا تكاد تغادره إلا إلى الحوانيت القريبة لابتياع بعض الشاي أو النعناع... ورغم تقلص علاقتها بالجيران في هذه الفترة من محنتها، فإن تطلعها للأخبار لم يضعف... لولا أن صفية كانت بحاجة إلى من يقرأ لها رسالتها، ولذلك دخلتْ بسرعة، وخرجت متلفعة بإزار منحدرة غرباً حتى إذا تجاوزت حفير النَّتن المتخثر، وتجاوزتْ سكة قاطرة الحجر الصغيرة، بدأتْ تجوس خلال بيوت مبنية متناثرة لتدلف إلى المدرسة. كانت ضجة الأطفال ترتفع من الفصول كخلايا النحل، وأنامل المعلم الدقيقة النظيفة تمزّق الظرف وصوتُه يقرأ :

«الحمد لله والصلاة والسلام...».

وتمتمت بالصلاة على النبي الكريم، وهي تتابع ما يلقى عليها من خبر : لقد خرج من المستشفى. لكن أوان عودته لم يحن بعد وإن كان قد أوشك قريباً. وهو مايزال من جملة المعطوبين في رعاية الصليب الأحمر في سويسرة، وسيعود إن شاء الله بعونه إلى الوطن بعد أقل من شهر فيما يحسب...

المهم أنه لا يزال حياً وما زال يذكر أصحابه، وهو لاشك يذكر قضيتهم وسيتحدث عنها حتماً في رسالته...

«لا... لا تكتبوا لي رسالة، لأنني سأكون قد خرجت من سويسرا، ولكني متعجب من كونكم لم تردوا جواباً على رسالتي الأولى...».

أية رسالة يعني ؟ وهل كتب لهم حقاً قبل هذه الرسالة ؟ لا عليها وليتابع قراءته وشرحه...

«ابعث سلامي إليكم وأشواقي ؛ وإلى كل الأهل والأحباب...» له الله. هذا القلب الكبير... كل الناس أهله وأحبابه.

«... والوالدة عليها ألا تخاف عليَّ بعد اليوم، وأخبروها من الآن أنني فقدت رجْلي اليمنى، وثلاث أصابع من يدي اليمنى كذلك، ولكن أخبروها أنني بخير وصحة...».

لك الله ولكنك حي على كل حال... لك الله يابني... ومازلتَ على العهد.

«... وليس في هذا عيب أو نقص، فآلاف الجنود معي هنا قد فقدوا بعض أطرافهم، وأجزاء من أجسامهم... وكل ذلك بإذن الله...».

لهم الله... وما زلت تذكر قضية صاحبك العربي... ؟

«وو... وزوجتي كيف هي ؟ أخبروها...».

ولكن فيما تعلم صفية لم تكن له زوجة ولا كان يعرف والدَيه...

«أخبروها أنني أذكرها، وأذكر أولادي سعدية وحسن واحمد وسلّموا...».

لم تكن تعلم هذا عن أهله ولكن لمن يكتب ؟

«وقولوا لزوجتي...».

لم تعد تفهم، ولعل ثَمَّ خطأ في شرح ما يقرؤه لها المعلم.

«... احمل الآن رتبة سرجان وسأترقي... والسلام عليكم... ولدك صالح بن علي بن سعيد الرحماني».

وسألت المعلم وهو يرفع عينيه عن الرسالة كأنها تطلب المزيد فقلّب الصفحة، دون أن يجد شيئاً، وظهرتْ عليها علامة حيرة فسألها :

ـ أنت أمه مسكينة ؟

ـ أمه ؟

ـ أنت أم الرجل ؟... العسكري صالح بن...

كان يحاول أن يتذكر اسم كاتب الرسالة، ولكنها كانت شاردة في عالم آخر، فتمتمت وهي تستعيد منه الرسالة بفتور، وقد اتجه بالُها فجأة إلى ضجة التلاميذ المنبعثة من الفصول :

ـ ولدي يقرأ عندكم.

وسارت بخطوات ثقيلة، وقد نسيتْ في خضم خيبتها أن تشكره.

* * *

20

كمجرى نهر كبير تلتهمه الجداول، تفرّق سرب العمال والعاملات في عودتهم، ليذوب في الأزقة عند مدخل الحي... وافترقتْ المرأتان كل إلى وجهتها في الكريان بصمت، كأن انصهار ذاتيتهما والتحامهما لم يعد يسمح بتحية أو وداع. وهل يحيي المرء ذاته أو يودعها ؟ وسارت الغالية تجوس في الأزقة مصعدة نحو مسكنها. من المؤكد أنها لا تشعر بتعب مقابل ما أمضته من يوم نصب في معمل السمك بجانب صفية، كما لم تشعر بذلك منذ أيامها الاولى على خلاف المعهود في المبتدئات. لعل متاعبها العميقة غطّت على كل ذلك، أو لم تترك له حيزاً يملؤه في كيانها. ودلفتْ إلى المسكن. ما تزال البراكة موحشة، لا لفراغها من كبور فحسب، بل لأنها جديدة ما تزال رائحة الخشب تفوح من ألواحها أو يخيل إليها ذلك. لو خُيرت لاختارت أن تبقى مستقرة عند صفية، لكن أصدقاء زوجها رفضوا إلا أن تكون مساكن رفاقهم الغائبين، أول ما يقام بعد الحريق، في أماكنها وعلى أحسن مما كانت عليه، وأن توفر المؤن لأسرهم وأطفالهم. وعندما فكرت بأن تشتغل رفضوا لأن ذلك يمس كرامتهم في الصميم وكرامة رفيقهم.

لكنها لا تحتمل أن تقضي أيامها مطوية على نفسها، واشتغالها كفيل بأن يوفر نصيباً من عنايتهم بها، ليصرفوها على أسر المتغيبين من ذوي العدد والأطفال.

وبابا عبد القادر العساس، حارس الرحبة القديم العجوز وصلة الوصل بينها وبين أصدقاء زوجها في حرج بين منطقها ومنطقهم :

- يا بنتي، ما كرهنا لك الخدمة، ولكن حشومة. وكبور في الحبس تخرج امرأته تخدم وعمرها ما خدمت من قبل.

ولكن كيف يمنعونها من مساهمة بسيطة في تخفيف الحمل عنهم، وهي بمفردها، قادرة بنفسها وبمساعدة غيرها، ورد العجوز العساس :

ـ شوفي مع رجلك...

ووافق كبور نفسه على ذلك، بل ابتهج له، عندما زارته في أول مرة سمح لها بذلك، بورقة خاصة حملها لها بابا عبد القادر العساس العجوز ذات مساء. لقد اعترتها رهبة شديدة وبوابة السجن الصغيرة الثقيلة، تفتح وتغلق دونها لتجد نفسها في فسحة صلدة هامدة، تحدها على بضعة أمتار أمامها، قضبان حديدية سوداء. وتقدَّمها أحد الحراس، وحزمة مفاتيح ثقيلة تطن في يده، يعالج بها بوابة بعد أخرى، وسارت خلفه في ممر طويل ضيق رطب بين الجدران والقضبان الحديدية، وانحرفت خلفه شمالا، وانحدرت تهبط عدة درجات ثم فتح لها غرفة فسيحة يقطعها في منتصفها تقريباً جدار قصير، يمتد منه حتى يلتحم بالسقف سياج تقاربت خاناته، وعلى مسافة متر منه يمتد بموازاته حائط قصير آخر، امتدت منه إلى السقف قضبان حديدية متوازية غليظة. أغلق باب الغرفة عليها وعلى الحارس، في حين ظهر من باب جانبي وراء القضبان حارس آخر، ثم دلف فجأة وراءه. لم تعرفه بسهولة : كبور. كان حليق الرأس والوجه في شحوب لم تعهده فيه، يلفّ حول عنقه بكلتا يديه، كأنه يتقي البرد، معطفه القصير الخالي من الأزرار، وقد بدا قميصه ممزقاً يتدلى تحت حزامه... واقتربت لتلتحم بالسياج، وظلا برهة صامتين، وكان أول من ابتسم. فسألته وكأنها تذكرت للحال أن عليها أن تتكلم :

ـ كيف أنت ؟

وابتسم وهو يتمتم بأطراف شفتيه دون أن يفتح فاه :

ـ لا بأس.

وعادت تسأله :

ـ مريض ؟

ـ كنت... دابا لا بأس علي.

لاحظت ثغرة بين أسنانه الأمامية يكاد يملؤها تورم لحمي شديد الحمرة فتساءلت بلهفة، تتسابق في ذهنها صور الضرب الذي أفقده تلك

السن، وكل ما تعرض له من عذاب :

ـ مالك ؟

تململ بحركة اضطراب، وهو يشد معطفه حول عنقه كأنه يقاوم رغبة التفات نحو الباب الذي دخل منه. وسألها :

ـ كيف حالها، صفية وولدها ؟

أدركت أن سؤالها في غير محله، وأنه ليس في مأمن وأجابت :

ـ كلهم بخير. يسلموا عليك.

وأردف، كأنه لا يريد أن يترك لها فرصة التفكير في شيء :

ـ وأنت ؟

وردت :

ـ الحمد لله ما عندي باس.

ـ بلغيهم السلام.

وفي الحال، كان حارس ثالث قد نفذ من حيث لا تدري إلى ما بين السياج والقضبان، وفتح طاقة في أسفل الجدار القصير تقابلها طاقة في الجدار الموازي. وأخذ من يدها سلة الطعام، وأخذ يفحص كل ما فيها، فقطّع الخبز أطرافاً، صغيرة وخوض في آنية المرق بقضيب معدني في يده، وفتح علبة السجائر واحدة واحدة ثم أعاد إليها لفافاتها، ودفع كل ذلك إلى كبور من الطاقة المقابلة له، وقالت :

ـ دخلت للخدمة مع صفية.

ورد وهو يبتسم، لأول مرة تبينت معالم بهجة حقيقية في ملامحه، وقال :

ـ أحسن لك. مزيان. مزيان.

وخيل إليها أنه ردد كلمة مزيان مرات متتابعة في أعماقه، وهو يحرك رأسه إيجابا علامة الموافقة والتشجيع... وسألته :

ـ وأنت ! باقية لك هنا مدة طويلة ؟

وأجاب :

سلمي على صفية وعلى ولدها : كان يقاوم صفيراً تصدره ثغرة أسنانه الأمامية عندما يتكلم، ويحاول أن يضغط على الكلمات بقوة تعطيها مفهوماً خاصاً، تتبينه في عينيه وتفهمه إجمالا، أو خيل إليها أنها تفهمه أن سلّمي على أصدقائي...

وضرب الحارس الباب الحديدي بمفتاحه الثقيل، معلناً أن الزيارة انتهت ؛ ففتحت فاها لتسأله سؤالا أخيراً قبل انتهاء الفرصة، ولكنه كان قد تحرك نحو الباب، وهو يحدق في عينيها بقوة غريبة، إحدى يديه تحمل الطعام والأخرى تشد معطفه إلى عنقه.

ـ قولي لهم ما عندنا باس، وسلّمي عليهم بزاف بزاف...

* * *

وخُيل إليها وبوابة السجن تُسلمها إلى الخارج، أنه ما زال يردد كلمة بزاف... بزاف... بزاف... يخالطها صفير من ثغرة سنه الأمامية المفقودة.

* * *

تجمدت يدها قبل أن تتم ما كانت بصدده من حركة، ووضعت يسراها على قلبها تتحسس مكان الوجفة. واجتاحها شعور غامض غير مريح. متى عرفت وجفة كهذه ؟ لا تدري على وجه التأكيد. لكنها بدون شك قد عرفتها مراراً في لحظات حاسمة من حياتها، لحظات التوقع، وما أقساها، وحاولت أن تتذكر، وفاحت في الذكريات رائحة حمام مثخن بالبخار، وأشباح نسوة ورجال... كان يوم زوجها الحمدوني منذ سنوات. يومذاك عانت من نفس الوجفة، ثم يوم كبور في السنة الماضية، وأيام أخرى كانت معالم شقاء في حياة متعبة. وماذا اليوم ؟ لم الوجفة ؟ ألحظة أخرى من لحظات التوقع ؟ وماذا أبقى الدهر من شيء يجهز عليه، يستحق وجفة ؟

الظلال تمتد على براريك الخشب والقصدير في مساء كئيب والخطوات المتعبة العائدة من يوم العمل، تطأ أرض الزقاق الرطبة فيما يشبه الركض. وجدول المياه الآسنة يتجدد مجراه إيذانا بعودة الغائبين، فينتعش النتن، تنافسه بنتن مماثل روائح بخور رخيص تنبعث من عدة نقط في الزقاق مع حلول المغرب... ولكن لِمَ وجفة المساء ؟

وانطلقت حركة صفية المجمدة دون أن تلحق الآنية التي كانت تنوي أخذها، وتدلت يدها عن جنبها وجلست متخاذلة على الحصير. كانت تود أن تملأ المقراج ماء تعد به شاياً يزيل عنها تعب اليوم، وأن تسقي كرمة التين بعد أن أهملتها مدة، ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك، واستمرتْ في جلستها ساهمة في لا شيء، في كل شيء والظلال تزحف متحولة إلى ظلام، وتساءلت غائبة عن كل واقع، أو ممعنة في واقع بطبيعتها ألصق : ما الرجل ؟ الرجل... وما المرأة ؟ وارتخى رأسها على كتفها باستسلام، وجسمها كله يعتمد ذراعاً راحتُه على أرض الحصير. وبدتْ من بعيد في مشهد براءة وهدوء يخالطهما التعب أشبه بصورة العذراء في هدنة مؤقتة من مخاض محيّر.

وقفزتْ فجأة، على صوت دكّ مسرع في الزقاق متذكرة غياب ابنها، وفي الحين انفتح الباب الخارجي بعنف ودلف منه الولد لاهثاً فبادرتْه :

- رجعت للمذكوري، ثاني ؟

ورد وهو يلتقط أنفاسه :

- والله ما هو.

- تكذب.

وكأنما تبيّن ألا خطر عليه في الاعتراف، فاستسلم بعد تردُّد :

- هو... يجري على الأولاد.

وردت في توعُّد بارد، وهي تشعل الشمعة، وتستعد لِتُعدّ الشاي :

- شف. خل عليك المذكوري مسكين. الله يسترنا.

* * *

تابعت الغالية بسمعها خطوات رتيبة بطيئة، وتبينتْ نقلة العصا ووقْعها الثقيل المتوازن مع وقع الخطوات في أرض الزقاق، وأحست بالخطوات تتوقَّف عند بابها. إنه يطمئن على أنها عادت وأنها في الداخل، ولعلَّه يطل من شقوق الباب الخارجي ليلمح شعاع ضوء يشي بوجودها، وإلا فسيطرق ثلاث طرقات معلومة. وعادت الخطوات إلى سيرها الرتيب، ونبح الكلب عدة مرات وهو يتبع صاحبه العجوز حارس رحبة الحبوب العتيد. لقد أصبح مع مجموعة من رجال الكريان ينظّمون حراسة ليلية متطوعة دائمة، ليُفشلوا أية عملية إحراق جديدة، وليعلموا رفاقهم بما قد يتهددهم من أخطار الليل... وحين تلاشى صوت الخطوات، تأكدت من أنه لا يحمل جديداً، فنفختْ على مصباح الغار واتكأت، وجذبتْ فوقها عباءة صوفية، وفي الحال حضرتْها صورة يديْن تشدَّان طوق معطف ممزق تلفَّانه حول العنق، فارتعشت لذلك، وتململت والتفتت إلى الجهة الأخرى، وهي تتغطّى إلى قمة رأسها، كأنها تتقي القشعريرة أو تُخفي عن ناظريْها مشهداً غير مريح، ولكن كبور بدا لها لاهثاً يتدلى لسانه من فمه، وعلى حافتي فمه وأطراف شفتيه شيء كالزبد الجاف، لا يستره إلا قميص خفيف تتدلى على جسمه أطرافه الممزقة متوازية، رجلاه تغوصان في رمال كاوية لا حدود لآفاقها، وقطعة شمس حمراء على مقربة من رأسه الحليق، تكاد تلامسه... فرفعتْ عن وجهها العباءة وقد أحست بالدفء يخنقها. أحقاً يعيش كبور هكذا في الصحراء ؟ وهل يستطيع ؟ وتناهى إليها صوت أحد ثلاثة من رفاق زوجها حملوا إليها الخبر :

- الله معهم. نفوهم للصحراء.

ولم ينبس الآخران بكلمة طول الزيارة. وأسرعتْ إلى مسكن صفية تشاطرها الخبر، وكلمة الصحراء عنهما غريبة. وفي جلسة من مأتم، قالت عائشة العرجاء تخفف عنهما :

- الله في كل موضع. الحبس والصحاري للرجال. ودابا الله يفرج.

* * *

لم تكن صفية نائمة بعد، حين دوى في الزقاق ركض قوي متواصل،

وتجاوب في الأزقة المجاورة صوت الصفارات متلاحقاً، فقامت من متكئها مرهفة سمعها متسائلة، وأحست بالولد يقوم بدوره، وبعد فترة سمعته يقول كأنه يجيب عن تساؤلها الضمني :

ـ القوة تجري عليهم !

وسألته :

ـ على من ؟

ـ على الوطنيين، تفتش على العالِم وأصحابه.

ـ وكيف عرفت ؟

وصمت، وقد بدأت أشعة أضواء كاشفة تتسلل من خلال الشقوق، وهي تجوس في الزقاق مع خطى أقدام ثقيلة ثابتة، وعندما تجاوزت المسكن، عادت لسؤالها :

ـ كيف عرفت ؟

وبعد تردد أجاب :

ـ عرفتهم في الحلقة ؟

ـ وأنت كنت اليوم في الحلقة.

ولاذ بالصمت، فلما ألحت عليه، اعترف بأنه كذب عليها من قبل، وأنه لم يشاهد المذكوري ولا دخل فارّاً منه. فقد ظهر العالم من جديد في الحلقة، وتجمَّع حوله الناس، وحدَّثهم عن المسجونين والمنفيين والشهداء والجهاد، وبدأ الناس يهتفون : «يسقط الاستعمار...» حتى فرقتهم القوة وهربوا.. وكأنما أدرك الولد ما ورَّط فيه نفسه من اعتراف، فحاول أن يبرر سلوكه :

ـ أنا حتى حاجة ما كانت في راسي. ادريس ولد المفضل كان عنده الخبر، وجرني معه للحلقة... ومن ثم هربت.

وتناهى من بعيد صوت الصفارات فلم تزد على أن قالت له بصوت جاف :

ـ انعس.

* * *

أحست الغالية بخطوات العساس العجوز تتوقف مرة أخرى عند بابها، لعله يتأكد من أنها اطفأت الضوء ونامت. لا فائدة ما دام اليوم يضن بخبر عن كبور في منفاه الصحراوي كما ضنت شهور قبله. وتمنتْ صادقة أن تنساه فترة لتنام، إنه يملأ حياتها غائباً، أكثر مما كان يملؤها حاضراً. كل شيء حولها يذكرها به، بعذابه ومنفاه، بوجوده : عناية أصدقائه، ونظرات الناس واستفساراتهم ونصائحهم، وتعازيهم وتشجيعاتهم، كل ذلك تتقبله ولا تجد له مذاقاً، كأن المعنية به غيرها أو غير كبور.

ولقد وجدت بالفعل في شغلها بمعمل السمك مصرفاً لأفكارها، لساعات معدودات في اليوم، ولكن ذلك لم يدم طويلا. لا لأنها اعتادت العمل فحسب، بل لأنها أحست أن عناية الأصدقاء لا تغفل... وها هي ذي بين صفوف النسوة أمام طاولات السمك، وقطع السردين الفضية تلمع على طول الصف، وقد بدأتْ يداها تكتشفان مهارة جديدة في معالجة السميكات بالمقص في سرعة غريبة ؛ وإنها لتستطيع أن تلحظ بعض ما يجري حولها من حركات جادة وعابثة، وبين الحين والحين، تخطئها المهارة فتسقط بعض سمكات على الأرض تلتقطها لها إحدى جارتيها، إن انتبهت إلى ذلك. وها هو ذا «الكبران» يمر خلفها بالصف، ولعله لاحظ تعثرها في العمل، أو انتبه إلى سمكات ساقطة قربها على الأرض، التقطها واقترب منها حتى احتك بها جيداً، وإنها لتحس بأنفاسه تتردد حذو أذنيها ؛ وعندما التفتت إليه، خيل إليها أنها تقرأ في عينيه رسالة جسارة وتوسل. لعله قرر أخيراً أن يقتحم القلعة المنيعة عن تصميم وتدبير، ولئن أخطأت في بعض ما فهمتْ من حركته، فلن تخطئ في فهمها إجمالا.

وجاء وقت الخروج ليؤكِّد أفكارها. كان واقفاً بباب المعمل يمارس عملية التفتيش العادية، وبدتْ لها عيناه أكثر جرأة، وأقل تهيباً ؛ وحين جاء دورها تقدمتْ نحوه دون أن تنظر إليه.. وأحست أنه لم يفتشها، وإنما وضع راحتيه على جنبيها كأنه يحتضنها، فانفلتتْ منه بحركة متأففة

صادقة ؛ لكنها لم تكن تقدر أن يقبل عليها «الغوات» صباح الغد، ليعتذر عما ارتكبه «ذاك الكلب» في حقها، لأنه حديث عهد بالعمل ولم يعرف قدرها... ومنذ ذلك اليوم لم تر لصاحبها ذاك وجهاً... ولكنها امتلأت شعوراً بوجود كبور معها في كل لحظة وفي كل مكان. فكيف تنسى ؟

* * *

تلاشت منذ ساعات أصوات الصفارات، ودكّ الخطوات الهاربة والمتتابعة في الأزقة، وإن ظلت تضرب في سمع صفية وهي متكئة تنتظر اليوم. وانقطع عن سمعها كذلك صوت حركة المضغ المنبعث من الولد الذي استلقى في فراشه وهو يلوك قطعة خبز. لقد نام منذ ساعة على الأقل. ووجدتْ صفية نفسها تفكر بالمطاردين في الليل من أصحاب العالم وكبور وسي عبد الفتاح، وكثير من الأسماء التي اشتهرت في الحي وأصبحت معروفة عند من لم يروها قط. دور من هذه الليلة ؟ أقبضوا على العالِم ؟ كيف تكون زوجته ؟ ألأخرى مثل الغالية ؟ وأطفاله ؟ أينتظر بعضهم ما انتظر جلول ولد حدوم ؟ أم لا زوجة له ولا أطفال ؟ كل الناس أبناؤه وإخوته وأهله. ولكن نساء تتعذب وأطفالا وراء الغائبين في السجون والأموات. وعودة العالم إلى الحي من جديد طليعة أحداث لابد أن تقع. وهي. أينتظرها مصير كمصير حدوم في ابنها ونفسها ؟ أممكن هذا ؟ ولكنه وقع لحدوم. وأخوها سعيد أيكون من المتابِعين المطارِدين هذه الليلة ؟ وكيف لا يكون ؟ ما أقواه وأعجزه عن حمايتها. أينتظره مصير صديقه عمارة ؟ وجْفة قلبها مساء اليوم لن تكذب. وتساءلت : ما الرجل ؟ الرجل الأمن والحماية والعون الحقيقي، أية محن تنتظر وأي مجهول ؟ ما الرجل ؟ الرجل الذي يأمر فيطاع، ولا يتلاعب بأمره طفل عاقّ أو بنت. لو أطلق الرصاص على المتحلقين حول العالم لكان من اليسير جداً أن تصبح في وضع حدوم أو أسوأ. ما أعجز أخاها عن مساعدتها وأعجزها عن ذلك. وهذا منتهى البؤس. وحين انتبهتْ صفية إلى أنها لم تنم، والليل قد يكون قارب أو جاوز منتصفه، أدركت أن صوتاً واهناً يملأ سمعها، صوتاً يتناهى من بعيد، كأنه من عالم آخر. ولكنه يتضخم بقدر ما تركز

سمعها وترهف، صوت هدير بعيد صادر من دون شك عن جموع بشرية تردده في رتابة ونظام وإيقاع ؛ لكنه يتضخم قوياً يهز الليل : أأأن... أأأن... يسقط... الاستعمار... يسقط... وخرقت الليل زغرودة قريبة المصدر، من قلب الزقاق تركت صفية على أثرها الوسادة : «عائشة في إحدى نوباتها» وتنبهتْ إلى أن الصوت البعيد لم يعد يصلها... ولكنها عندما ركّزت وجدته يتركب في سمعها من جديد : أأأن الاستعمار... يسقط ؛ لكنه ينقطع ويعود في نوبات بقدر ما يتركز سمعها أو يفتر... وفجأة أدركت أنه ليس هديراً بعيداً، بل هو جد قريب منها، إنه صادر عن ابنها النائم، عن تردد نفسه الرتيب المخنوق، وترجيعه في أعماقها، فقامت للولد تصلح وضعه.

* * *

ككل صباح، ترددت باكراً في جوانب الحي أصوات «الغواتين» ونفيرهم، فقام لندائها عمال وعاملات السمك، وتحركتْ جداول المياه الآسنة معلنة بدء اليوم. وقامت صفية بنت سويعد إلى الخابية في الركن ترش وجهها بالماء، وفي الحال تذكرتْ أنها كانت البارحة بصدد سقي كرمة التين عندما ألهتها وجفة القلب عن ذلك. كانت ريح خفيفة تعبث بأغصان الشجرة الغضة، فتحتكّ بجدار القصدير محدثة بعض خشخشة. لقد تأخرتْ كثيراً في الإثمار، أكثر من المعتاد في بنات جنسها في القرية، لكنها من أصل جيد كما قال المرحوم. ولعل تأخرها لفقر التربة هنا أو عدم صلاحها. وأفرغتْ عليها سطلا وانتظرت حتى يتسرب قبل أن تضيف نصف سطل آخر. ورنتْ إلى بضع ثمرات متفرقة بدأت تكتنز لكنها ماتزال مخضرة صلبة ستنضج جد متأخرة عن الموسم، إنها حلم الشجرة بالعطاء، وبعدها يكون العطاء الحقيقي فيما يلي من سنوات. كل أشجار القرية تحلم بثمرات معدودات متفرقة شاذة عن موسمها، سنة أو سنتين قبل نضجها الحقيقي، مجرد حلم بالعطاء كما تحلم نفوس البشر بالآمال.

ولمّتْ صفية عباءتها، وقطعة فراش كانت تنام عليها، ورمتها إلى ركن البراكة، وتناولت قطعة خبز لفّتها في طرف من إزار لوته فوق رأسها

ليتدلى على ظهرها، ورنتْ إلى الولد الذي ما يزال يغط في النوم، وانتعلت قبقابها الخشبي، وخرجت متوقفة قليلا عند الباب الخارجي، تحشر أصابعها في شق مصراعه، لتغلقه من الداخل بساقطة خشبية قصيرة وانحدرت في الزقاق.

* * *

بدأ طريق العمال والعاملات يتضخم بالسائرين ترفده الأزقة من كل جانب بأفواجهم، كما ترفد الجداول نهراً جارياً، وبصمت سارت الغالية بجانب صفية في المجرى العظيم المنحدر نحو البحر، وعلى مسافات في الطريق هنا وهناك، تتحلق مجموعة أشباح حول بائعي وبائعات الحريرة والقهوة، كأنها محطات التزود في سفر طويل. الطريق صامت والكون كله صامت لا يسمع فيه إلا دك الخطى وطقطقة القباقب، وريح خفيفة تحرك بعض السحب نحو الشرق. وقالت صفية بدون مقدمات :

- البارح كانت القوة تجري على أصحاب العالم...

وقاطعتها الغالية بدون اكتراث :

- فتشوني البارح. البراكة كلها قلبوها والحوائج.

وصدرت عن صفية نأمة ارتعاب.

حوالي منتصف الليل. كانت الغالية أقرب إلى النوم، حين طرق بابها طرقات معلومة، مخالفة لطرقات العساس العجوز عندما تكون محايدة ولمجرد الإخبار. وتكررتْ الطرقات، وسمعت خطوات صاحبها يسرع مبتعداً. طرقات الخطر، وصاحبها خائف متابَع تدلّ سرعة خطوه على قوته، أو أن الخطر زوده بقوة منه. وتهيأتْ في فراشها لما سيحدث. نفس الطرقات تكررتْ عدة مرات منذ القبض على كبور، تُنذر بزيارات غير مريحة، ولكنها انقطعت منذ منفاه أو قبل ذلك... وسمعتْ أصوات خطوات ثقيلة متعددة تدك الأرض في غير انتظام، ولمحت من الشقوق أشعة أضواء تتحرك في الزقاق، وفجأة انخلع الباب الخارجي بعنف، وهاجمتْها أضواء المصابيح اليدوية في قلب البراكة من بابها المفتوح. وعلى الرغم

منها أحست بارتعاب عجزت معه عن أن تقول كلمة أو تتساءل. كانوا كثرة لم تتبين وجوههم، وإنما كانت بين الحين والحين، تلمح بعض سراويلهم أو أحذيتهم عندما تتراقص بعض الأضواء متجولة في أركان الصحن أو البراكة، أما هم فكانوا يتبينون كل شيء فيها، وأكثر من ضوء مسلط عليها. ظلت قاعدة ساكنة حيث كانت، وفتح أحدهم الصندوق الخشبي وبدأ يخرج محتوياته : قميصان وسروال من ملابس الرجال، تحتية تخصها ومضمة قديمة... بضعة نقود، ورقة شغل خاصة بكبور عندما كان بمعمل السكر تحمل صورته، ركز عليها ضوء وتقدم نحوها أحدهم بها :

- تعرفيه ؟

- رجلي.

وأدركت أن السؤال لا معنى له وإنما هو تمهيد لشيء آخر. وسألها :

- وأين هو ؟

- في الحبس.

- عمرك ما شفته ؟

- مرة واحدة.

- وهو باقي في الحبس ؟

- الله اعلم.

- وأصحابه.

- ما نعرف.

- حتى واحد عمره ما جاء عندك ؟

- حتى واحد. وما نعرف حد.

- اليوم بالنهار ما شفت حد ؟

- حتى واحد ما شفته.

- كنت هنا ؟

ـ لا. في الخدمة. ها الورقة عندي.

أعاد إليها ورقة الشغل. وكان الآخرون قد انتهوا من التفتيش، عرفت ذلك من الهدوء الذي أصبح يلف المكان. حينئذ انحرفت عنها المصابيح التي كانت موجهة إليها، وسمعت صوتاً منهم يحذّرها :

ـ ردي بالك.

لم تعبأ بأن تقوم لإغلاق الباب الخارجي أو تتفقده، وإنما ظلّت في مكانها جامدة. وبعد حوالي ربع ساعة، سمعت خطوات رتيبة تعرفها في الزقاق، وأحست بالعساس العجوز يتوقف عند الباب الخارجي، ويطرق طرقاته المعلومة، حتى إذا أجابت بأنها هنا، سمعته يعالج الباب يحاول أن يغلقه...

انحرفتْ المرأتان مع طريق فرعي عند مفترق الطرق المؤدية إلى المعامل. لم تعلق صفية بشيء. كانت أشعة الشمس قد بدأت تتراءى خلفهما في تردد، والريح الخفيفة تتزايد، وتدفع معها سحباً متناثرة في رحلة شتوية صادقة مجهولة...

* * *

أيوه ؟ الحكومة عندها الخبر بأن العسّاسة حتى هم من «الطبقة المعلومة» طبقة سيهم عبد الفتاح وغيره... يعني هذا الشيء ينجيهم من الحريق ؟ طبقة سيهم عبد الفتاح شعلت النار في المرة الأولى، ولابد تشعلها مرة أخرى. وباباهم عبد القادر حتى هو منهم، يلقط الأخبار ويعلمهم بها. الحكومة عارفة كل شيء، والأحسن هو التعاون معها. وامحمد القراب حتى هو منهم. وعالِمهم ؛ كثير من أصحابه الآن في الحبس. ولكن باقي البعض منهم وباقي هو بالذات ولابد يحصل... الحكومة قادرة على كل شيء، والبهايم البقر، أصحاب الكريان، ما هم غير بهايم وبقر...

* * *

كتب للمؤلف

1 ــ روايـات :

- الطيبون، الطبعة الرابعة، توزيع شوسبريس، الدارالبيضاء.
- رفقة السلاح... والقمر، الطبعة السادسة، توزيع شوسبريس، الدارالبيضاء.
- بدر زمانه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.
- برج السعود، توزيع شوسبريس، 1990، الدارالبيضاء.

2 ــ مجموعات قصصية :

- سيدنا قدر، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، الرباط.
- دم ودخان، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، الرباط.
- رحلة الحُب والحصاد، دار الآداب، بيروت، 1983.
- البلوري المكسور، الطبعة الأولى 1996، مطبعة النجاح الجديدة.

3 ــ سرديات للأطفال والفتيان :

- طريق الحرية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، 1994.
- ميساء ذات الشعر الذهبي، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.
- أحلام الفتى السعيد، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.
- بطل لا كغيره، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.

4 ــ دراسـات وأبحـاث :

- عواطف الطفل، الطبعة الثانية، الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط.
- مخاوف الأطفال وعلاقتها بالوسط الاجتماعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1990.

يصدر قريبا للمؤلف :

درب السلطان (رواية)

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هذه الرواية

... تَعْرِضُ الكثير مما يجمُل تمَلِّيه :
صوراً من شخصياتٍ
ومواقفَ تسِمها القوة والشدَّة حيناً،
ويطبعها الضّعف واللين حيناً آخر ؛
ولكنها جميعاً،
تؤشِّر على ما يتَّجه إليه
بكل حميةٍ وحماسة،
مجتمع جادٌّ في تحوُّله
وتجديد آلياته،
ليواجه قضايا العصر ومشاكله...

شخصياتٌ ومواقفُ خِلْتُها
كانت تتحرك فألاحظ،
وتتحدث فأنْصِت...
هي على طريقتها،
وأنا على طريقتي حتى التقينا وتآلفنا.
وكانت «الريح الشتوية»
نتيجة ذلك...

توزيع
سوشبريس

الثمن : 30 درهما